كتاب العربي ٩٦
AL ARABI BOOK

يوم مثالي لمشاهدة الكانجارو وقصص أخرى

٣٠ قصة من روائع القصص العالمية

تقديم: شريف صالح

٦٠٩ ٦٠٢

يوم مثالي لمشاهدة الكانجارو وقصص أخرى

٣٠ قصة من روائع القصص العالمية

تقديم: شريف صالح

كتاب العربي
AL ARABI BOOK
٩٦

كتاب العربي
AL-ARABI BOOK

سلسلة فصلية تقدم مجموعة من المقالات والموضوعات لكاتب واحد أو موضوعا واحداً تتناوله عدة أقلام.

رئيس التحرير
صلاح منصور المباركي
وكيل وزارة الإعلام

Editor in Chief
Salah Mansour Al-Mobarky
Undersecretary of the Ministry of Information

عنوان الكتاب: يوم مثالي لمشاهدة الكانجارو وقصص أخرى
٣٠ قصة من روائع القصص العالمية
الناشر: وزارة الإعلام - مجلة العربي
الطبعة الأولى: ١٥ أبريل ٢٠١٤

العنوان:
ص.ب: ٧٤٨ الصفاة - دولة الكويت - الرمز البريدي: ١٣٠٠٨
بنيد القار - قطعة ٢ شارع ٧٦ - قسيمة ٣

جميع الحقوق محفوظة للناشر
جميع الآراء الواردة في الكتاب تعبر عن فكر كتّابها.

Al -Arabi Book, 96th
A Perfect Day for Watching Kangaroos
15 April 2014
Publisher: Ministry of Information
AL-Arabi Magazine.
all rights reserved.
arabimag@arabimag.net
www.alarabimag.net

E.mail: arabimag@arabimag.net www.alarabimag.net

مجلة العربي على تويتر
@Alarabi1958

مجلة العربي على فيسبوك
facebook.com/arabimag.kw

يوم مثالي لمشاهدة الكانجارو وقصص أخرى

٣٠ قصة من روائع القصص العالمية

تقديم: شريف صالح

يوم مثالي لمشاهدة الكانجارو وقصص أخرى

يضم هذا الكتاب مختارات القصص القصيرة المترجمة التي جلبتها مجلة العربي من مختلف الثقافات واللغات غير العربية، وصافحت بها أعين قراء مجلة العربي على مدى العشرين عاما السابقة.

وتكمن أهمية الكتاب الحالي في كونه يفتح نوافذ القراءة بالعربية على الشعوب غير العربية، فالقصة القصيرة تعتبر من أكثر النصوص تركيزا وتكثيفا للمشاعر الإنسانية التي تجسد رؤية محددة للحياة، من خلال عين ثاقبة لكاتب محدد، يستطيع أن يقتنص هذه الرؤية في كلمات سريعة دون إملال للقارئ.

وبذلك يفتح الكتاب الحالي لقراء العربية حوالي ثلاثين نافذة تطل على ثقافات وشعوب مختلفة تمتلك رؤى مختلفة عن الحياة، لكنها تشترك جميعا في رهافتها الإنسانية وفي قدرتها على بلورة هذه الرؤى في صفحات قليلة، ما يمثل فرصة جيدة للقارئ الراغب في القراءة المتقطعة والمحجم عن طريقة القراءة التي تتطلب الالتزام بساعات طويلة مخصصة للانتهاء من رواية واحدة، تمثل في النهاية نافذة واحدة على الحياة.

لذا، يتوق أغلب القراء لمادة القصة القصيرة، ربما لكونها تلائم وتيرة العصر المتسارعة - لكن مع ذلك المكثفة - في الوقت ذاته، والتي يقبل عليها القراء لكونها تمنحهم الشعور المشبع بقدرتهم على التهام نص مكتمل من بدايته إلى نهايته، في وقت قياسي، مقارنة ببقية النصوص. وهنا قد يكمن سر انتشار القصة القصيرة وكذلك المقال، فكلاهما يمنح القارئ إشباع الإنجاز القرائي لنص مكتمل.

ربما يمكن القول بأن فعل القراءة قد أصبح من العمليات الأساسية للحياة المعاصرة، بحيث تحول الإنسان المعاصر - في أحد أشكال

حياته – إلى أن أصبح إنساناً قارئا؛ وبصفته تلك أصبحت القراءة إحدى وظائفه أو عملياته الحياتية الأساسية. وبناء عليه، فإن النصوص المطولة أصبحت تمثل للإنسان القارئ المعاصر ما يشبه الوجبة الدسمة الثقيلة جدا، التي ترهق الفم والمعدة في عملية الهضم.

وبهذا يكون من الطبيعي لدى الإنسان القارئ المعاصر، أن تكون النصوص القصيرة أكثر أريحية في التناول من النصوص المطولة.

ليس الغرض من هذا التصوير المبسط لكيفية تعاطي الإنسان المعاصر مع القصة القصيرة، إنزال فعل القراءة إلى منزلة فعل آخر أكثر بساطة واستهلاكية هو فعل الأكل أو فعل الالتهام، رغم ما في هذا الفعل الأخير من أهمية لدى الإنسان الطبيعي. لكن غرض هذا التصوير المبسط هو تسهيل فهم عملية التلقي لدى قارئ القصة القصيرة، والبحث عن مشتركات سريعة بين عملية التلقي وبين عملية التغذي. فلا شك في أن هناك من النصوص القصيرة ما يسيء للقارئ ويشوش ذهنه ويضعه في مزاج سلبي. بينما هناك من النصوص المطولة ما يفيد القارئ ويزيده علماً وينقي ذهنه ويمنحه لحظات من السعادة تطول بطول النص. لكننا نكون هنا أيضا في إطار مشابهة بين عملية القراءة وبين عملية التغذي أو الالتهام بغرض الإشباع.

والسبب في عقدنا لهذه المشابهات هو أن الأبحاث والدراسات التي سطرت حول القصة القصيرة قد أضحت مغرقة في التنظير والتعقيد، بحيث ربما أصبح من المستحسن الخروج منها إلى مستوى أبسط من محاولة الفهم. فقد أغرقت التنظيرات في عرض الفرق بين القصة القصيرة وبين الرواية، مع اللجوء إلى التعمق في التصنيفات، بما قد يصيب القارئ بالملل، وبخاصة قارئ القصة القصيرة.

فيمكن مثلا تشبيه قدر الإشباع الذي يحصل عليه قارئ القصة القصيرة بالإشباع الذي يحصل عليه الجائع من ساندويتش، إذا قارنا الرواية بوجبة دسمة متعددة المراحل والأطباق والتعقيدات التي تتطلب

عدة أدوات للتعامل معها.

كذلك يمكن عزو القصة القصيرة إلى ما كان يعرف في بعض المناطق العربية باسم «الحدوتة» والتي ترتبط بأصول لغوية عربية مع كلمات: الأحدوثة، وكأنها تجمع في كلمة واحدة عبقرية بين دلالات الكلمات العربية: الحديث والحدث والإحداث والحادثة.. وهكذا لتخرج علينا بكلمة جديدة مبتكرة.

فيكون حال القصة - بهذا الشكل هو أنها سرد لحدث ناجز من بدايته إلى نهايته.

فالقصة القصيرة ليست فنا غربيا - كما يظن البعض - بل ترتبط بروابط وثيقة بالفنون العربية الحكائية الأخرى من مثل: فن المقامة، فن النادرة، فن الطرائف، وفن الأمثال والحكم الشعبية. وهي فنون أدبية عاشت وانتعشت في الثقافة العربية، ربما قبل غيرها من الثقافات في الغرب والشرق، حيث حرصت الثقافة العربية على نشرها في كتب مثلما في كتاب «العقد الفريد»، الذي وضعه ابن عبد ربه الأندلسي عام 823 هجرية، ليشتمل على «جملة من الأخبار، والأمثال، والحكم، والمواعظ، والأشعار وغيرها». وهو من أمهات الكتب في الثقافة العربية، ومثله كثير في ثقافتنا العربية، بتنويعات كثيرة، منها كتب أبي حيان التوحيدي، التي تعتبر قمة عصرها في القص الفلسفي، إذا ما جاز لنا تصويرها بلغة العصر. كذلك انتشرت في ثقافتنا العربية الإسلامية كتب طبقات الشعراء وطبقات الصوفيين، التي كانت تختزل حياة الشخصيات المهمة في أهم المواقف التي تبرز رؤيتها للحياة وطريقتها في العيش.

بل إننا نجد فن القصة القصيرة متألقا وكامنا حتى في أجزاء كبيرة من كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي، حين يبتكر قصصاً رائعة لتصوير الفضائل الدينية بعمق صوفي واضح.

لكن ربما كان تميز فن القص العربي - كما تجلى في فن المقامة

والنادرة والطرفة والأمثال والأقصوصة وفن الأخبار - يقوم على تحيزه ناحية سمة الشفاهية القديمة، وليس ناحية سمة الكتابية الحديثة، حيث انتشرت الأخيرة وأصبحت لها السيادة في الثقافات الغربية، وبخاصة عقب اختراع المطبعة. بينما بقيت الفنون العربية السردية الصغرى - إن جـاز التعبير - مثل فن المقامـة والنادرة والطرائف والأمثال وفن الأخبار، أكثر تركيزا على النواحي الجمالية الشفاهية، بأكثر من تركيزها على النواحي الجمالية الكتابية. وهذا هو السبب في أن فن المقامة والطرائف وفن الأخبار العربية ظل يرتبط بالبديع والمحسنات اللفظية والجناس بشكل كبير. وهذا الوضع إن دل على شيء فإنما يدل على أننا كنا الأسبق من الثقافات الأخرى في بلورة هذه الفنون وتقديمها للعالم. لكـن لا تزال أمامنا مهمة تطوير هذه الفنون والارتقاء بها لتناسب المستقبل، دون أن نظل نراوح مكاننا أمام ما ابتكره أجدادنا من أصول.

أطلس الكتابة الحلوة

تقديم: شريف صالح

(١)

في الصبا، وفي قرية بالقرب من ضفة البحر المتوسط، كانت تصلني مجلة العربي قاطعة مسافة تزيد على ألفي كيلومتر، من البحار والصحارى والوديان، لأشتريها بقروش زهيدة. وما إن أفتح صفحاتها، بإخراجها المتميز، وورقها المصقول، حتى تأخذني عين «العربي» في رحلة سحرية عبر مدن الشرق والغرب. رحلة تتعانق فيها الصورة والكلمة، التاريخ والجغرافيا. وغير بعيد عن الاستطلاع، كنتُ أتلهف لقراءة القصة المترجمة في كل عدد.

قصص بكل اللغات، من كل دول العالم، وكأن «العربي» مثلما ترسم لي «أطلس» المدن وسحرها، كانت أيضًا تأخذني في رحلة موازية إلى «أطلس الكتابة الحلوة» في فن القصة القصيرة. هذا الفن المراوغ الذي يتأبى على التعريف والتوصيف.

لنقل إذن إنها ثلاث رحلات متشابكة، رحلة تقطعها «العربي» بكامل ألقها، كي تصل إلى يد صبي قروي، ورحلة تأخذني إليها المجلة، نحو مدن تشبه في سحرها، مدن ألف ليلة وليلة، ورحلة ثالثة أحلّق فيها مع قصص بشر لا أعرفهم، ولا أعرف على وجه الدقة أين تقع بلدانهم في خريطة الكون.. ورغم أنهم لا يتشابهون معي في اللغة، والملامح، والعادات، فإن جوهرًا إنسانيًا وعميقًا، يربطني بهم.

(٢)

قبل عصر «الإنترنت» كثيرًا ما طمحت في أن أعثر على كل هذه القصص المترجمة، مضمومة في باقة واحدة. وقد حاولت مرارًا البحث عن بعضها، دون جدوى! من ثم، فإن هذا الكتاب هو حلم من أحلامي الخاصة، قبل أي شيء آخر.. بل مازلت أحلم بكتاب يضم أجمل ألف قصة قصيرة في العالم كله.

وصدور «كتاب العربي» الذي يضم ٣٠ قصة قصيرة عالمية، معظمها بالفعل باقة من الروائع، هو بداية الحلم. وقد فكرت كثيرًا أثناء تحريره، هل من الأفضل الترتيب التنازلي للنصوص وفقًا لتواريخ النشر، من الأحدث إلى الأقدم؟ لكن، ورغم أهمية التوثيق، نحن لا نقدم - هنا - حصرًا لكل النصوص التي نُشرت في المجلة، كما أن تواريخ نشرها كانت مجرد مصادفة عمياء، لذلك اكتفيت بثبت تواريخ النشر لمن يرغب في العودة إلى أعداد المجلة.

هل ألجأ إذن إلى الترتيب الألفبائي لعناوين النصوص، أم أسماء الكتاب، أم تاريخ النشر الأصلي للقصة لإدراك تطورها التاريخي؟ وهو أمر متعذر.

وبرغم أن طبيعة القصة القصيرة أنها مستقلة، ومكتفية بذاتها، فإنني تذكرت شغفي الطفولي بالرحلة التي كنت أقوم بها على «بساط» كل قصة، وقررت أن يكون الكتاب نفسه بمنزلة «أطلس» إبداعي لفن القصة القصيرة، من ثم بدأت بالكاتب الأمريكي الأشهر إدجار آلان بو، تكريمًا لريادته في هذا الفن، وأيضًا أسبقيته التاريخية، ثم واصلت الرحلة هبوطًا نحو الجنوب، في اتجاه أمريكا اللاتينية، مرورًا بأوربا العتيدة، من غربها وشمالها إلى جنوبها وشرقها، ومن روسيا العالقة بين أوربا وآسيا، إلى آسيا حيث إيران شرقًا، والصين في الوسط واليابان غربًا، قبل أن يختم بنا «البساط السحري» الرحلة في قلب إفريقيا السمراء.

هذه المقاربة الجغرافية، نوعًا ما، ستعطي إدراكًا لا بأس به، لطبيعة فن القصة القصيرة في آداب الأمم المختلفة، فهي أولًا سمحت بتجميع إبداع كُتاب كل بلد أو قارة معًا، وكذلك كل المنتسبين إلى لغة معينة، فمثلًا النصوص المكتوبة بالإسبانية تم تجميعها مع بعضها البعض. كما راعيت في هذه المقاربة، ترتيب أبناء الثقافة الواحدة تاريخيًا، من الأقدم إلى الأحدث، ربما يسهم ذلك في إدراك التطور التاريخي، خصوصًا أن النصوص الثلاثين تغطي تقريبًا مائتي عام من عمر هذا الفن، بدءًا من إدجار آلان بو وانتهاء باليباني موراكامي والإيراني محمدي.

كما أزعم أن هذا الترتيب يعطي رؤية متماسكة، ودالة، لا يوفرها

أي ترتيب آخر. عدا أنه يكشف لنا اتساع الخريطة الإبداعية التي اشتغلت عليها مجلة «العربي»، فمن الواضح أن القائمين عليها كانوا واعين بأهمية التنوع، وضرورة تعريف القارئ بفن القصة القصيرة عبر القارات الست.

ولا شك في أن من مزايا تحرير هذا الكتاب، إعطاء نبذة أكبر عن المؤلفين، وهو ما لم يكن متاحًا أثناء النشر في المجلة، وقد تم ترتيبها أبجديًا في خاتمة الكتاب، لعدم إرباك القارئ بكثرة الهوامش.

(٣)

بطبيعة الحال قد لا تنال القصص كلها رضا القراء جميعًا، ومن حق القارئ بالطبع أن يتساءل بعدما ينتهي من قراءة إحداها: هل هذه قصة قصيرة؟ هذا هو السؤال البسيط والماكر حول ماهية وهوية هذا الفن المراوغ: القصة القصيرة Short Story؛ ولا أملك - شخصيًا - إجابة جامعة مانعة، فالبعض قد يُعرّفها بأنها «سرد نثري أو حكائي»، لكنها بذلك لا تتمايز عن الروايـــة، ولا الخرافة Fable، وحكايات الأولين. ومن ضمن هذا الباقة بالفعـــل قصة بعنوان «قاتل التنين»، تقيم علاقة تناص مع القصة الأسطورية «الجميلة والوحش»، وهي أقرب إلى روح الحكاية الخرافية، منها إلى «القصة القصيرة»، وإن كان هذا لا يقلل من رهافة أسلوبها. وفي ظني، أن ما يجعلها «قصة قصيرة» هو العناية بالتفاصيل، التي تغيب عادة عن تلك الحكايات، والخاتمة المفتوحة التي لا تحسم أي شيء.

وقد يكون تعريفها كميًا بأنها تكتب في حدود ألفي كلمة، أو أقل من عشرين صفحة، تمييزًا لها عن «القصة متوسطة الحجم» والقصة الطويلة Novella أمرًا لا بأس به، لكنه تعريف حيادي لا علاقة له بالإبداع، لأن رص الأسطر وراء بعضها لن يخلق منها قصة قصيرة. وقد نفاجأ بأن نصوصًا تُكتب في حدود سطر تقريبًا، تنضوي تحت جنس القصة القصيـــرة، أو ما بات يعرف بالقصـــة القصيرة جدًا «ق.ق.ج»، مثلها في ذلك مثل نصوص تناهز المائة صفحة. كما في بعض أعمال تشيكوف. ومازال النقاد يختلفون بشأنها هل هي قصة قصيرة أم رواية قصيرة؟

إن الحجم وحده ليس معيارًا للتمييز، كما أنه يكشف لنا عن تداخل الأجناس الأدبية، فالقصة القصيرة قد تصغر حجمًا حتى تشابه قصيدة نثر أو شعر «الهايكو»، وقد تطول حتى تتماهى مع قواعد وتقاليد الرواية. لكن هذا لا ينفي أن جميع القصص التي بين أيدينا أقل من خمس عشرة صفحة، ولعل أطولها «رجل شهير» هي بالفعل أقرب إلى مخطط لقصة طويلة ناجحة، نظرًا لكثرة شخصياتها، ومشاهدها، وطبيعة موضوعها وحبكتها.

تلك الحيرة في التعريف، هي ما دفعت البعض إلى القول، بطريقة قد تبدو مضحكة، بأنها «قصة تُقرأ في جلسة واحدة»، ورغم أن هذا التعريف صحيح غالبًا، لكن ماذا لو عثرنا على قارئ ينتهي من قراءة رواية في جلسة واحدة، هل نعتبرها - بهذا المنطق - قصة قصيرة؟ أو كان القارئ ملولًا إلى درجة أنه يقرأ صفحة واحدة في كل جلسة!

إن أصدق تعريف - في رأيي - ينبع من استقراء بنية القصة القصيرة وملامحها، عبر تاريخها، فهذا التراكم الجمالي يخلق لنا النص المتعالي، المثال أو النموذج، الذي شارك في كتابته عباقرة الكتابة. ويمكن القول، باطمئنان، إن هذه القصص الثلاثين، تشكل في مجملها نصًا متعاليًا نموذجيًا، يجيب بثقة، عن سؤال: ما هي القصة القصيرة؟

(٤)

من المؤكد أن القصة القصيرة هي «سرد حكائي يُكتب - على الأرجح - في حدود عشرين صفحة، فأقل.. وبإمكان القارئ العادي أن ينتهي منها في جلسة واحدة.. لكن الأهم من ذلك أنها «سرد واحدي»، بمعنى أنها تتمركز - غالبًا - حول:

- شخصية رئيسة، حتى لو صاحبها عدد قليل من الشخصيات الثانوية.
- حدث أساسي واحد.
- مشهد واحد.

أي أنها لا تنشغل - مثلًا - برصد علاقة عاطفية بكل تاريخها، وازدهارها وانكسارها، بقدر ما تنشغل بـ «قُبلة» عابرة. يتكثف ضوؤها حول «دوّامة» في النهر وليس «مسار» النهر كله من المنبع إلى المصب. لذلك - وعلى عكس كاتب الرواية - يتخلص كاتب القصة القصيرة

من الشروح والاستطرادات والمقدمات، وهو ما يمكن تلخيصه في جملة واحدة: «التكثيف ثم التكثيف ثم التكثيف» في الشخصيات والحدث والمشهد.

وباستقراء بعض القصص التي بين أيدينا مثل: ديمتريو، رجل شهير، آريان، الموسيقي يانكو، الكلمة، والعرق، سنلاحظ أنها تقريبًا قصة «الشخصية الواحدة»، شخصية منفردة تعيش صراعًا ما، والقصة كلها بمنزلة رسم «بورتريه» لها نفسيًا وجسديًا.

بينما معظم القصص تتمحور حول شخصيتين أو ثلاث على أقصى تقدير، ومنها: «جزيرة الجنيَّة» التي تتناول قصة بطل يتابع ظهور جنية في جزيرة ما، «الرأس ذو الريشة» عن الساحرة والفزاعة التي بثت فيها الروح، «الأسطوانة» عن حطاب يلتقي رجلًا عجوزًا يزعم أنه «ملك»، «الطرد» عن مأساة أب عامل يفجع بمصرع نجله، و«مثلث متساوي الأضلاع» عن خيانة زوج لزوجته.

إذن تحدد القصة القصيرة - شئنا أم أبينا - شخصياتها، في أقلٍ عدد ممكن، وغالبًا ما يجمع الشخصيتين موقف درامي متوتر، فمثلًا في «نوافير في المطر» يخبر الحبيب حبيبته بانتهاء العلاقة، دون سابق إنذار فتبدأ في البكاء بلا توقف، في الوقت نفسه تهطل الأمطار بغزارة، وكذلك «يوم مثالي لمشاهدة الكانجارو» يزور شاب وصديقته حديقة الحيوان لرؤية الكانجارو، والقصة كلها لا ترصد إلا هذا الحدث. مثلما لا ترصد قصة «آريان» إلا حدث اغتصاب البطلة.

وبرغم أن القصة فعليًا قد تستدعي مشاهد من الذاكرة، أو تقوم بعملية استرجاع واستباق، وتشكيل ما لخريطة الزمن، فإن الصدارة تظل دائمًا لمشهد واحد أساسي، فمثلًا في قصة «السيد بريتشارد»، المشهد الأساسي هو الزيارة المتكررة التي يقوم بها الإنجليزي العجوز إلى الراوي الذي يعلِّمه اللغة العربية، وفي «مربي البط» المشهد الأساسي المتكرر هو حراسة البط في البحيرة، وفي «الطرد» مشهد العمال في الميناء، و«بيضة الحمامة» مشهد زيارة الرسامة لصديقتها، و«صباح الليلة الأولى بعد الألف» مشهد الحوار المتخيل بين شهريار وشهرزاد.

ولو عدنا إلى معظم الشخصيات التي دارت حولها القصص فسنجد أنهم من العمال والمغمورين والمهمشين والمتوحدين مع أنفسهم، ومن أخفقوا في تحقيق أي نجاح يذكر، لذلـــك لا عجب في أن توصف القصة القصيرة بأنها «أغنية الفرد لا صوت الجماعة».

(٥)

قد يكون العنوان أول أو آخر ما يكتبه القاص، لكنه - في كل الأحوال - لا يبتعد - كما نرى في هذه النصوص - عن استلهام اسم البطل مباشرة مثل: يانكو، ديمتريو، بريتشارد، ب. وردز ورث، أو استلهام الحدث الرئيس/المشهد، فمثلاً «الطرد» عنوان يشير إلى الطرد الذي سقط فوق رأس نجل العم لوكاس، «رسالة غرامية» عن الرسالة التي يكتبها البطل إلى حبيبته، «بيضة الحمامة» يعبر عن الفكرة المركزية التي دارت في الحوار بين الصديقتين وأسست للحدث، «المفقود» عن عودة الغائب منذ سنوات طويلة.

من ثم يطغى على عناوين النصوص: الاسم المفرد، أو المركب الإضافي/الوصفي الدال على الحدث/المشهد، وإن كان بعضها يعمد إلى التمويه والغموض لتحفيز القارئ وتنشيط تفاعله مع العنوان، بوصفه العتبة النصية الأولى التي تقيم علاقة مع خارج النص من ناحية، ومع جسد النص ذاته من ناحية أخرى. ونرى ذلك في عناوين مثل: «يوم مثالي لمشاهدة الكانجارو»، الذي يشير ببساطة إلى زيارة حديقة الحيوان، أو «مونولوج المرأة التي اكتشفت الأناناس»، والنص بالفعل عبارة عن مونولوج لامرأة خذلها زوجها، أو «مثلث متساوي الأضلاع» الذي لا يوحي مباشرة أننا أمام حدث خيانة زوجية لا يخلو من طرافة.

وسواء أشار العنوان مباشـــرة إلى الشخصية الرئيسة، أو الحدث/المشهد، أو حتى الثيمة التي يعالجها النص.. أو جاءت العنونة إيحائية غير مباشرة.. فالملاحظة الجديرة بالاعتبار، هي ابتعاد العناوين عن الجمل التامة نحويًا ودلاليًا، لأنها بمنزلة إجهاض لأي علاقة محتملة بين القارئ والنص. فنقص العنوان - نحويًا ودلاليًا - هو أول توتر جاذب لإيقاع القارئ في شبكة القص.

(٦)

تعد البداية بمثابة التوتر الثاني. فما إن يحيل العنوان إلى نصه، مثلما

تشير اللافتة إلى الشارع، ويأخذ بانتباه القارئ، ستظل حمولة العنوان الفكرية والنفسية والدلالية قابعة في مكان ما، داخل وعي المتلقي، يحاول أن يتأوّل النص كله، في ضوئها. ثم تأتي البداية فتستولي على حواسه بما تجسده من لحظة التشوش، والتوتر، والاضطراب، والنقص، واللانظام. فمثلاً في بداية قصة «موجومو» نقرأ: «توقفت موكامي أمام الباب ثم أدارت رأسها ببطء وأسى، وتوجهت ببصرها صوب دخان الموقد الكثيف وذلك المقعد الصغير بجانب البيت فترددت قليلا، لكنها قالت لنفسها: «لا، لقد قررت ولابد أن أرحل!»

سطر واحد يكشف لنا عن: موقد، دخان كثيف، بطلة مترددة، قرار مصيري، رحيل. ألا يستدعي كل هذا التوتر، عشرات الأسئلة في ذهن المتلقي، الذي سيتابع القراءة بحثًا عن إجابات؟

لهذا السبب قيل إن «القصة القصيرة محذوفة البداية»، مع أن أي قصة، كخطاطة مادية مكونة من كلمات، لابد أن تكون لها بداية محددة ونهاية معيَّنة، فكيف تكون محذوفة البداية؟ أو تكون نهايتها «مفتوحة»؟

المسألة هنا مرتبطة بحيل الحكي، الذي لا يبدأ بنا من البداية المنطقية الطبيعية، بل ربما لا يبدأ بنا إلا من لحظة النهاية ثم يستعيد كل شيء في ما بعد، فنحن – مثلاً– نرى البطلة المعذبة تستعد للهرب من بيت الزوجية، هذه البداية، هي في حقيقة الأمر «لحظة النهاية» لحياتها هنا، ثم أثناء فرارها تستعيد تاريخ علاقتها مع زوجها، من قبل الزفاف، وحتى ذكرياتها في بيت أبيها. ولن يكون ثمة قيمة سردية للقصة، لو بدأت من طفولتها في بيت العائلة ثم رغبة الشباب في الزواج منها، ثم زواجها من عجوز قاس ثم تفكيرها في الهرب.

بعدها تأتي النهاية كإشباع لكل هذا التوتر الذي كشفته البداية، محاولة لإجابة عن أسئلة، سكون لحركة اضطراب، كشف غموض والتباس، لحظة تنوير وإضاءة النص كله. فالبطلة موكامي تهرب في الظلام، للخلاص من قسوة زوجها العجوز، وتحتمي أثناء سيرها وخوفها بأساطيرها الدينية، إلى أن تجد نفسها نائمة تحت شجرة موجومو المقدسة، وعندما تفيق، يكون كل توترها قد زال، مع آخر سطر في النص: « ثمة بقرة كانت تخور هناك بعيدًا، استيقظت

موكامي على إثرها من حلم يقظتها وبدأت تتحرك قائلة: «لابد أن أذهب!» بينما كانت شجرة موجومو الضخمة لاتزال سامقة وصامتة ومليئة بالأسرار».

لا يعني هذا التحليل لبداية ونهاية إحدى القصص، أنها جميعها استوفت ذلك جماليًا، فمثلًا البداية في «جزيرة الجنية» مقالية فلسفية، ورغم أنها تبرر - لاحقًا - رؤية البطل الراوي للجنية، فإنها تعدّ مقدمة ثقيلة، كان يمكن الاستغناء عنها، كذلك في قصة «آريان»، ورغم براعة الوصف، فإننا أمام وصف مسهب طويل، وعجائبي، لمدينة الخراب، ولم تبدأ حركة التوتر الحقيقية إلا مع ظهور البطلة وتعرضها للاغتصاب.

في المقابل، قد لا تمنح النهاية، لحظة التنوير والكشف فقط، بل تتجاوزها إلى لحظة سرد عادية، كأنها تلويحة باستمرار الحياة، أو يغلق الحكي بموت الشخصية الرئيسة. وهو أمر في ظني يناسب السرد الروائي أكثر من سرد القصة القصيرة. وإذا عدنا إلى قصة «المفقود» فسنجد أن حوارًا باهتًا، مرتبكًا، يدور بين الزوج العائد بعد غياب خمسة عشر عامًا والزوجة التي لم تستوعب الصدمة/المفاجأة، وربما لا تريد أن تستوعبها أساسًا. ولم يحدث لذلك الحوار أي تطور دراماتيكي إلى أن تأتي الفقرة الأخيرة:

«دخلت إلى غرفة النوم وعادت مرة أخرى مع بطانية وملاءات ووسادة وبدأت في الترتيب فوق الأريكة.

هل سوف أنام هنا؟

نعم. في الداخل ننام أنا و«إتي»

هذا السؤال الكاشف والجارح من الزوج، والإجابة البسيطة من قبل الزوجة، هما لحظة تنوير نموذجية، لأنهما يوحيان - تلميحًا لا تصريحًا - بأن الزوج العائد، ليس مفاجأة سارة للزوجة والابنة، ولم يعد له مكان في فراش زوجته، ولا في حياتها! وبالروعة ذاتها تأتي لحظة النهاية في قصة «العرق»، فالعاملة الفقيرة التي أرادت الخلاص من رائحة عرقها، وجذب حبيبها بشراء زجاجة عطر فوجئت به يتساءل عندما التقاها: «ما الذي فعلتيه بنفسك؟ لماذا تعطّرت بهذه الرائحة الرخيصة المنفرة يا جيني»؟، سؤال يساوي في عنفه،

طعنها بخنجر!

(٧)

إن توتر البداية، وإشباعها عند النهاية، يشكلان مفارقة أساسية في جمالية القصة القصيرة، فمثلًا في «رسالة غرامية» يوحي العنوان، وبداية الرسالة بعمق العلاقة العاطفية بين «كاتب الرسالة» و«المكتوب لها الرسالة»، لكن مع توالي كتابتها - وقراءتها من قبل القارئ في الوقت نفسه - يتكشف للقارئ بوضوح أن مآل هذه العلاقة إلى الفشل والبؤس!

ما يعني أن ما يظهر في البداية، لا يبقى كما هو عند النهاية، دلاليًا وجماليًا، والعلاقة بينهما أشبه موسيقيًا بعلاقة «القرار بالجواب». وهنا تتجلى ما يسمى «المفارقة» Paradox التي هي جوهر القصة القصيرة وسرّ تميزها، ففي «مونولوج المرأة التي اكتشفت الأناناس» نتابع الحكي الداخلي لامرأة سعيدة، وشيئًا فشيئًا يتسرب الحكي إلى ظلال معتمة في علاقتها مع زوجها، لتأتي النهاية مع اكتشاف خيانة الزوج في نزوة لا معنى لها، وهكذا تحطمت حياتها السعيدة لأسباب ملتبسة واهنة. ومهما بدت القصة أقرب إلى مشهد بصري مثل «كلمة»، فإنها لابد أن تنطوي على مفارقة، شفيفة، قد لا تُدرك بسهولة، أو تتطلب إعادة قراءة العنوان بتأن. ففي «كلمة» نحن أمام مشهد بصري أسطوري، لشدة جماله وتأثيره في نفس البطل ينسى «الكلمة» التي أراد أن يقولها، رغم أن كل الأسباب كانت مهيأة كي ينطق بها!

كتّاب القصة القصيرة العظام، لا يولون «المفارقة» عنايتهم الفائقة فقط، بل ينسجونها في قالب من السخرية، وخفة الظل، والتهكم الإنساني، وتعميق ذلك الشعور الآسيان بهشاشة وضعف الإنسان وهو ما نلمسه في قصص كثيرة مثل: «أسطوانة»، «مونولوج المرأة التي اكتشفت الأناناس»، «الرأس ذو الريشة»، «رجل شهير»، و«مثلث متساوي الأضلاع».

(٨)

من المؤكد أن الحياة لا تتوقف عن إبهارنا، بمفارقاتها الشجية والموجعة، فمثلًا في اللحظة التي ينتظر العم لوكاس عودة ابنه بالأجر والطعام

لأسرته، إذا بالابن يعود جثة هامدة في قصة «الطرد». ويحدث أيضًا أن ينخدع رجل - تحت وطأة الشهوة - بامرأة غامضة تضع عدسات و«باروكة» شعر، ويقيم معها علاقة، وآخر ما يتوقعه أن تكون تلك المرأة هي زوجته ذاتها! كما في قصة «مثلث متساوي الأضلاع».

صحيح أن المفارقة هي جوهر القصة القصيرة، لكن ما الجديد هنا إذا كان الواقع نفسه حافلا بالمفارقات؟ الجديد هو «تقليب كل عناصر القصة ومفارقتها، بملعقة الخيال»، وهو ما يسميه البعض «التغريب» أو «نزع الألفة»، أو إعادة تنظيم «فوضى العالم» وفق منطق ما، متماسك، وسحري.

فإذا عدنا إلى معظم قصص تلك الباقة المختارة، فسنرى أنها رغم واقعيتها، وعنايتها بالتفاصيل، مفعمة بالخيال ومعجونة به، مثلا «العناكب الملعونة» تتناول حكاية واقعية جدًا عن أب إيراني يهجر زوجته التي لا تنجب الولد ويتركها مع خمس بنات، ثم تموت الزوجة دون أن يدري، وتخفي الابنة الكبرى الخبر عنه، لكن تحولات القصة كانت آية من آيات الخيال الجامح، الذي فرض منطقه السحري الخاص على المتلقي. والأمر نفسه يتجلى في «بيضة الحمامة» التي تتوازى فيها دقة التفاصيل، بالتخييل، وكذلك في «الأسطوانة» عن تلك الأسطوانة المضيئة في راحة يد ملك عائد من زمن غابر! و«جو ريفي» عن رجل يعيد بناء الريف الذي هجره داخل الشقة التي انتقل إليها في المدينة، ولنا أن نتخيل كيف سيكون الريف، بكل مناظره وحيواناته، داخل شقة! وأيضًا «ديمتريو» عن وفاة كاتب شاب، اكتشف صديقه أنه قد سجل يوميات حياته إلى سنوات طويلة، تالية لوفاته.. فهل معنى ذلك أن صديقه الميت، مازال يواصل الحياة بطريقة ما؟ إنها حاسة الخيال، التي لولاها لأصبحت القصة القصيرة، نسخة رتيبة ومشوهة من الواقع!

(٩)

في قصة «صباح الليلة الأولى بعد الألف»، وهي حوار تخييلي بين شهريار وشهرزاد، لا تواصل فيه حكاياتها المشوقة، وإنما يناقشها شهريار عن أسرار الحكي والمعرفة، كواليس اللعبة التي أسرته بها، لتوضح له أن سحر لذة المعرفة أقوى، وأكثر بقاء، من لذة الجنس.

ومما قالته: «لنرجع إلى الشـعراء: حينما يؤكد لنا أحدهم، ونعرفه نحن أنفسنا، أنه يحمل جديدًا، أين يوجد هذا الجديد؟ في الحقيقة، هو وإخوته، منذ البداية، لا يفعلون شـيئًا سـوى مساءلة مصيرنا، والموضوعات الثابتة عن الحب، البهجة أو الغم، العالم، الموت والآخرة. تحمل ابتكارية الشـاعر الطريقة التي ينتهجها وينتظم كلماته لكي تمنح إضاءة جديدة للسـؤال الأبدي عن أصولنا، ذاتنا ومستقبلنا. خاصية الشاعر، ليست «ماذا» وإنما «كيف»، أي جانبه غير القابل للتقادم، أي صوته.

معنى ذلك أن سؤال: ماذا تقول القصة؟ أو ماذا أراد الكاتب أن يقول؟ هو سؤال في الاتجاه الخاطئ، يهدف إلى ممارسة سلطة وتعميم أدلجة معينة، لكنه لا يكشف أبدًا جماليات النص، فكل القصص - في التحليل الأخير - هي عن الحب والبهجة والموت والشقاء الإنساني... لكنها أبدًا لا تتساوى في «كيف».. أي كيف عبرت عن ذلك.

من السهل أن نلتقط ثيمة مركزية تدور حولها كل قصة، مثلًا قصة «ب. وردز ورث» تخبرنا أن العالـم أكثر فظاظة من أن يحتمله قلب شاعر، وقريبًا من ذلك قصة «الموسـيقي يانكو» حيث قضى العالم بقسوته على حياة الموسيقي الطفل. وليس غريبًا أن تحمل القصتان اسم البطل في العنوان، وأن تنتهيا بموته، في ملمع رومانسي عميق، يجعل لرمزية الغياب سلطة أقوى من سلطة الحضور.

كذلك «الطرد» تتناول ثيمة أن الفقراء يزدادون بؤسًا، وفي «آريان» تلك المدينة الأسطورية المشغولة بخرابها الهائل لا أحد فيها سوف يسمع صراخ فتاة تغتصب في قبو أسفل بيتها!

كل هذه الثيمات رائعة، لكن لن تكون لها قيمة جمالية تذكر لو كانت في قصة مكتوبة برداءة. إذن، فالمهم كيف صور الكاتب، أو كيف سرد الراوي قصته. مثلًا في «يوم مثالي لمشاهدة الكانجارو» لا نستطيع أن نضع أيدينا مباشرة على ثيمة مباشرة وجاهزة، لكن هذا لا ينفي عن القصة جمالها ورهافتها، وما تثيره فينا من تأمل، ورغبة في مقارنة حياتنا الإنسانية مع حياة الكانجارو.

ليس معنى ذلك أن كل كاتب قصـة، عليه أن يضمنها عنوانًا جاذبًا، وبداية متوترة، ونهاية كاشفة، وحوارًا مقتضبًا ذكيًا، ووصفًا كثيفًا،

وثيمة، ومفارقة ساخرة.. فرغم أهمية كل ذلك، فقد يستحيل على أي كاتب أن يُولي عنايته بكل عناصر القـص، للإجابة عن «كيف» بصورة نموذجية، لكنه - على الأقل - يقدر على الاشـتغال ببراعة على بعض تلك العناصر، دون الإخـلال الفادح ببقيتها. مثلًا قصة «المفقود» تكاد تخلو من الوصف، فهي أقرب إلى «حوار» في مشهد مسرحي، وعلى العكس تكاد «آريان» تخلو من الحوار، فهي أقرب إلى لوحة وصفية سريالية هائلة.

(١٠)

برغم أن الصوت أو السـارد أو الراوي، يحظـى باهتمام كبير في التحليل الروائي، فإن أحدا لا يهتم كثيرًا بالوقوف إزاء الصوت الذي يرتب عناصر القصة كلها بهذه الكيفية أو تلك. وكأن القصة القصيرة تحكي نفسها دون وساطة من أحد!

لكن باستقراء هذه القصص سنلاحظ أن ثمة راويًا، شخصًا مبهمًا يقف خارج القصة - أي ليس من شخصياتها - يرويها بحيادية تامة، دون أي تدخل، كما في «صباح الليلة الأولى بعد الألف»، فلابد أن راويا رأى، وسمع الحوار بين شهرزاد وشـهريار ونقله إلينا - نحن القراء - بلا زيادة أو نقص، ودون أي تدخل منه.

هذا الراوي الخارجي، يقف على مسافة حيادية من القصة، ولا يتدخل فيها، ولا يعرض لنا وجهة نظره الخاصة، بل يتركها تنساب من تلقاء ذاتها. لكنه - هنا - محدود المعرفة، بمعنـى أنه لا يعرف أكثر من الشخصيات، ولا يرى أكثر مما تراه. لكن قد يكون هذا الراوي الخارجي كلي المعرفة، يستدعي ذكريات الشخصيات، ويعرف ما تفكر فيه وما تنوي فعله، ويلم بهواجسها وظنونها، كما في قصة «موجومو».

في مقابل نموذجين للراوي الخارجي، لدينا أيضًا نموذجان للراوي الداخلي، الذي قد يترك أثرًا يدل عليه كشخصية ما داخل القصة، ثانوية أو رئيسة، مثلما في قصة «الطرد»، حيث يكشف الراوي - وهو شخصية ثانوية - عن نفسه بأنه «شـاعر» وصديق للعم «لوكاس». وفي «ديمتريو» الراوي شخصية رئيسة بوصفه صديق البطل، الكاتب المتوفى.

وقد يكون الراوي هو البطل ذاته، يروي لنـا بالضمير الأول «أنا»،

وهنا تتضاءل تمامًا المسـافة الحيادية التي بينه وبين القصة، التي يمكن الشعور بها في الحالات الثلاث المشـار إليها. إنه متوحد مع قصته، يرويها، بكل حميمية، بصوته هو، ومن منظور رؤيته كما في «الأسطوانة» و«مونولوج المرأة التي اكتشـفت الأناناس»، «والعناكب الملعونة» وغيرها.

إن الراوي، أو الصوت السردي، آلية بالغة الأهمية، كلما تمعن فيها الكاتب، نجح في بناء نصه واختيار النسـيج اللغوي المناسب، ففي «الأسطوانة» نحن لا نسمع صوت الكاتب بورخيس، بل صوت الحطاب البطل/الراوي. حتى عندما يبهت حضور الراوي، ويبدو حياديًا، فهو لا يختلق نسيجًا لغويًا جميلًا في ذاته، وإنما ينبع جمال ذلك النسيج من مطابقته لبيئة الحدث، وطبيعة شخصياته، وهكذا عندما نقرأ «يوم مثالي لمشاهدة الكانجارو»، فإننا نشعر كأننا بالفعل في حديقة الحيوان ونشاهد عن كثب هذا الحيوان، ونخضعه للملاحظة، لكنها تبقى «ملاحظة شاب عادي» وليس عالِم حيوان. وفي «نوافير في المطر» كأننا أمام وصف يشرح بتأن عملية هطل الأمطار، بعيني البطل.

ومهما توافر للقصة من عناصر القص الجيد، فإنها تفقد جودتها نتيجة رداءة نسيجها اللغوي، وانفصاله عن صوت الراوي، وبيئة الحدث، وطبيعة الشخصيات. فمثلًا لا يُعقل أن يروي القصة «ممرض» وكأنه أستاذ في الشعر والفلسفة والمجازات المعقدة! والطريف هنا أن لدينا قصتين هما «العناكب الملعونة» و«مونولوج المرأة التي اكتشفت الأناناس»، برغم أن كاتبي القصتين رجلان، لكن الصوت السردي فيهما لامرأة، وجاء مقنعًا تمامًا .. وعلى العكس جاءت قصة «قاتل بلا وجه» على لسان القاتل نفسه رغم أن الكاتبة امرأة هي نادين جورديمر.

الملاحظة الأخرى المتعلقة بالنسيج اللغوي، تتمثل في الدقة والرهافة، فما يمكن التعبير عنه بـ «كلمة» لا تحتمل القصة القصيرة كتابته في «جملة»، والوصف - مهما بدا جميلًا في ذاته - يجب ألا ينفصل عن حركة السرد وتطويره، وبناء الشخصية وكشفها، شيئًا فشيئًا، بمعنى أن جميع العناصر تتضام في نسيج سردي رهيف ومحكم، ومتنام.

(١١)

نحن إذن أمام باقة من القصص تتسم بالتميز، والتنوع. ومن الواضح

- كما أشرنا سابقًا - أن القائمين على «العربي» كانوا واعين بأهمية رسم هذا «الأطلس» لإبداع القصة القصيرة حول العالم، لكن هذا لا ينفي الحاجة إلى مواصلة الدرب ومزيد من الاهتمام بآداب أمم وشعوب غير ممثلة هنا بما يكفي مثل: الهند، تركيا، جنوب شرق آسيا، أستراليا، وكندا التي حازت كاتبتها أليس مونرو أخيرًا جائزة نوبل في الآداب ٢٠١٣ لإنجازها في القصة القصيرة.

وطالما أشرنا إلى مونرو، فمن الضروري أن نؤكد أيضًا أهمية مضاعفة حضور المرأة الكاتبة، بوجه عام، عند اختيار القصص المترجمة، فمع الأسف تخلو هذه الباقة تقريبًا من الصوت النسائي عدا نادين جورديمر الحائزة «نوبل» في الآداب.

ولا بأس أيضًا من التوسع في اتجاه كُتاب شباب، فاعلين حاليًا في المشهد القصصي العالمي، لأن أصغر كاتب هنا، هو الإيراني محمد محمدي يزيد عمره على خمسين عامًا!

وأخيرًا، يحمد لمجلة «العربي» التوجه إلى الترجمة المباشرة عن الأصل، مثل ترجمة قصة «مربي البط» عن الصينية مباشرة، وترجمة «الطرد» عن الإسبانية مباشرة، و«العناكب الملعونة» عن الفارسية، وغيرها. فطالما أن الترجمة - بمعنى ما - هي خيانة للنص، فإن الترجمة عن لغة وسيطة، مثل الإنجليزية أو الفرنسية، تصبح «خيانة عن خيانة»، ما قد يبعدنا عن روح النص الأصلي مسافتين، لا مسافة واحدة.

ليس معنى ذلك أن نقلل من جهد مترجم قدير مثل كامل يوسف حسين، فهو ذو باع طويل في نقل الآداب اليابانية، ولو عن لغة وسيطة هي الإنجليزية، مثلما لعب الراحل سامي الدروبي دورًا مماثلًا في ترجمة الأدب الروسي عن الفرنسية.

وختامًا لا يسعني إلا أن أتقدم بخالص الشكر، للمترجمين جميعًا، على حسن اختيارهم، ودقة لغتهم، ورهافة إحساسهم. كما أخص بالشكر المترجمين د.زبيدة أشكناني ومحمد عبدالنبي، على ما وفَّراه لي من معلومات بشأن سيرة بعض المؤلفين.

وبالتأكيد لولا حماس وتشجيع إدارة تحرير مجلة العربي لما رأى هذا الكتاب النور.. فلها خالص الود والتقدير.

جزيرة الجنيَّة

تأليف : إدجار آلان بو
ترجمة: غادة الحلواني

(لكل مكان مذاقه الخاص–سـرفيوس) يقول مارمونتل في «Contes Moraux» الذي نصرّ في كل ترجماتنا له على تسميته «حكايات أخلاقية» كأننا نسخر من جوهره: «الموسيقى هي الموهبة الوحيدة بين جميع المواهب التي تقدم المتعة لذاتها؛ فالمواهب الأخرى تحتاج إلى شهود». إنه بهذا يقصر المتعة المستقاة من الأصوات العذبة في القدرة على إبداعها. لا تعلو الموسيقى على أي موهبة أخرى في قابليتها لتقديم المتعة الكاملة حين لا يوجد طرف ثان يستحسنها. وتشـترك فقط مع المواهب الأخـرى في أن لها مـن الآثار ما يمكن الاستمتاع بها كاملة في العزلة.

إن الفكرة التي إما فشل الراوي في إيضاحها تمامًا أو ضحّى بفحواها في صياغتها قرباناً لحبه الوطني، هي، بلاشك، الفكرة ذاتها التي تصلح حجة قوية على أن أعلى تثمين نقوم به للموسيقى الراقية عندما نسمعها وحدنا كلية. سيسلم بهذه، الفرضية على الفور في شكلها هذا، هؤلاء الذين يحبون القيثارة من أجل القيثارة، ومن أجل استخداماتها الدينية. غير أنه لاتزال توجد متعة واحدة في متناول الجنس البشري الهابط

من السـماء، ولعلها واحدة فقط، التي تدين حتى أكثر من الموسيقى للإحساس النادر بالعزلة. أعني السعادة التي نجدها في تأمل الطبيعة. في الحقيقة، إن الإنسان الذي اعتاد أن يشاهد على نحو صحيح مجد الله فوق الأرض، لابد أن يشاهد هذا المجد في العزلة. فبالنسبة لي على الأقل، إن وجود- ليس الحياة الإنسانية فقط، بل الحياة في أي شكل آخر غير الذي في المخلوقات الخضراء التي تنمو فوق تربة الأرض وبصمت- هذا الوجود هو لطخة فوق المشهد الطبيعي؛ في حالة خصام مع عبقرية المشهد الطبيعي. فأنا أحب حقا أن أنظر إلى الوديان المعتمة؛ والصخور الرمادية؛ والمياه التي تبتسـم بصمت؛ والغابات التي تتنهد في سبات قلق؛ والجبال الشاهقة الأبية التي تتطلع إلى كل شيء عند أقدامها. أحب أن أنظر إليها باعتبارها في حد ذاتها ليست إلا أعضاء كبيرة من كل عريض حي وواع؛ كل شكله «الكروي» هو الأكمل والأشمل على الإطلاق؛ سبيله هو ما بين الكواكب السيارة؛ خادمه الخنوع هو القمر؛ وملكته هي الشمس؛ حياته هي السرمدية، متعته هي المعرفة؛ مصائره تضيع في الاتسـاع؛ يدركنا كما نـدرك الحيوانات الدقيقة animalulae التي تغزو المخ - كل كائن كذلك ننظر إليه باعتباره لا حيا أو ماديا كما تنظر إلينا تلك الحيوانات الدقيقة.

تؤكد لنا أجهزة التليسكوب والأبحاث الرياضية على جميع المستويات، بغضّ النظر عن رياء جهل الكهنوت، أن للزمان اعتبارًا مهمًا في عين القدير. إن الأفلاك التي تتحرك فيها النجوم هي أفضل الأفلاك المهيأة لحركة أكبر عدد ممكن من الأجساد من دون أن تتصادم. إن أشكال هذه الأجساد أيضا خلقت بهذه الدقة، في ظل سطح معين، لكي تضم أكبر كمية ممكنة من المادة؛ في حين أن الأسـطح نفسها مقدرة على النحو الذي به تتسع لعدد من السكان أكبر مما كان يمكن أن تتسع له لو أنها ذات نسق مختلف. وأن الفضاء ذاته لا نهائي لم يرد كحجة ضد

الكتلة، باعتبارها غاية من غايات الله. فلعل كمية لا متناهية من المادة تشغل الفضاء. وإذ نرى بوضوح - بقدر ما تصل أحكامنا العقلية - أن حيوية المادة هي بالفعل مبدأ- المبدأ الرئيس في عمليات الألوهية - فلن يكون منطقيًا أن نتخيل أنها مقصورة على العوالم الدقيقة التي نقتفي أثرها يوميًا ولا تمتد إلى المناطق المهيبة. وحيث إننا نجد دورة داخل دورة بلا نهاية- إلا أنها تدور حول مركز بعيد جدًا هو الله، ألا يمكن أن نفترض بالقياس حياة داخل حياة، الأصغر داخل الأكبر وكلها ضمن الروح القدس؟ باختصار ألا نخطئ بجنون، غرورًا، في الإيمان بأن الإنسان سواء في مصيره الدائم أو المستقبلي، ذو أهمية أكبر في الكون من أهمية «تربة الوادي» الواسعة التي يحرثها ويحتقرها، والتي ينكر عليها الروح لسبب لا يزيد عن أنه لا يشاهد حركتها.

هذه الخيالات، ومثلها، غذت تأملاتي بين الجبال والغابات، وبجوار الأنهار والمحيطات بمسحة مما لن يتوانى العالم اليومي عن تسميتها «غير واقعية». كانت جولاتي بين هذه المشاهد عديدة وبعيدة ووحيدة في الغالب. والاهتمام الذي تهت به عبـــر العديد من الأودية المعتمة والعميقة أو حدقت إلى السماء المنعكسة فوق بحيرات لامعة عديدة، اهتمام عمقه كثيرا أنني أشـــرد وأنظر وحدي. من الفرنسي الثرثار الذي قال إشارة إلى العمل المعروف لزيمرمان: «العزلة شيء جميل، لكن من الضروري أن تجد شخصًا ما يقول لك إن العزلة جميلة». لا يمكن إنكار جمال الإبيغرام، لكن لا محل للضرورة.

صادفت خلال واحدة من رحلاتي الوحيدة وسط منطقة بعيدة من الجبال المطوقة بجبال وأنهار حزينة وبحيـــرات جبلية تتلوى أو تنام ضمنها، جدولا وجزيرة. وصلت إليهما فجأة في يونيو المورق، وألقيت بنفسي فوق العشب تحت فروع شـــجيرة عطرة مجهولة، لعل النعاس غلبني وأنا أتأملها. شعرت بأنني يجب أن أنظر إليها هكذا فقط - هكذا

كانت الصورة الخيالية التي منحتني إياها. في جميع الجهات إلا الغرب، حيث كانت الشمس على وشك المغيب، انتصب جدار الغابة الخضراء. بدا أن النهر الصغير الذي يغير مجراه فجأة ويغيب بالتالي عن النظر فورًا، لا يجد مخرجًا له من سجنه سوى أن يذوب في أوراق الأشجار عميقة الاخضرار في الشرق، في حين أن في الجهة المقابلة (هكذا بدا لي وأنا مستلق وأنظر إلى الأعلى) يتدفق بصمت وبغزارة إلى الوادي شلال ذهبي وقرمزي اللون من ينابيع غروب الشمس في السماء.

في منتصف المجاز القصير الذي سارت فيه رؤياي الحالمة، جزيرة صغيرة وافرة الاخضرار، تضطجع فوق صدر الجدول.

ضفة وظلال

كل منهما كأنهما يتدليان في الهواء، بدت مياهه الثلجية مرآة إلى حد أن من المستحيل أن أعرف عند أي نقطة فوق انحدار المرج الزمردي تبدأ مملكتها الكريستالية.

خوَّل لي موقعي أن أضم في نظرة واحدة الطرفين الشرقي والغربي للجزيرة، ولاحظت اختلافًا واضحًا فريدًا في مظهرهما. كان الغربي حرملكًا مشعًا من الجمال البستاني، يتألق ويخجل تحت عين ضوء الشمس المائل ويضحك مع الأزهار ببراءة. كانت الأعشاب قصيرة، لينة، عذبة العطر، مرصعة بالزنابق. وكانت الأشجار رشيقة ومرحة وعالية تلمع، لها أوراق شرقية الشكل بلحاء ناعم ومصقول ومظلل بالألوان. ثمة حس عميق من الحياة والفرح يشوب المكان كله، وبالرغم من أنه لا نسائم تهب من السماء، ينبض كل شيء بالحركة بسبب الفراشات اللانهائية التي تمسح المكان جيئة وذهابا، والتي أعتقد خطأ أنها أزهار التوليب مجنحة.

كان الطرف الآخر أو الشرقي غارقًا في ظل أسود. وميض معتم،

لكنه جميل وهـادئ طغى على كل المخلوقات. كانت الأشـجار قاتمة اللون وحزينة الشـكل والعلو، تطوي نفسها إلى أشكال حزينة ورزينة وطيفية تثير أفكارًا عن الحزن الفاني والموت المبكر. اكتسـى العشب باللون الغامق للسـرو، وتدلت قمم أنصاله، وتناثرت في ما بينه هنا وهناك رابيات خفية صغيرة، منخفضة وضيقة وليست طويلة جدا لها هيئة القبور، لكنها لم تكن؛ بالرغم من أن نبتة الفيجن وإكليل الجبل تسلقتها وغطتها. سقطت ظلال الأشجار ثقيلة فوق المياه، وبدت أنها تدفن نفسها فيها، تلقح أعماق المياه بالظلام. تخيلت أن كل ظل أثناء هبوط الشمس يفصل نفسه حزينًا عن الجذع الذي منحه الميلاد ويذوب هكذا في الجدول، في حين أن الظلال الأخرى التي تنبثق في كل لحظة عن الأشجار تحتل مكان أسلافها التي دفنت على هذا النحو.

ما إن قبضت هذه الفكرة على خيالي حتى أثارته إثارة كبيرة، وتهت توًا في أحلام اليقظة. قلت لنفسي: «لو سـحرت يومًا جزيرة، فهذا هو. هذا هو مأوى جنيات لطيفة قليلة بقيـت من حطام نوعها. هل تلك القبور لها؟ أم أنها تسلم حيواتها الحلوة كما يسلم البشر حياتهم؟ هل في موتها تهزل حزينة؛ وهي تسلم إلى الله، رويدا، رويدا وجودها، كما تسلم هذه الأشجار ظلالها ظلًا بعد ظل وهي تستنفد جوهرها حتى التحلل؟ ألا يمكن ما تكونه الشجرة الهزيلة بالنسبة إلى المياه التي تتشـرب ظلها لتصبح أكثر دكنة، هو ما تمثله حياة الجنية إلى الموت الذي يحيطها؟

بينما أتسلى على هذا النحو بعينين نصف مغمضتين والشمس تغرق سريعًا إلى مرقدها والتيارات الدوامية تتقدم بسرعة تلف وتلف الجزيرة تحمل فوق صدرها رقائق ضخمة متألقة بيضاء من لحاء الجميز، رقائق قد يحولها خيال سريع بسبب أوضاعها المتعددة الأشكال فوق سطح المياه، إلى أي شيء يحبه - بينما أتسلى هكذا، ظهر لي أن جنية من

تلك الجنيات ذاتها التي كنت أفكر فيها شقت طريقها ببطء إلى العتمة من النور في الطرف الغربي من الجزيرة. وقفت شامخة هشة فريدة وحشته بمحض طيف مجذاف. في حين أن هيئتها بدت تدل على الفرح في ظل نفوذ أشعة الشمس المتسكعة، لكن الحزن شوهها عندما مرت عبر الظلال. انزلقت بعيدًا ببطء وفـي النهاية لفت الجزيرة ودخلت مرة أخرى منطقة النور. واصلت أحث نفسي متسليًا: «إن الدورة، التي قامت بها الجنية لتوها، دورة عام حياتها القصير. طافت عبر شتائها وعبر صيفها. اقتربت من الموت عاما، لأنني رأيت أن ظلها سقط عنها، حيث ابتلعته المياه المعتمة، لتصبح دكنتها أكثر سوادًا».

مرة أخرى ظهر القـارب والجنية، لكن لوّن هيئتهـا اهتمام وعدم يقينية وقدر أقل من الفـرح المرن. طافت مرة أخـرى من النور إلى العتمة (التي أصبحت على الفور أكثر عتمة) ومرة أخرى سقط ظلها إلى المياه الأبنوسية وذاب في سـوادها. ومرة بعد مرة دارت الدورة حول الجزيرة (بينما الشمس تسرع لسباتها) وتخرج كل مرة إلى النور بحزن أكبر يلف جسدها، بينما تغدو أوهن وأشحب وأبهت. وعند كل عبور إلى العتمة يسقط منها ظل أكثر عتمة، يطغى عليه ظلال أكثر سوادًا. لكن في النهاية، عندما رحلت الشمس تمامًا، ذهبت الجنية التي أصبحت الآن محض شبح لذاتها السابقة، منفطرة القلب مع قاربها إلى منطقة الفيضان الأبنوسي، ومن ذلك المكان خرجت إلى حيث لا أعرف، لأن الظلام خيم على كل الأشياء ولم أشاهد شكلها السحري بعد الآن أبدًا.

الرأس ذو الريشة

تأليف: ناثانيل هوثورن
ترجمة: د. رشا التهامي الجديدي

أمرت العجوز ريغباي شيطانها:
ديكون. أشعل غليوني!
اشتعل فيه التبغ على الفور، فأطلقت من فمها موجة من الدخان.. قالت وهي تهز رأسها:
شكرًا يا ديكون. ابق معي حتى لا أناديك كلما احتجت إليك. أريد أن أصنع فزاعة!
كانت قد نهضت باكرًا كي تصنع فزاعة تنصبها في وسط حقلها الذي زرعته بالحبوب. لأن الغربان والطيور قد اكتشفت بوادر الحب الهندي التي بدأت بالظهور فوق سطح الأرض. فقررت أن تصنع فزاعة تشبه كثيرًا رجلًا حقيقيًا. فهي من أمهر الساحرات في نيو إنجلاند، ولن تبذل سوى جهد بسيط لصنع فزاعة تخيف أي مخلوق حتى ولو كان وزيرًا. ولأنها كانت قد استيقظت بمزاج رائق على غيرٍ عادتها، وجلست تتمتع بتدخين غليونها، فقد قررت أن تصنع شيئًا جميلًا وحدثت نفسها:
لا أحب أن أضع على عتبة بيتي شيئًا مرعبًا، كما أنه لا داعي لأن أخيف الأطفال مع أنني ساحرة.
قررت أن تصنع الفزاعة على هيئة رجل نبيل جميل، على قدر ما تمكنها المواد التي بين يديها من تحقيق ذلك. أهم تلك المستلزمات عصا المكنسة،

لتكون بمنزلة العمود الفقري للفزاعة. كما تكفي بضعة عصي ومقابض لصنع اليدين والقدمين، مع كيس محشو بالقش ليكون جسم الفزاعة. وصنعت الرأس من يقطين جاف بعد أن حفرت فيها حفرتين على شكل العينين، وحفرة ثالثة كأنها فم. وثبتت كتلة زرقاء في وسط اليقطينة مكان الأنف. نظرت الساحرة إلى الوجه الذي صنعته. وتمتمت:

لقد رأيت وجوها أسوأ من هذا الوجه على أكتاف أناس. وكثير من النبلاء رءوسهم مثل اليقطين.

أيضًا! يجب أن تكون ملابس فزاعتي من صنع خياط ماهر.

وبعد أن كستها ألصقت على اليقطينة شعرًا مستعارًا، ووضعت فوقها قبعة متسخة لها ريشة طويلة.. ثم راحت تحشو الغليون وهي ترنو بنظرة الأمومة نحو اللعبة وتحدث نفسها:

لها وجه إنساني رائع.. من السخف أن يقف في الحقل لمجرد أن يخيف الطيور والغربان.. إنه جدير بعمل أفضل.. لم لا أعطيه فرصة في هذا العالم الذي يعج بأمثاله من رجال القش والأصدقاء الفارغين؟!

أبعدت الغليون عن فمها. ووضعته في فم الفزاعة، وخاطبتها

دخن يا عزيزي الرائع. إن حياتك تتوقف على أن تدخن.

وسرعان ما بدأ الدخان يخرج من فم الفزاعة، ثم اشتد وتكاثف، وريغباي تردد:

دخن يا عزيزي الجميل. إنه نفس الحياة بالنسبة لك.

لقد فعل السحر فعله، فوجه اللعبة الأصفر الجاف الذي لم يكن وجهًا على الإطلاق، بدأت تظهر عليه ملامح إنسانية.

ثم أشارت الساحرة إلى الفزاعة بأن تتقدم نحوها. أطاعت الفزاعة الساحرة. ومدت يدها كأنها تريد أن تمسك بالساحرة، ثم خطت خطوة متلكئة إلى الأمام، فكادت تسقط. فصرخت الساحرة بغضب:

دخن أيها الشيء المصنوع من القش والفراغ والحماقة! دخن، لتستنشق حياتك مع الدخان. وإلا نزعت الغليون من فمك وأحرقتك بالشعلة الحمراء.

بعد هذا التهديد، لم يعد أمام الفزاعة إلا أن تتنفس من أجل الحياة العزيزة. فأثمرت جهودها كثيرًا، إذ كانت مع كل نفس من الغليون، تتفتح

المزيد من السمات الإنسانية على وجهها، حتى ملابسها صارت تبدو جديدة. أخيرًا رفعت العجوز سبابتها وهزتها أمام وجه الفزاعة وخاطبتها بحدة:

لقد صار لك هيئة رجل.. إني آمرك أن تتكلم.

بذلت الفزاعة جهدها فاستطاعت بصعوبة أن تصدر صوتًا منخفضًا:

أمي لا تقس علي. لقد عزمت على أن أتكلم. ولكنني لا أجد ما أقوله وأنا لا أملك عقلا.

ابتسمت الأم ريغباي وخاطبت الفزاعة:

إنك تستطيع أن تتكلم. ألا تقدر أن تتفوه بآلاف الكلمات وترددها آلاف المرات وأنت لا تعنى بها.

أي معنى؟!

أجابت الفزاعة:

سأنفذ أمرك يا أمي.

طلبت العجوز من الرجل أن يخرج ليقوم بدوره العظيم في العالم، الذي لا يوجد فيه رجل من كل مائة رجل، أفضل من فزاعتها. وطلبت منه أيضًا أن يعتبر نفسه من أفضل رجال المدينة. ثم زودته بمبلغ كبير من المال. وحتى لا تفشل هذه المغامرة، أعلمته العجوز أن عليه التعرف على رجل عظيم يعمل تاجرًا ويعتبر من علية القوم، يسكن في المدينة القريبة. ومن أجل ذلك ما عليه إلا أن يهمس في أذن الرجل بكلمة.. ثم انحنت وهمست بتلك الكلمة في أذن رجلها.. وأعلمته الساحرة:

هذا الزميل القديم، سوف يرحب بك بسبب ضعفه. وسوف يساعدك عندما تهمس له بتلك الكلمة..

لدى ذلك السيد الوجيه ابنة، ستصبح لك.

راح الرجل يدخن غليونه بتلذذ ومن أجل الأنفاس التي تهبه الحياة. ويصغي للساحرة ويهز رأسه كلما وجد ذلك مناسبا لحديثها إليه، أو يقول كلمات تلائم الحالة مثل: حقا؟ في الواقع! بالتأكيد!

ابق ملتصقًا بغليونك لأن حياتك منه. وإن سألك الناس لماذا تفعل

ذلك. أعلمهم أن التدخين ضروري لصحتك، ولقد أمرك الطبيب أن تفعل ذلك. وعندما يخبو غليونك يا حبيبي. انفرد بنفسك بإحدى الزوايا. ثم ناد: ديكون تبغ جديد للغليون. ديكون أشعل غليوني. ثم ضعه في فمك بأسرع ما يمكنك. وإلا أصبحت كومة من العصي والملابس الرثة.. الآن ارحل يا عزيزي.

أجاب بصوت عال وهو ينفث الدخان:

لا تخشي من شيء. سأتصرف مثل رجل شريف نبيل.

أجابته العجوز وهي تضحك بكبرياء:

إنك تتقن دورك جيدًا. يالك من فتى ماهر. ستواجه بعض الصعوبات وأنت تقف على ساقيك. إذن خذ عكازي. إنها لك. سوف تقودك الى باب الوجيه غوكين. اذهب يا عزيزي الجميل. وإذا ما سألك أحد عن اسمك، قل له: أدعى بذي الريشة، لأنه ثمة ريشة فوق قبعتك.

عادة يصطخب الشارع الرئيس في المدينة المجاورة كل صباح. ولأول مرة شاهد الناس في هذا الشارع رجلًا غريبًا، بدا مثل النبلاء وهو يمشي على الرصيف بمعطفه الفاخر وعلى صدره تلمع نجمة، وبيده عكاز ذات مقبض ذهبي، ويمسك بيده اليسرى غليونا مزينًا بالنقوش، وكلما مشى بضع خطوات يضعه في فمه.

قال أحد المارة: لا شك في أنه رجل نبيل عظيم. ألا ترون نجمة على صدره؟!

أجابه أحدهم: لا بد أن يكون رجلًا نبيلًا!

علّق رجل ثالث: لم أر في حياتي من يتمتع بعظمة مظهره.

قال رجل رابع: أعتقد أنه عاش في البلاط الفرنسي. انظروا إليه كيف يمشي! إنه يخطو بثقة.

بين هذه الأصوات المعجبة المندهشة، ارتفع صوتان شاذان عنها: نباح كلب اقترب من الغريب وشـمَّ عقب قدمه، ثم هرع إلى فناء سيده وهو ينبح نباحًا غريبًا. أما الصوت الثاني، فكان بكاء طفل، فزع عندما شاهد الغريب، فراح يتمتم بعبارات مبهمة عن اليقطين!

تابع ذو الريشة طريقه وهو مستغرق في التدخين، يتبعه جمهور من

أهل المدينة، إلى أن وصل إلى المنزل الرائع الذي يقطنه الوجيه السيد غوكين. دخل من البوابة وصعد السلم. قرع الباب، ثم التفت نحو الجمهور وانحنى لهم مودعًا.

عندما لمحت بولي غوكين، الغريب المتألق واقفًا عند مدخل المنزل، أسرعت بارتداء ثياب جميلة.. عندما فتحت الباب، اضطرب التاجر. ثم قدم إلى الغريب ابنته. وقال لها:

هذا النبيل هو اللورد ذو الريشة. حمل إليّ رسالة من صديقة قديمة. أرجوك أن تقدمي له ما يستحق من الضيافة.

لقد فعلت تميمة الساحرة فعلها فأثارت مخاوف التاجر. كما أنه انتبه إلى الرسوم التي على الغليون.. لقد سبق أن قطع للساحرة وعدًا ما في مرحلة من حياته القديمة. وما عليه الآن، إلا أن يقدم ابنته للرجل وفاءً للوعد.

بعد أن خرج التاجر من الغرفة. ظلت بولي الجميلة مع ضيفها الشاب في الغرفة. ومع مرور الوقت كانت تزداد انبهارًا بالرجل، فوقعت في حبه بعد مضي ربع ساعة على زيارته لهم. فقد كانت النجمة تتألق على صدره، والشياطين ترقص مبتهجة حول غليونه.. ثم راح ذو الريشة يفتر رويدًا رويدًا، وبدأت أشعة النجمة تخبو، وصارت ملابسه أقل جمالا. نظرت الفتاة إلى الرجل، فصرخت وسقطت على الأرض مغمى عليها!

نظر ذو الريشة إلى المرآة، فرأى حقيقته قبل أن يفعل السحر فعله. فأرخى ذراعيه على جانبيه تعبيرًا عن يأسه، وغادر على الفور منزل الوجيه، واتجه نحو بيت الساحرة.

كانت الأم ريغباي جالسة أمام موقد مطبخها. حين سمعت وقع خطوات عند باب بيتها تشبه طقطقة العصي أو العظام الجافة. فتمتمت تحدث نفسها:

عجيب، أي هيكل خرج من قبره؟

دفع ذو الريشة رأسه الطويل من الباب.

إنه ذو الريشة. غليونه ما زال مشتعلا. والنجمة تشع فوق صدره. ولم تفقد ملابسه مظهرها الفخم.

إذن، لا بد أنه قد حدث خطأ ما!

ثم سألت الساحرة رجلها:

ماذا حدث؟ هل طردك المجنون العجوز من بيته؟ سأنزل به أشد العقاب، وأجبره على أن يقدم لك ابنته جاثية على ركبتيها. أما إذا كانت هي التي رفضتك. فسوف أدمر جمالها خلال أسبوع واحد.

أماه. اتركيها لشأنها. كنت سأحظى بها، إضافة إلى قبلة منها. ولكنني يا أمي قد رأيت نفسي في المرآة. كم كنت فارغًا وتافهًا. وعرفت أنني لن أعيش بعد اليوم.

نزع من فمه الغليون وأطاح به إلى الجدار. وسرعان ما سقط فوق الأرض كومة من العصي والقش والثياب الرثة. فراحت الأم ريغباي تندبه:

يا صديقي المسكين. يا عزيزي البائس. يا ذا الريشة. ثمة ملايين من البلهاء والحمقى والفارغين في هذا العالم، ليسوا أفضل منك. ومع ذلك يعيشون محترمين! ولم يروا أنفسهم إطلاقًا، ولا يعرفون حقيقتهم! ما الذي جعل هذا المسكين يرى نفسه، ليموت بسبب ذلك؟!

حشـــت غليونها واحتارت أين تضعه في فمها أم في فم ذي الريشة. وتابعت نعيها.. يا ذا الريشة المسكين. سهل علي أن أمنحك فرصة ثانية. وأن أرســـلك غدًا. ولكن لن أفعل. لأن لك مشاعر رقيقة وصادقة جدا، وقلب أعظم من أن يحتمل الحياة في عالم فـــارغ لا قلب له. فلو أجاد إخوانك في هذا العالم أعمالهم مثلما تفعـــل الفزاعات، لأصبح العالم أفضل حالاً مما هو عليه الآن..

إذن فأنا أشد حاجة منك إلى هذا الغليون.

وضعت الغليون في فمها وصاحت:

ديكون. أشعل غليوني!

الطرد

تأليف: روبين داريو
ترجمة: أحمد يماني

هناك في البعيد، في الخط الأفقي المرسوم بقلم أزرق، الذي يفصل المياه عن السماوات، كانت الشمس تغرق، بترابها الذهبي ودواماتها ذات الشرر المحمّر، تبدو كقرص حديدي كبير يتقد. وبدأ الهدوء يلف الرصيف الجمركي، الحراس يسيرون من اتجاه إلى آخر، والقبعات غارقة في الرءوس حتى الحواجب، يلقون نظرة هنا وأخرى هناك. وكان ذراع الرافعة ساكنا، وعمال اليومية يسيرون باتجاه بيوتهم. الماء يهمهم من تحت الرصيف بصوت خفيض، والرياح الرطبة الملحية، تهب من البحر باتجاه الخارج ساعة صعود الليل، كانت تحافظ على القوارب في حالة حركة هدهدة دائمة.

كان أصحاب اللنشات قد غادروها، عدا العم لوكاس العجوز، الذي كانت قدمه قد التوت هذا الصباح عند صعوده على كومة من الكارتون، والذي بالرغم من عرجه فقد عمل طوال النهار، كان يجلس على حجر والغليون في فمه، يرى البحر حزينا.

إيه، أيها العم لوكاس! أتستريح؟

-نعم، لأن صاحب القارب...

وبدأ الحوار، حوار لطيف وطليق يسعدني أن أمده مع الرجال الأقوياء الذين يعيشون حياة العمل المثمر، الحياة التي تمنح الصحة الجيدة وقوة العضلات، وتموت مع التفتح وغليان الدم في العروق.

كنت أرى ذلك العجوز الخشن باعتزاز، وكنت أستمع لحكاياته باهتمام، وهكذا، وكل قصصه، كله كرجل عريض ولكنه بصدر ذكي، آه، إذن لقد كان عسكريا! وإنه في شـــبابه كان جنديا مجندا، وأنه قاوم الذهاب ببندقية إلى «ميرافلوريس»، وإنه متزوج، وكان لديه ولد.

وهناك تحدث العم لوكاس:

- نعم يا سيدي، مات مني قبل عامين فقط!

هاتان العينان، الصغيرتان اللامعتان تحت الحواجب الرمادية والكثيفة، دمعتا حينها.

- ماذا، أتسأل كيف مات؟ خلال العمل ليمنحنا الغذاء جميعا: زوجتي والصغار وأنا، يا سيدي،

لأنني حينها كنت مريضا.

وأشـــار إلى كل هذا، عندما بدأت تلك الليلـــة، بينما كانت الأمواج تتدثر بالضباب وتنهض المدينة بأضوائها، كان هو، جالسا على الحجر الذي يستخدمه ككرسي، وبعد أن أطفأ غليونه الأسود ووضعه خلف أذنه، ومدد ساقيه النحيلتين المعروقتين عقدهما ووضع إحداهما على الأخرى، وغطاهما ببنطاله القذر المشمر حتى الكعبين.

لقد كان الفتى شريفا جدا ومجتهدا في عمله جدا، أراد أن يرسله إلى المدرسة منذ بدأ يكبر، لكن الفقراء يجب ألا يتعلموا القراءة عندما تئن المعدة من الجوع!

كان العم لوكاس متزوجا، ولديه الكثير من الأبناء.

وكانت زوجته تحمل لعنة بطن الفقيرات: الخصوبة. وبالتالي كانت هناك أفواه كثيرة تحتاج إلى الطعام، أطفال قذرون كثيرون ينبشـــون

في القمامة، وأجساد كثيرة نحيلة ترتعش من البرد، وكان يجب العمل للعودة بما يؤكل، والبحث عن خرق، وللحصول على كل هذا يجب أن ينقطع النفس والعمل كعجل صغير.

عندما كبر الابن، ساعد الأب، وأراد الجار، الحداد، أن يعلمه مهنة صناعته، ولكن لأنه كان وقتها نحيلا جدا، يكاد يكون هيكلا عظميا، وكان عليه أن ينفخ في الكور، فقد أصابه المرض وعاد إلى الدير من جديد، آه، لقد كان مريضا جدا! لكنه لم يمت. لم يمت! وهذا بالرغم من أنه كان يعيش في أحد التجمعات البشرية المكدسة، بين أربعة جدران كالحة، وعجائز شائهات، وفي حارة تعج بالنساء الضائعات، ونتنة طوال الوقت، وتضاء بالليل بعدد قليل من الفوانيس، وتحت سيطرة كاملة من القوادين، وأصوات القيثارات والأكورديونات، وضجيج البحارة الذين يأتون إلى المبغى، وقد فقدوا صبرهم من طول عذاب الرحلات البحرية الطويلة، ليسكروا حتى الثمالة. يصرخون ويتعاركون كمحكوم عليهم بالإعدام، نعم! بين كل هذه الجموع القذرة، وبين ضوضاء الاحتفالات المعربدة، عاش الصبي، وسرعان ما تعافى ووقف على قدميه...

وبعدها بلغ الخامسة عشرة من عمره.

كان العم لوكاس، بعد تخليه عـن آلاف الاحتياجات الضرورية، قد استطاع شراء قارب، وعمل في الصيد.

وعند بزوغ الفجر، كان يهبط إلى الماء مع صبيه، حاملا أدوات الصيد. أحدهما يجدف والآخر يضع الطعم في الشص.

وكانا يعودان إلى الشاطئ على أمل أن يبيعا ما اصطاداه، بين النسمة الباردة ومقاومة الضباب، كانا يغنيـان أغنية حزينة بصوت خفيض، ويضربان بالمجداف المنتصر حتى يصعد الزبد من الماء.

عندما تكون حصيلة البيع طيبة، كانا يخرجان لجولة صيد أخرى في المساء.

في أحد أيام الشتاء كانت هناك عاصفة، والأب والابن في القارب الصغير، يعانيان في البحر جنون موجة وهبَّة ريح، كان الوصول إلى اليابسة صعبا، ذهبت حصيلة الصيد وكل ما يملكان إلى الماء، ولم يكن هناك تفكير سوى في إنقاذ النفس، صارعا في يأس للوصول إلى الشاطئ، وكانا قريبين منه، لكن موجة ملعونة ألقت بهما نحو صخرة، فتحطم القارب، أما هما فقد خرجا من الصدمة بجروح طفيفة، بفضل الله، كما يقول العم لوكاس حين يحكي ما حدث. بعدها، تحولا إلى حمالين.

نعم، حمالين، على السفن الكبيرة السوداء، يتسلقان السلاسل المعلقة التي تبدو كثعابين من الحديد الصلب التي تشبه حبال المشانق، يحركان سيقانهم ذهابا وعودة من الرصيف إلى الدخان ومن الدخان إلى الرصيف صارخين: هوووووب! عندما يدفعان الطرود الضخمة ليعلقانها في الخطاف الذي يرفعها متأرجحة كبندول، نعم! حمالين، الشيخ والصبي، الأب والابن، كلاهما معلق على صندوق، كلاهما يتدافع، كلاهما يكسب قوته باليومية، من أجلهما ومن أجل مصاصي الدماء في الدير.

كانا يذهبان إلى العمل كل يوم، يرتديان ملابس مهلهلة ويحزمان وسطيهما بأحزمة ملونة، وتصدر أحذيتهما الثقيلة والجافة أصواتا على الأرض وينزعانها عندما يبدآن العمل، ويلقيان بها في أحد الأركان.

يبدآن المهمة، بالتحميل والتفريغ، كان الأب حريصا: «يا فتى، احم رأسك، احترس ألا تضع يدك تحت الخطاف، أنت على وشك أن تفقد إصبعا»، ويعلّمه ويدربه، ويوجه ابنه، على طريقته، بكلمات جافة لعامل شيخ وأب معتز بأبوته.

إلى أن جاء يوم لم يستطع فيه العم «لوكاس» الحركة من السرير، لأن الروماتيزم كان يؤلم ركبتيه وينشر عظامه.

أوه، كان لابد من شراء الدواء والطعام، هذا أمر محتوم.

- هيا يا بني، إلى العمل، بحثا عن المال، اليوم يوم سبت.

وذهب الابن، وحيدا، مسرعا تقريبا، ودون إفطار، إلى المهمة اليومية.

كان اليوم جميلا وضوؤه وضاحا، والشمس من ذهب، وعلى الرصيف تجري العربات على قضبانها، وتصدر العجلات أصواتا، وتتصادم السلاسل، وكان تداخل العمل الذي يصيب بالدوار كبيرا: حركة الحديد والريح التي تمر عبر الغابات الشجرية وتحرك السفن في مجموعات.

تحت أحد خطاطيف الرصيف كان ابن العم لوكاس مع حمالين آخرين، يفرغون شحنة في استعجال، كان يجب تفريغ اللنش المحمل بالطرود، ومن وقت لآخر كانوا يخفضون السلسلة الطويلة التي تنتهي بخطاف، والتي تصدر صوتا مزعجا عندما تجري على الرولمان، يحزم الفتيان الطرود بحبل مزدوج، ويعلقونها في الخطاف، ويبدأون في رفعها كصيد معلق في سنارة، أو في رصاص حبل سري، ثم يبتعدون ويهتز الطرد من جانب إلى آخر كمطرقة جرس تدق في الفراغ.

كانت الحمولة متراكمة، والأمواج تحرك السفينة المحملة بالطرود من جانب إلى آخر بشكل رتيب. الطرود متراصة بعضها فوق بعض على شكل هرمي في وسط السفينة، أحدها كان ثقيلا جدا، ثقيلا جدا، وكان أكبرها جميعا، عريضا ومثقلا وملونا بألوان زاهية، جاء من أعماق اللنش، لو وقف رجل عليه لبدا تمثالا صغيرا بالنسبة للطرد الثقيل.

كان شيئا مثل كل الأشياء الركيكة التي تستورد من الخارج، محملة ومربوطة بشنابر من الحديد. تمتد على الجانبين وفي خط المنتصف، وفي مستطيل أسود كانت هناك حروف تبرز كعيون بارقة، حروف من «الألماس»، كما يقول العم لوكاس. كانت شنابره الحديدية مضمومة بمسامير ذات رءوس حادة وجافة، وبداخله يرقد المارد، على الأقل، من «اللينوه» أو قماش القطن.

لم ينقص سوى هو.

- احترسوا من الثقيل، قال أحد الحمالين.

- ذو الكرش الكبير! أضاف آخر.

وابن العم لوكاس، الذي كان متشوقا إلى إنهاء العمل بسرعة، ليقف في الطابور لتسلُّم يوميته والذهاب للإفطار، وكان يربط حول عنقه منديلا مرسوما على هيئة مربعات.

أرخى السلسلة التي كانت تتراقص في الهواء، ولف أنشوطة كبيرة حول الطرد، وتأكد من أنه مربوط بشكل جيد، وصرخ: «ارفع»، فيما كانت السلسلة تشد الطرد مصدرة صوتا مزعجا وترفعه عن الأرض.

كان الحمالون يقفون لمتابعة صعود الطرد الثقيل، وعلى استعداد لمغادرة اللنش باتجاه اليابسة، شاهدوا شيئا مربعا، الطرد، الطرد الكبير، انزلق من الأنشوطة، كما لو كان كلبا تنزلق رأسه من مربطه، وسقط على ابن العم لوكاس الذي كان يقف بين حافة اللنش والمكان الذي سقط فيه الطرد فحطمه، ودمر جسده وفكك عموده الفقري واندفع الدم من فمه.

في ذلك اليوم لم يكن هناك لا خبز ولا دواء للعم لوكاس بل صبي محطم، يحتضنه باكيا. وبين بكاء الزوجة والأطفال، حملوا الجثمان إلى المقابر.

ودعت الشيخ الحمال، وغادرت الرصيف بخطوات مطاطية، متخذا الطريق إلى البيت، ومفلسفا الأمور بكل ما اعتاد عليه الشاعر، في ما كانت تهب نسمة باردة، قادمة من البحر، وتقرص الأنف والأذنين باحتقان.

ديمتريو

تأليف: خوليو رامون ريبيرو
ترجمة: نادية جمال الدين

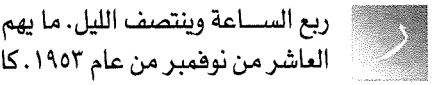

ربع الساعة وينتصف الليل. ما يهم في الأمر هو كون اليوم هو العاشر من نوفمبر من عام ١٩٥٣. كان ديمتريو فان فاجن قد دوّن في يومياته الخاصة ما يلي: «في العاشر من نوفمبر من عام ١٩٥٣ زرت صديقي ماريوس كارلن». أنوه بأنني ماريوس كارلن هذا وأن ديمتريو فان فاجن قد توفي منذ ثماني سنوات وتسعة عشر شهرا تماما.

كانت صحيفة محلية قد نشرت بعد وفاته بأسابيع قليلة ملحوظة سيئة النية تقول: «كما يعلم قراؤنا فإن الروائي ديمتريو فان فاجن قد توفي في الثاني من يناير من عام ١٩٤٥. وقد وجدت في يومياته الخاصة، والتي لم تنشر بعد، مذكرات تنسب للسنوات الثماني المقبلة. لقد اكتشف أنه كتبها مسبقا. وبحكم الصداقة التي كانت تجمعني بديمتريو، بدأت في عمل تحريات يمكن وصفها بالدقيقة حسب التعبير التقليدي. على الرغم من أنني لم أره منذ الحرب الأخيرة فإنه ترك في نفسي ذكرى طيبة، فقد كنت أرى فيه دائما الرجل النزيه والجاد والبعيد عن أي ادعاء. وعليه، فإن، مسألة كتابة يومياته مقدما تشير إلى أحد احتمالين: إما أنها مزحة من جانب الصحافيين الذين أخطأوا التقاط تواريخ يومياته والتى لم تنشر بعد، أو أن الأمر يتعلق ببداية شيء مهم وغامض.

كان ديمتريو قد مات بطريقة غامضة في حانة في آمبيريس، وعندما نقل

جثمانه إلى أوتريخت قمت بزيارة خاصة للمدينة المذكورة واستخرجت من المكتبة العامة مخطوط يومياته. كان المخطوط الذى قام الصحافيون بمراجعته بشكل سطحي للتأكد من عدم تناسب التواريخ فقط، مليئا بحروق السجائر وبقع القهوة.

استطعت بصبر عالم الكتابات القديمة فك رموز صفحاته شيئا فشيئا، وبالذات تلك الخاصة بالسنوات التي تلي موته والتي من المفترض أنها مختلقة. كانت القراءة الأولى تؤيد هذا الرأي بالفعل، حيث تتحدث اليوميات عن رحلات عجيبة وعلاقات عاطفية ولكنها يائسة في عمومها، وكذلك عن أمور تافهة مثل أكلة ما في مطعم، أو حديث مع سائق تاكسي. فجأة لفت نظرى تفصيل ما، ففي الصفحة التى تسجل ليوم ٢٨ من يوليو عام ١٩٤٨ يقول: «حضرت اليوم جنازة آرنستو بانكلوس». كان اسم آرنستو بانكلوس ملتبسا عليَّ بعض الشيء. استطعت بشيء من التفكير التوصل إلى أنه كان اسم صديق مشترك لكلينا أيام الطفولة.

حاولت مباشرة التوصل إلى أهله ولكنني لم أستطع. وبمراجعة صحف الفترة ذاتها تأكدت أنه قد تم بالفعل دفن جثمان أرنستو بانكلوس في يوم ٢٨ من يوليو من عام ١٩٤٨. أحدث هذا التأكد شيئا من الالتباس لديّ، ولكنه لم يعفني من بعض الارتياب. اعتقدت أن الأمر مجرد صدفة أو أنها حالة تكهن غير مستغربة من طبيعة الفنانين. لكنني على كل الأحوال بقيت مشغولا. ولكي أهدأ قررت أن أصل بتحرياتي إلى نتائجها الأخيرة.

يقول في الصفحة التي تحمل تاريخ ١٤ من أبريل عام ١٩٤٩: «سأركب الطائرة اليوم متوجها إلى أوسلو، وسأزور المتحف الوطني بالمدينة». كان عليَّ أن أقوم بمراجعة كل سجلات شركات الطيران إلى أن اكتشفت في قائمة المسافرين لإحداها اسم ديمتريو فان فاجن.

ونتيجة إثارة فضولي، توجهت إلى أوسلو ووجدت في سجل مشاهير الزوار الخاص بالمتحف الوطني توقيع صديقي مسجلا. عندها بدأت أشك في أن أمرا ما غريبا قد حدث. توجهت أكثر من مرة إلى مدافن وتريخت بهدف رؤية شاهد القبر والتحقق من اسم وتاريخ وفاة ديميتريو. وعندما حصلت

عليه طلبت فحص الرفات عن طريق الأطباء الشرعيين الذين أكدوا لي أنها لديميتريو فان فاجن.

بالعودة إلى قراءة اليوميات قررت أن أقـوم بتجربة أخيرة. ففي الصفحة التي تسجل ليوم ٣١ من أغسطس من عام ١٩٥١ يقول: «عدت لتوي من ألمانيا. لن أنسى ماريون أبدا وبلدة فريمان الصغيرة. كانت لقاءاتي بها قليلة ولكنها مشرقة». اعتبرت أنني لو توصلت إلى ماريون فسوف أحصل على معلومات مباشرة وأكيدة.

لم يكن الأمر هينا، فاسم فريمان لم يكن موجودا بالخرائط، كما يبدو أن اسم ماريون منسوب لأغلب نســاء هذه الناحية، ولكن وبعد استقصاء شديد استطعت التوصل إلى هذه المرأة. كان الوصف الذي قدمته عن حبيبها السابق يتفق وشكل ديميتريو وأكثر من هذا، كان لديها ابن ثمرة علاقتها به، والذي ما إن رأيته حتى أصابني الذهول، فبالرغم من أنه مازال صغيرا فإن ملامحه قد ذكرتني بملامح ديمتريو بجلاء.

عدت إلى بلدي ويقيني تام، ولكن مشتت الذهن في الوقت نفسه، ثم أدركت بعد مدة طويلة وبشيء من الرهبة أنني أطأ منطقة محرمة ترتبط بهذه الظواهر الغريبة. حتى أنني قمت باستشارة أهل العلم في هذا الشأن، ولكنهم جميعا تلقوا طلبي بالسخرية ورفضوا مراجعة أدلتي، وقالوا إن المسألة تتعلق بأحد الأمرين أنه لابد أن أحدنا - الميت أو أنا - مجنون. أما الأكثر تهذيبا فقد تحدثوا بصيغ مختلفة عن «شرود العقل» أو تواروا بجهلهم خلف كلمة «الصدفة».

عند ذلك ازدادت حيرتي، كما أن النتائج التي أمكنني اســتخلاصها كانت قليلة. فواضح أن ديميتريو قد توفي في ٢ يناير عام ١٩٤٥ ولكن المؤكد أيضا أنه في عام ١٩٤٨ حضر مراسم دفن آرنستو بانكلوس وأنه في عام ١٩٤٩ كان بالمتحف الوطني بأوسلو، وفي عام ١٩٥١ تعرَّف على ماريون في فريمان ورزق منها بطفل. لقد تم التحقق من كل ذلك بالفعل. ولكن هذا لا يعني بلا شك أن التواريخ المذكورة قد تصادفت مع التقويم الرسمي، فقد بدا لي التقويم الرسمي، بعد ما حدث، مقياسا اصطلاحيا للزمن، يصلح فقط كمرجع لأحداث عارضة.

استحقاق حوالات، تواريخ قومية ولكنه غير صالح بالمرة لقياس الزمن الداخلي لكل إنسان، وهو الزمن الوحيد المهم قطعا.

إن دوامنا الداخلي لا يمكن تعريفه ولا قياسه ولا تأجيله. فمن السهل أن نعيش أياما في دقائق والعكس، دقائق في أسابيع. فكما هو معلوم أن حالات ظواهر التنويم المغناطيسي كثيرة أو حالات شدة الإثارة أو النشوة التي يسببها الحب أو الخوف أو الموسيقى أو الحمى أو المخدر أو التدين الشديد، ولكن ما لا أستطيع إدراكه هو كيف ينتقل هذا الدوام الداخلي إلى حيز الفعل، وكيف يتوافق زمن كل فرد منا مع الزمن الشمسي؟ إن التفكير في أكثر من شيء خلال الثانية الواحدة أمر معتاد ولكن الأكثر تعقيدا هو القيام بذلك في المدة نفسها.

والمؤكد أن ديميتريو فان فاجن قد قام بأشياء كثيرة خلال زمنه الشخصي، وهي أشياء لم تتم في الزمن الحقيقي إلا في ما بعد. كما أن هناك أشياء كثيرة فعلها ومازالت لم تتحقق بعد. فنجده مثلا يصف في العام ١٩٥٤ رحلة إلى الهيمالايا يفقد خلالها أذنه اليسرى نتيجة التجمد، أو - دون أن نبتعد كثيرا - يشير إلى اليوم وهو العاشر من نوفمبر من عام ١٩٥٣ إلى قيامه بزيارة لبيتي. وهو ما لم يحدث بالطبع لا في زمني ولا في الزمن الشمسي. ولكن اليوم لم ينته بعد وكل شيء محتمل الحدوث. فهو لم يحدد في يومياته الساعة، كما أنها لم تشر بعد إلى الثانية عشرة ليلا. أو لعله قد أجل الزيارة دون تدوين هذا في يومياته.

مازالت هناك دقيقة باقية. أقر بالشعور بنفاد صبري بعض الشيء حتى أن ربع الساعة الشمسي الذي استغرقته كتابة هذه الصفحات قد بدا لي طويلا بلا حدود. ولكن لا يمكنني بالطبع أن أخطئ، فأحد ما يصعد الدرج. خطوات تقترب. ساعتي تشير إلى الثانية عشرة ليلا. طرق على الباب. إنه ديميتريو، هنا.

رجل شهير

تأليف: ماشادو ده أسيس
ترجمة: خليل كلفت

«ياه، أنت ميستانا إذن؟» سألت الآنسة موتا، بإيماءة إعجاب واسعة. وصححت في الحال أسلوبها الذي تخطى الرسميات قائلة: «معذرة على سلوكي، لكن هل أنت هو حقيقة؟»

منزعجا ومحبطا، أجاب بيستانا بنعم، بأنه هو. كان قد أتى لتوه من عند البيانو، وهو يمسح جبينه بمنديل، وكان يقترب من النافذة عندما أوقفته السيدة الشابة. لم تكن حفلة راقصة، بل مجرد حفلة مسائية ضيقة حضرها نحو عشرين شخصا أتوا ليتناولوا العشاء مع الأرملة كارمارجو في شارع البلاج بمناسبة عيد ميلادها، الخامس من نوفمبر ١٨٧٥.

يا للأرملة اللطيفة والمرحة! كانت تحب الضحك والفرفشة، رغم سنواتها الستين، وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي ضحكت فيها وفرفشت، ذلك أنها قضت نحبها في الأيام الأولى من ١٨٧٦ يا للأرملة اللطيفة والمرحة! بأي قلب وروح نظمت حفلة راقصة بعد العشاء مباشرة، طالبة من بيستانا أن يعزف موسيقى لرقصة كادريل! ولم يكن عليها حتى أن تُكمل رجاءها، لقد انحنى بيستانا بأدب وأسرع

إلى البيانو. وما كادوا يستريحون عشر دقائق، بعد رقصة الكادريل، حتى اندفعت الأرملة متوجهة إلى بيستانا من جديد لتطلب منه معروفا خاصا جدا:

«أي شيء تقولينه، يا مدام».

«هل يمكنك أن تعزف لنا الآن موسيقى البولكا التي من تأليفك «لا تضحكي عليّ يا حبيبتي»؟

ارتسم الضيق على وجه بيستانا، لكنه سرعان ما أخفاه، وانحنى في صمت بدون أدبه المألوف، وذهب إلى البيانو بلا حماس. بعد سماع المقاطع الموسيقية الأولى عمت الحجرة سعادة مستجدة.

أسرع السادة إلى السيدات، وبدأوا يتحركون زوجا زوجا على أنغام البولكا الأخيرة، الأخيرة تماما، فهي لم تُنشر إلا قبل ذلك بثلاثة أسابيع، وكان لم يعد هناك ركن أو شق في المدينة، مهما كان نائيًا، لم تُعرف فيه هذه البولكا. كانت النغمة على شفاه الجميع.

كانت الآنسة موتا آخر من يشك في أن بيستانا الذي رأته على مائدة العشاء ثم وهو يعزف على البيانو، الرجل الذي كان يلبس سترة فراك ذات لون منطفئ، وكان له شعر أسود طويل مجعد، وعينان حذرتان، وذقن بلا لحية، هو بيستانا، مؤلف البولكا الشهير، وقد أخبرتها صديقتها بذلك عندما رأته قادما من عند البيانو، بعد رقصة البولكا. ومن هنا، السؤال بإعجاب. وقد رأينا أنه رد عليها بطريقة تنم عن الانزعاج والإحباط.

ومع ذلك، كانت السيدتان الشابتان لا تألوان جهدا في إفراطهما في إبداء ملاحظات متحلقة إلى حد أن الشخص الأشد تواضعا في غروره كان سيسعده أن يسمع تلك الملاحظات. أما بيستانا فقد تلقاها باستياء متزايد إلى أن أعلن أنه مصاب بصداع، وأخيرا استأذن للانصراف. ولا أحد، ولا حتى سيدة البيت، نجح في إقناعه بالبقاء. عرضوا عليه وصفات علاج محلية، وشيئا من الراحة، لكنه لم يقبل

شيئا، وأصر على الانصراف، وانصرف.

فور أن صار في الشارع سار بسرعة، خشية أن يكون لا يزال واردا أن يرجعوه. ولم يهدئ خطاه إلى أن انعطف عند ناصية شارع فورموزا. لكن حتى هناك، في تلك البقعة ذاتها، كانت تنتظره تلك البولكا الشهيرة والتي تفيض بالحيوية. كانت أنغام من أحدث أعماله الموسيقية الرائجة، معزوفة على كلارينيت، ترفرف خارجة من بيت متواضع على الجانب الأيمن، على مسافة ياردات قليلة وحسب. وكان هناك أشخاص يرقصون.

توقف بيستانا للحظة، وفكر في أن يعود من حيث أتى، لكنه قرر المضي قدما. وحث خطاه وعبر إلى الجانب الآخر من الشارع. وأخيرا تلاشت الأنغام بعيدا، ودخل بيستانا شارع أترادو، حيث كان يقيم. وعندما كان يوشك على دخول البيت، رأى شخصين يقتربان منه. بدأ أحدهما، أثناء مروره، في تصغير نفس البولكا بحماس وحيوية، والتقط الآخر إيقاع الموسيقى، وسار الاثنان كلاهما في الشارع، صاخبين ومبتهجين، فيما أسرع المؤلف الموسيقي، يائسا، إلى دخول منزله.

في البيت، تنهد بارتياح. البيت القديم، والسلم القديم، وخادمه الزنجي العجوز، الذي أتى ليرى ما إذا كان يريد أن يتناول العشاء.

«أنا لا أريد شيئا»، صاح بيستانا. «اصنع لي بعض القهوة واذهب إلى فراشك».

خلع ملابسه، ولبس قميص نوم، وذهب إلى حجرة واسعة في القسم الخلفي من المنزل، وعندما أشعل الزنجي لمبة الجاز، ابتسم بيستانا وفي صمت قدم تحياته للبورتريهات العشرة المعلقة على الحائط.

كان بورتريه واحد منها صورة زيتية، للكاهن الذي كان قد قام بتربيته، وعلمه اللاتينية والموسيقى، والذي كان، وفقا لأقاويل لا طائل من تحتها، والد بيستانا ذاته.

وإنها لحقيقة واقعة أنه ورثه المنزل القديم، بالإضافة إلى الأثاث،

الذي يعود تاريخه إلى زمن بيدرو الأول. وكان الكاهن قد ألف بعض قطع موسيقى التراتيل وكان مجنونا بالموسيقى، المقدسة أو الدنيوية، وغرست هذه الأذواق في الشاب، أو أنها نُقلت إليه عبر روابط الدم، إذا كان لنا أن نصدق بعض التصديق الألسنة التي تلوك. لكن هذا أمر لا شأن له بموضوع قصتي، كما سترون.

كانت البورتريهات الأخرى للمؤلفين الموسيقيين الكلاسيكيين: سيماروزا، موتسارت، بيتهوفن، جلوك، باخ، شومان، وثلاثة آخرين. وكانت بورتريهات منها حفرا على الخشب، وأخرى مطبوعة على الحجر. لكنها كانت تحتل مكانها اللائق كالقديسين في كنيسة. كان البيانو هو المذبح وكانت تسبيحة المساء مفتوحة هناك: كانت سوناتا لبيتهوفن.

وصلت القهوة، عب بيستانا الفنجان الأول عبا وجلس إلى البيانو. نظر إلى بورتريه بيتهوفن، وفاقدا وعيه بنفسه، أخذ يعزف السوناتا ذاهلا أو مستغرقا، لكن بإتقان كبير. كرر القطعة. ثم توقف لحظات قليلة، ونهض، وذهب إلى إحدى النوافذ. وعاد إلى البيانو. وجاء دور موتسارت، وهكذا التقط نوتة موسيقية مطبوعة وقام بأدائها بنفس الطريقة، وقلبه في مكان آخر. ثم شغله هايدن حتى منتصف الليل وفنجان القهوة الثاني.

بين منتصف الليل والواحدة صباحا، لم يفعل بيستانا أكثر من النظر إلى البورتريهات والوقوف عند النافذة يحملق في النجوم. ومن حين لآخر كان يذهب إلى البيانو ويعزف واقفا، قليلا من الأنغام غير المترابطة على لوحة المفاتيح، وكأنه يبحث عن فكرة ما، لكن الفكرة لم تأت، فاستأنف وقفته عند النافذة.

بدت له النجوم أشبه بنوتات موسيقية كثيرة جدا مثبتة في السماء، تنتظر فقط شخصا ما يأتي ليفكها. وذات يوم ستغدو السماء خالية، لكن عندئذ ستغدو الأرض كوكبة من كراسات النوتات الموسيقية. ما

من صورة، أو فكرة، أو لحظة تأمل، حملت أي تذكر للآنسة مُوتا، التي كانت في تلك الأثناء، في تلك اللحظة ذاتها، تنام حالمة به، هو المؤلف المشهور لبولكات محبوبة كثيرة جدا. وجعلت فكرة الزواج السيدة الشابة تخسر دقائق قليلة من النوم. ولم لا؟ كانت في حوالي العشرين من عمرها، وكان هو في الثلاثين على الأكثر. ونامت على لحن البولكا، التي كانت تحفظها عن ظهر قلب، بينما كان مؤلفها لا يفكر لا في البولكا ولا في الفتاة بل في الأعمال الكلاسيكية القديمة. واستجوب السماء والليل، متوسلا إلى الملائكة وحتى الشيطان. لماذا يعجز عن تأليف صفحة خالدة واحدة ليس إلا من هذا القبيل.

من حين لآخر كان يبدو وكأن بذرة فكرة كانت تنبت خارجة من أعماق لا وعيه. فكان يُسرع إلى البيانو لكي يمنحها الحياة، ليترجمها إلى أصوات، لكن بلا طائل: تلاشت الفكرة. وفي أحيان أخرى كان يدع أصابعه، وهو جالس إلى البيانو، تتجول كيفما اتفق، ليرى ما إذا كانت ستسيل من بينها فانتازيات، كما سالت من بين أصابع موتسارت، لكن لا شيء، لا شيء مطلقا، لم يأت الإلهام، وبقي خياله خامدا. فإذا ظهرت بالصدفة فكرة، واضحة كل الوضوح وجميلة، اكتشف أنها ليست سوى صدى من قطعة لمؤلف آخر، يتردد في ذاكرته. عندئذ كان ينهض، متضايقا، وهو يحلف أنه سيهجر الموسيقى ويذهب ليزرع البن أو ليعمل بائعا متجولا بعربة، لكنه بعد عشر دقائق كان يعود، وعيناه على بورتريه موتسارت، يقلده على البيانو.

الساعة الثانية، الثالثة، الرابعة. بعد الرابعة ذهب إلى الفراش. كان متعبا، ومحبطا، ومستنفدا انفعاليا، وكان عليه أن يدرس في اليوم التالي. نام قليلا، وتم إيقاظه في السابعة، ولبس، وأفطر.

«هل تود أن تأخذ العصا أو الشمسية؟» سأل الزنجي، متبعا توجيهات سيده، الذي كثيرا جدا ما كان ذاهلا عن نفسه.

«العصا».

«لكن يبدو أنها ستمطر اليوم».

«ستمطر!»، ردد بيستانا بطريقة آلية.

«يبدو فعلا أنها ستفعل، يا سيدي، السماء مظلمة تماما».

حملق بيستانا في الزنجي بشك وقلق. وفجأة أفلتت منه هذه العبارة: «انتظر حيث أنت!».

أسرع إلى حجرة البورتريهات، وفتح البيانو، وجلس، ومد أصابعه فوق لوحة المفاتيح. بدأ يعزف شيئا كان يخصه للغاية، بإلهام أصيل: بولكا، بولكا مرحلة، بلغة لوحات الإعلانات. لا مقاومة من جانب المؤلف الموسيقي. كانت أصابعه تستخلص الأنغام بسهولة، وتصلها ببعضها، وتتقاذفها، وكان يمكن القول إن ربة فنه كانت تؤلف الموسيقى وترقص في آن معا. نسي بيستانا تلامذته، ونسي الزنجي الذي ينتظره بعصاه وشمسيته، بل نسي حتى البورتريهات التي كانت معلقة بوقار على الحائط. فقط كان يؤلف، داقا على المفاتيح ومدونا، دون المحاولات العقيمة للمساء السابق، دون انزعاج، دون التماس أفضال السماء، دون استنطاق عيني موتسارت. لا تعب. وتدفقت الحياة، والسحر، والجدة، من قلبه، وكأنما من ينبوع لا ينضب.

واكتملت البولكا بعد قليل. حقا لقد صحح عددا من المقاطع الثانوية، لكنه كان يدندن بها بالفعل في الشوارع، وهو في طريق عودته إلى البيت. لقد أحبها. كان دم أبوته وموهبته الحقيقية يجري في عروق ذلك العمل الموسيقي الأخير، غير المنشور. وبعد ذلك بيومين، حمل البولكا الجديدة إلى ناشر مؤلفاته الأخرى من موسيقى البولكا، التي وصل عددها آنذاك إلى حوالي ثلاثين قطعة. وكان من رأي ناشره أنها «جذابة»، «وستحقق نجاحا كبيرا».

وطرح موضوع تحديد عنوان في ١٨٧١ عندما ألف بيستانا البولكا الأولى، كان قد رغب في أن يعطيها عنوانا شاعريا فاختار عنوان «لآلئ الشمس» هز الناشر رأسه، قائلا له إن العناوين ينبغي تصميمها مع

وضع رواجها المستقبلي في الاعتبار كما ينبغي اختيارها لتلميحها إلى حدث ما مهم أو للأثر الآسر لكلماتها. وكان عنده اقتراحان: قانون ٢٨ سبتمبر والحبيبات لسن للتدليل. «لكن ما معنى الحبيبات لسن للتدليل؟» سأل المؤلف.

«إنه لا يعني شيئا، لكنه سيغدو عنوانا رائجا في الحال».

بيستانا، الذي كان لا يزال ساذجا وغير منشور، رفض كلا الاسمين واحتفظ بالبولكا، لكن لم يمض طويل وقت، قبل أن يؤلف بولكا أخرى، وأدى به تحرقه إلى الشهرة إلى نشرهما كلتيهما، بأي عنوانين بدا للناشر أنهما الأكثر جاذبية أو ملاءمة. ومنذ ذلك الحين كان هذا هو الإجراء المتبع.

والآن، عندما سلم بيستانا البولكا الأخيرة وانتهيا إلى موضوع العنوان، قال ناشره إن في رأسه عنوانا منذ أيام وإنه احتفظ به لأول عمل يتسلمه منه. كان العنوان صارخا، وطويلا، وملتويا: «من فضلك استبقي سلتك لنفسك يا سيدتي».

«ومن أجل المرة التالية»، أضاف: «في رأسي عنوان آخر منذ الآن».

بيعت الطبعة الأولى بكاملها فور عرضها للبيع. وكفلت شهرة المؤلف الموسيقي رواجها، لكن العمل ذاته كان أصيلا ومواكبا لقطع موسيقية معدة لذلك الأسلوب. كان دعوة للرقص، وكان من السهل حفظه عن ظهر قلب. وفي غضون أسبوع حقق نجاحا باهرا. ولفترة من الزمن كان بيستانا واقعا حقيقة في حب تلك القطعة الموسيقية وكان يحب أن يدندن بها بصوت خافت. وكان يتريث في الشارع عندما يسمعها تعزف في بيت شخص ما، وكان يغضب عندما كانت لا تعرف جيدا. وسرعان ما عزفتها الفرق الموسيقية في المسارح، وذهب بيستانا إلى أحدها ليسمعها. كما أنه لم يتبرم عندما سمع مسبحا غير واضح المعالم يصفرها وهو يسير في شارع أترادو ذات مساء.

لم يدم شهر العسل هذا سوى أسبوع. فمثل كل المرات الأخرى، وحتى أكثر في هذه المناسبة، جعله مرأى الفنانين الكبار القدامى في البورتريهات ينزف من الندم. وغاضبا ومغتاظا، انقلب بيستانا ضد تلك التي كانت قد أتت لتواسيه مرارا وتكرارا، ربة الفن ذات العينين الشريرتين والهيئة المستديرة، تلك المستهترة والسهلة. وعند تلك المرحلة عاوده اشمئزازه من نفسه وكراهيته لكل من يسأله عن البولكا الأخيرة التي ألفها واستأنف محاولاته لتأليف شيء ما ذي مذاق كلاسيكي، حتى وإن لم يكن ذلك سوى صفحة واحدة، صفحة واحدة ليس إلا، لكن ذات جودة تسمح لها بالوقوف إلى جانب أعمال باخ وشومان.

دراسة بلا طائل، جهد بلا فائدة، ألقى بنفسه في نهر الأردن ذاك وخرج بلا عماد. هكذا قضى النهار والليل، واثقا وعنيدا، متيقنا من أن رغبته ستجلب النجاح ومن أنه طالما تخلى عن الموسيقى الخفيفة.

«لتذهب قطع البولكا إلى الجحيم. ليرقص الشيطان عليها!» قال ذات صباح عند انبلاج النهار، عندما ذهب إلى فراشه. غير أن قطع البولكا رفضت أن تذهب بعيدا إلى هذا الحد. لقد ذهبت إلى منزل بيستانا، إلى حجرة البورتريهات، وتدفقت بوفرة لم يكد يكون لديه معها الوقت ليؤلفها، ثم ليطبعها، وليستمتع بها أياما قليلة، وليمقتها، وليعود إلى المصادر الكلاسيكية، التي لم تنتج شيئا. وعاش ممزقا بين هذين البديلين، حتى زواجه وبعده.

«ممن سيتزوج؟» سألت الآنسة موتا عمها، كاتب المحكمة الذي كان قد زف إليها النبأ.

«يتزوج من أرملة».

«هل هي كبيرة؟».

«في السابعة والعشرين».

«جميلة؟».

«لا، لكنها ليست عديمة الجمال أيضا . بين بين . سمعت أنه وقع في حبها لأنه سمعها تغني في العيد الأخير للقديس فرنسيس في باولا . لكنني سمعتُ أيضا أنها تملك موهبة أخرى، لا هي بالنادرة أو الثمينة: إنها مصابة بالسل».

ليس من المفترض في كتبة المحاكم أن يكونوا موفوري الحماس . إنهم فاترون – إن جاز القول – وفي النهاية أحست ابنة أخيه بقطرة بلسم، الأمر الذي داوى لدغتها الصغيرة من الحسد . وكان كل ما قاله صحيحا . فبعد ذلك بأيام قليلة، تزوج بيستانا من أرملة في السابعة والعشرين من عمرها، كانت مغنية جيدة وكانت مصابة بالسل. وستكون الزوجة الروحية لعبقريته المبدعة.

وقد قال لنفسه إن العزوبة هي بلا شك السبب وراء عقمه وصعوبة مراسه. ومن الناحية الفنية اعتبر نفسه الساهر المستهتر لساعات الصباح الأولى، ولم تكن مؤلفاته من البولكا سوى مغامرات شخص كسول.

نعم، يمكنـــه الآن أن يُنجب عائلة من الأعمال الجـــادة، العميقة، والملهمة، والمعدة بعناية.

تبرعم ذلك الأمل في ساعات حبه الأولى وأزهر في عشية زفافه. وتلعثم قلبه بقوله: «ماريا، امنحيني ما لم يكن بوسعي أن أجده في وحدة ليالي، وهرج ومرج أيامي».

وتخليدا لذكرى زواجها، سرعان ما اعتزم تأليف قطعة موسيقية حالمة. وسوف يسميها «أفيه ماريا» «السلام لك يا مريم». كان الأمر يبدو وكأن حظه السعيد قد حمل إليه بزوغ فجر. وغير راغب في أن يقول أي شيء لزوجته قبل أن تكون القطعة الموسيقية جاهزة، عمل في السر. وكان هذا من الصعوبة بمكان لأن ماريا، التي أحبت الموسيقى مثله تماما، كانت تأتي لتعزف معه، أو لمجرد الاســـتماع إليه يعزف، في حجرة البورتريهات على مدى ساعات بلا انقطاع. بل كانا يعقدان

بعض اللقاءات المشتركة مع ثلاثة موسيقيين كانوا من أصدقاء بيستانا. غير أنه في يوم من أيام الأحد لم يعد بوسعه أن يكبح جماح نفسه، فدعا زوجته لتسمعه يعزف مقطعا من القطعة الموسيقية الحالمة. ولم يقل لها ما هي أو من ألفها. وتوقف فجأة ونظر إليها مستفسرا. «لا تتوقف»، قالت ماريا، «إنه شوبان، أليس كذلك؟».

امتقع وجه بيستانا، وحملق في الفضاء طويلا، وكرر مقطعا أو مقطعين، ونهض واقفا. جلست ماريا إلى البيانو وبعد أن بذلت جهدا لاستدعاء قطعة شوبان إلى ذاكرتها، قامت بأدائها. كانت الفكرة والموتيفة هما نفس الشيء: لقد عثر عليها بيستانا في أحد تلك الأزقة المعتمة في ذاكرته، تلك المدينة العتيقة للخيانات. ومحزونا ويائسا، غادر البيت وذهب في اتجاه الجسر، في الطريق إلى سان كريستوف.

«لماذا أقاومها؟» قال. «سأتمسك بقطع موسيقى البولكا.. أهتف ثلاثًا للبولكا!».

الأشخاص الذين مروا به وسمعوا هذا تفرسوا فيه وكأنه مجنون. وسار في طريقه، هاذيا، مُهانًا، يتقاذفه في إقباله وإدباره التأرجح بين طموحه وموهبته، مثل كرة فلين «في لعبة بادمنتون» تدور بلا نهاية.

مر بالسلخانة القديمة. وعندما وصل إلى باب مزلقان السكة الحديد، فكر في السير على القضبان إلى أن يأتي أول قطار ويهرسه، أرجعه الحارس. واسترد رشده وعاد إلى البيت.

بعد ذلك بأيام قليلة ذات صباح صاف وصحو في مايو ١٨٧٦، أحس بيستانا بوخز خفيف مألوف في أصابع يديه. نهض ببطء بالغ، حتى لا يوقظ ماريا، التي كانت قد ظلت تسعل طوال الليل وكانت تنام بعمق في تلك اللحظة. ذهب إلى حجرة البورتريهات، وفتح البيانو، وفيما كان يعزف بأهدأ ما كان بوسعه، خرج ببولكا. وجعلهم ينشرونها له باسم مستعار.

وفي غضون الشهرين التاليين ألف ونشر اثنتين أخريين. ولم تكن

ماريا تدرك أي شيء: فقط كانت تغدو وتروح وهي تسعل وتحتضر إلى أن لفظت أنفاسها الأخيرة، ذات صباح، بين ذراعي زوجها المرتعب واليائس.

كانت عشية عيد الميلاد المجيد. وتضاعف حزن بيستانا، لأنه كانت هناك في الحي حفلة راقصة يُعزف فيها عدد من أفضل قطع البولكا التي ألفها. وعند هذه النقطة كان من الصعوبة بمكان أن يتسامح مع الحفلة الراقصة: أعطته وألحانه إحساسا بالمفارقة والشذوذ. وأحس بإيقاع خطى الرقص، وخمن الحركات الشهوانية الممكنة التي حفز إليها توزيع أو آخر من توزيعاته الموسيقية، وكل هذا فيما كان واقفا بجوار جثة زوجته، وكانت حزمة من العظـــام تتمدد على الفراش. هكذا انقضت ساعات الليل كلها، البطيئة منها والسريعة، مضمخة بالدموع، والعرق والكولونيـــا، راقصة بلا انقطاع، وكأنما على أنغام موسيقى بولكا من تأليف بيستانا خفي هائل.

بعد دفن زوجته، لم يكن في رأس الأرمل سوى غاية موسيقية وحيدة أخيرة: أن يؤلف موسيقى قداس، سيكون عليه أن يعزفها في الذكرى السنوية الأولى لوفاة ماريا، على أن يعتزل الموسيقى بعد ذلك.

عندئذ سيختار خطا آخر للعمل: موظفا كتابيا، ساعي بريد، بائعا متجولا، أي شيء يجعله ينسى الفن بقلبه الدامي وأذنه الصماء.

وبدأ يعمل في تأليفه الموسيقي، مستخدما كل شيء في متناوله: الجسارة، الصبر، الوساطة، حتى نزوات صاحب السعادة الحظ، الذي استخدمه من قبل في مناسبة أخرى عندما كان يقلد موتسارت. أعاد قراءة قداس هذا المؤلف الموســـيقي ودرسه. ومرت أسابيع وشهور. والعمل، الذي بدأ بانطلاقة سريعة، أخذ يهدئ خطاه. وعرف بيستانا السعود والنحوس.

ففي بعض الأحيان كان عاجزا عن إضفاء أي جوهر مقدس على عمله الموسيقي، واكتشف أنه يفتقر إلى الأفكار وإلى الإلهام، وفي أحيان

أخرى كانت معنوياته ترتفع إلى مستوى المناسبة فكان يعمل بهمة. ثمانية شهور، تسعة، عشرة، أحد عشر شهرا، ولم يكتمل القداس. وضاعف جهوده، ناسيا فصوله الدراسية وأصدقاءه. وقام بمراجعات لا نهاية لها للقطعة الموسيقية، لكنه اعتزم في تلك اللحظة أن يكملها بطريقة أو بأخرى، خمسة عشر يوما، ثمانية أيام، خمسة أيام.. وأتى صباح يوم الذكرى السنوية فوجده لايزال يعمل.

واضطر إلى أن يقنع بقداس متواضع بسيط، شهده على انفراد. ومن الصعوبة بمكان أن نعرف ما إذا كانت كل الدموع التي تسللت خلسة إلى عينيه دموع الزوج، أو ما إذا كان بعضها دموع المؤلف الموسيقى. والحقيقة أنه لم يمس القداس بعد ذلك مطلقا.

«ما الفائدة؟» قال لنفسه.

مرت سنة أخرى أيضا. وفي الأيام الأولى من ١٨٧٩ ظهر الناشر.

«منذ سنتين لم نسمع منك شيئا»، قال: «الجميع يسألون عما إذا كنت فقدت موهبتك. ماذا كنت تفعل بنفسك؟».

«لا شيء».

«يمكنني أن أفهم أي ضربة كان ما حدث بالنسبة لك، لكن سنتين مرّتا الآن. لقد جئت لأعرض عليك عقدا: عشرون قطعة بولكا في الاثني عشر شهرا التالية بالسعر القديم، بنسبة مئوية أعلى على المبيعات. بالإضافة إلى أنه يمكننا أن نجدد بعد نهاية السنة».

أومأ بيستانا إيماءة إذعان. ذلك أنه كان لم يعد لديه سوى طلبة قليلين كما كان قد باع منزله ليسدد ديونه، وأتت الضرورات اليومية على ميزانيته التي كانت قد انخفضت إلى لا شيء تقريبا. وقبل العقد.

«لكن ينبغي إعداد البولكا الأولى على الفور»، أوضح الناشر. «إنها لمحة. هل رأيت رسالة الإمبراطور إلى كاشياس؟ الليبراليون تم استدعاؤهم إلى الحكم، وهم يعتزمون إجراء إصلاح انتخابي. وسيكون اسم البولكا مرحى للانتخابات في وقتها! هذا ليس عنوانا سياسيا، إنه مجرد

عنوان ملائم للمناسبة».

ألف بيستانا العمل الموسيقي الأول الوارد في العقد، ورغم فترة صمته الطويلة، كان لم يفقد لا أصالته ولا إلهامه. وكان هذا العمل يحمل البصمة المألوفة لعبقريته. وظهرت بقية قطع البولكا بانتظام. وكان قد احتفظ ببورتريهات المؤلفين الموسيقيين وبمجموعاته من أعمالهم، غير أنه تجنب قضاء كل ليلة جالسا إلى البيانو، هربا من إغراء التجربة. ونظرا لمكانته البارزة، كان بوسعه أن يطلب تذكرة مجانية كلما كانت هناك أوبرا أو حفلة موسيقية جيدة. كان يذهب، ويدس نفسه بعيدا في ركن متوار عن الأنظار، ويستمتع بذلك العالم من الأشياء التي لن يتأتى أبدا أن تزهر في رأسه. وعلى فترات متباعدة، عندما كان يعود إلى البيت ممتلئا بالموسيقى، كان المايسترو المجهول بداخله يُستثار، عندئذ كان يجلس إلى البيانو ويعزف، دون أي شيء محدد في رأسه، إلى أن يذهب إلى الفراش، بعد ذلك بعشرين أو ثلاثين دقيقة.

هكذا مرت السنوات، حتى ١٨٨٥، وكان نجاح بيستانا قد جلب له الشهرة، وأخيرا تم تصنيفه المؤلف الرئيس لموسيقى رقصات البولكا في ريو، غير أن المرتبة الأولى في المدينة لم تقنع هذا القيصر، الذي كان سيفضل حتى المرتبة المائة في روما. وكانت لديه نفس المشاعر التي كانت لديه من قبل بشأن مؤلفاته الموسيقية، مع فارق أنها كانت قد غدت آنذاك أقل عنفا. ولم يكن متحمسا بعد الساعات الأولى ولا كان مرتاعا بعد الأسبوع الأول: كان يُحس بشيء من السرور وبنوع من السأم.

كانت تلك هي السنة التي أصيب فيها بحمى خفيفة، ارتفعت بعد أيام قليلة وأخيرا صارت مسألة خطيرة. وكانت حياته في خطر بالفعل عندما ظهر ناشره، الذي لم يكن يعرف شيئا عن مرضه، كأن قد أتى ليخبر بيستانا بصعود المحافظين إلى الحكم وليطلب منه بولكا

جديدة من أجل هذه المناسبة. وأخبره مرافق الرجل المريض، وكان عازف كلارينيت بالمسارح وكان فقيرا معدما، بحالة بيستانا. وقرر الناشر ألا يشير إلى البولكا الجديدة، غير أن بيستانا أصر على أن يعرف لماذا أتى. وخضع ناشره.

«لكن فقط بعد أن تكون قد شفيت»، بهذا ختم كلامه.

«فور أن تهبـط حرارتي قليلا»، قال بيسـتانا. أعقبت ذلك وقفة قصيرة. وخرج عازف الكلارينيت على أطراف أصابعه لإعداد دواء. ووقف الناشر وتهيأ للانصراف.

«مع السلامة».

«انظر»، قال بيستانا، «حيث إنه من المتوقع تماما أن أموت في أي يوم في هذه الفترة، سأعد لك قطعتين من البولكا على الفور، يمكن استخدام الأخرى عندما يأتي الليبراليون إلى الحكم مرة أخرى».

كانت تلك هي النكتة الوحيدة التي أطلقها طوال حياته، وكانت تلك هي الفرصة الأخيرة، لأنه مات في السـاعة الرابعة وخمس دقائق صباحا، في سلام مع الجنس البشري وفي حرب مع نفسه.

مثلث متساوي الأضلاع

تأليف: ماريو بنيديتي
ترجمة طلعت شاهين

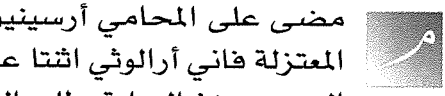

مضى على المحامي أرسينيو بورتاليس والممثلة المعتزلة فاني أرالوثي اثنتا عشرة سنة من الزواج السعيد. منذ البداية، طلب الزوج من فاني اعتزال التمثيل، لأنه في ما يبدو، لم يكن متحرّرًا بالقدر الكافي ليحتمل مشـــاهدة زوجته الجميلة ليلة بعد أخرى بين أحضان وقبلات آخرين على خشبة المسرح.

بذلت هي مجهودًا كبيرًا لتلبية رغبته التي تؤمن بأنها شيء غبي، وتتبع من إحساس مرضي بالرجولة، وتفتقد أدنى حسّ مهني. من ناحية أخرى، كان قد أضاف الزوج إلى تلك الرغبة شيئًا آخر يبرر طلبه لاعتزالها: «لا أعتقد أن لديك المواهب الكافية لتنجحي كممثلة مسرحية، لأنك شـــفافة أكثر من اللازم، في كل دور تطغى شخصيتك الحقيقية على الشخصية المسرحية، في الوقت المطلوب فيه أن تطغى الشخصية المسرحية على شخصيتك الخاصة، أنت شفافة أكثر من اللازم، والممثل الحقيقي يجب أن

يكون غير شفاف كإنسان، وما لم يكن كذلك فلن يكون قادرًا على أداء دور شخص آخر، مهما ارتديت ملابس (أوفيليا)، أو (إليكترا) أو (ماريان بيريدا)، فإنك ستكونين دائما فاني أرالوثي. أنـــا لاأنكر أن لديك مواهب فنية، ولكن يجب أن توجهي مواهبك نحو الرسم أو الأدب، أي لممارسة فن تكون فيه الشفافية فضيلة وليست عيبا».

تركت فاني زوجها يعرض وجهة نظره، إلا أنه لم يقنعها أبدا. وإذا كانت قد تخلت عن عملها كممثلة، فذلك من أجل الحب، لم يكن هو يفهم ذلك أو يقدره على هذا النحو. مع ذلك، فإنه خلال الحياة اليومية، الخاصة، كانت فاني منظمة، قنوعة، تكاد تكون ربة بيت مثالية.

ربما كانت ربة بيت أكثر من مثالية بالنسبة للمحامي د. بورتاليس. كانت خلال العامين الأخيرين للمحامي علاقة نسائية أخرى، سرية ومنتظمة، بامرأة مشبوبة العاطفة، متناقضة، وكما لو كان كل هذا غير كاف، فقد كانت جذابة جدا.

استأجر بورتاليس شقة صغيرة على بعد ثماني نواصٍ من بيته، كمكان مناسب لتلك اللقاءات، كان مهتما بتنظيم أسباب ذهابه إلى مخبئه، لأسباب مهنية كان عليه الذهاب إلى بيونس أيريس مرة واحدة أسبوعيا، ولا يغيب إلا ليلة الثلاثاء فقط، ويطلب من فاني ألا تهاتفه خلالها، ولكن تحسبا لشكوكها، قدم لها رقم تليفون زميل من العاصمة، مع تعليمات محددة: «آه أرسينيو؟ في اجتماع أعتقد أنه سيمتد إلى وقت متأخر». إلا أن فاني لم تهاتفه أبدا.

هي، التي كانت تعرف احتياجات زوجها أكثر من أي

شخص آخر، كانت ترتب له حقيبته الصغيرة وترسل في طلب التاكسي. وبورتاليس كان يهبط من التاكسي بعد ثماني نواص، يصعد إلى الشقة السرية، يتخفف من ملابسه، يعد مشروبا، يشعل التلفزيون، في انتظار راكيل التي كانت هي الأخرى متزوجة، والتي يجب أن تنتظر ذهاب زوجها في رحلته الأسبوعية للتفتيش على أملاكه. في الحقيقة كان لقاء الثلاثاء بناء على رغبة راكيل، لأنه اليوم الذي اختاره زوجها الثري لمراقبة محاصيله الزراعية. «وليترك لنا الفضاء طليقا»، كما كان يقول أرسينيو.

عندما تأتي راكيل بعد طول انتظار، يتناولان العشاء في البيت، لأنهما لا يستطيعان المغامرة بأن يشاهدا معا في السينما أو في أحد المطاعم. بعدها يأتيان الحب بطريقة مغايرة، شبابية ومنطلقة، كما لو كانا مراهقين. يشعر بورتاليس كل ثلاثاء وكأنه استعاد حيويته من جديد. يبذل جهدا مضاعفا كل أربعاء ليمارس عادات البيت الشرعية، بنقاء وطبيعية.

عند العودة، لا يعرف لماذا، يبالغ في اتخاذ الاحتياطات، يطلب تاكسيا، يطلب منه أن يتركه في المطار، وبعدها بقليل، يستقل تاكسيا آخر ليوصله إلى البيت. خلال هذا الاعتياد، كانت فاني تسأله عن الرحلة، فكان حينها يخترع تفصيلات صغيرة عن لقاءات العمل المملة مع زبائنه في بيونس أيريس، مؤكدا دائما مدى تشوقه للعودة إلى البيت.

وأخيرًا جاء الثلاثاء الذي تكتمل فيه السنة الثانية من اللقاءات السرية مع راكيل، واستطاع بورتاليس الحصول

على عقد من الزهور الصغيرة الملونة، أرسل في طلبه من إيطاليا عن طريق أحد زبائنه، وهذا زبون حقيقي قدم له خدمات مهمة. بينمـــا كان بورتاليس هائما في شقته السرية: أعد ما يشـــربه مع راكيل، استلقى على الأريكة، منتظرًا وصولها بشوق أكبر من تشوّقه لرؤيتها في المرات السابقة.

وصلت هي متأخرة عن المعتاد، لكنها عللت تأخيرها بذهابها لشراء هدية بمناسبة الذكرى السنوية للقاءاتهما: رباط عنق حريري، مزركش بخطوط زرقاء على أرضية رمادية. عندها قدم لها أرسينيو بورتاليس علبة العقد. أعجبها العقد جدا. قالت: «سأذهب إلى الحمام للحظات قليلة، وهكذا أجرّب العقد وأرى إن كان يليق بي»، قالتها بطريقة تدل على أنها مقدمة لأشياء أخرى، قبلته برقة وحرارة. وكما هو طبيعـــي، اعتبر هو هذه القبلة بداية لليلة رائعة.

إلا أن راكيل تأخرت في الحمام، وبدأ هو يشعر بالقلق، نهض وتوجه نحو الباب المغلق وسأل: كيف الحال؟ هل أنت بخير؟ قالت هي: «أنا بخير جدا....سأكون معك حالا».

دون قلق، ولكن بتشوّق لما ســـيأتي بعد تلك البدايات المشجعة، عاد بورتاليس إلى الجلوس على الأريكة. انفتح باب الحمام بعد خمس دقائق، ولمفاجأة الرجل المنتظر، لم ينفتح الباب لتخرج منه راكيل بل فاني أرالوثي، زوجته، وحول عنقها العقد الفلورنسي.

بورتاليس، المصعوق من المفاجأة، لم يفعل سوى الصراخ:

«فاني!»، ماذا تفعلين هنا؟ هنا؟ أكّدت هي: «حسن، ما كنت أفعله كل يوم ثلاثاء، يا عزيزي. جئت لأراك، أعيش معك الحب، أحبك وأكون محبوبة منك»، وكما أن أرسينيو ظل فاغر الفم، أضافت فاني: «أرسينيو أنا فاني و راكيل أيضا. في البيت أنا زوجتك فاني أ.دي بورتاليس، لكن هنا أنا الممثلة السابقة فاني أرالوثي، أي أنني في البيت شفافة وهنا متصنّعة، بفضل مساعدة الماكياج، وباروكات الشعر ونص جيد، بالطبع».

«راكيل»! غمغم أرسينيو بورتاليس.

«نعم، راكيل، ألم تنتبه إلى ذلك؟ لقد خنتني مع نفسي، والآن وبعد عامين من الحياة المزدوجة، عليك أن تختار. إما أن تطلقني أو تتزوج مني، لست مستعدة للاستمرار في تلك الحياة، وهناك شيء آخر، بعد هذا النجاح الدرامي، بعد عامين من ممارسة العمل في مسرحية ناجحة، أخبرك فقط أنني سأعود إلى العمل في المسرح».

«صوتك» غمغم أرسينيو: «هناك شيء غريب في صوتك، ولا حتى لون عينيك هو لون عينيك!».

«بالطبع، وإلا لماذا اخترعوا العدسات الخضراء؟ كنت أسمعك دائما تقول إنك معجب بالفتيات ذوات العيون الخضراء».

«ملمس بشرتك، بشرتك لم تكن هي نفسها!».

«آه لا، يا عزيزي، أشعر بالأسف لخداعك، هنا وهناك كانت بشرتي هي نفسها، فقط يداك كانتا مختلفتين. يداك كانتا تتخيلان لي بشرة أخرى، على أي حال، ولا حتى أنا أعرف أيّهما بشرتي الحقيقية: هل هي لفاني

أم لراكيل، يداك لهما الكلمة الأخيرة».

أحكم «بورتاليس» قبضته، مشوّشا أكثر منه غاضبًا، ومنهارًا أكثر منه نزقا.

قال بصوت مختنق: «لقد خدعتني».

قالت فاني/ راكيل: «بالطبع».

الأسطوانة

تأليف: خورخي لويس بورخيس
ترجمة: أنطوان أبو زيد

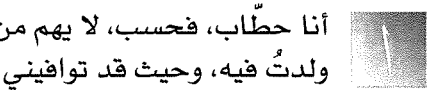

أنا حطّاب، فحسب، لا يهم من أدعى، أما الكوخ الذي ولدتُ فيه، وحيث قد توافيني المنية، فقائم على تخوم الغابة، وكان تراءى لـــي أن هذه الغابة مترامية حتى البحر الذي يلف الأرض لفًا، وحيث تطفو المنازل الخشب، شأن منزلي، لا علم لي بشيء من هذا القبيل، إذ لم أعاين قط ما أرويه، ولم يسبق لي أن رأيتُ الطرف الآخر من الغابة.

ولطالما كان أخي البكر يحملني على القســـم وإياه، إذ كنّا صغيرين، بقطع أشجار الغابة بما أوتينا من قوة ساعد حتى نسويها بالأرض الجرداء. لقد مات أخي، فصار جلّ مسعاي اليوم، وما أواصله في كل آن، أمرًا آخر، ناحية الغرب ينساب جدول حيث يســـعني الصيد باليد، وفي الغابة ذئاب غير أن الذئاب لا تخيفني، ولم تخذلني الفأس يومًا، ولم أجر جردًا لسنين عمري، وجلّ ما أعرفه أنها كثيرة، أما عيناي فلم تعودا تبصران شيئًا مما أحياه، وفي البلدة، إلى حيث لا أمضي لأنني قد أضلّ الطريق إليها، يحسبني الناس بخيلًا، ولكن ترى أي

مال مدفون يجنيه الحطاب من الغابة؟

اعتدتُ أن أحكُم إغلاق الباب بحجر مخافة أن ينفذ الثلج إلى المنزل، وذات عصر، سمعت وقع خطى متثاقلة، تبعها طرق على بابي، فتحتُ البابَ، فإذا وراءه رجلٌ غريب، فأدخلته، كان امرءًا عجوزًا، طويلَ القامة، وقد جعل يغطي هامته بدثار بال، وكانت ندبة تشطب وجهه شطبًا، وتراءى لي أن كبرَ سنه يهبه قدرًا عظيمًا من المهابة، مـــن دون أن ينقص ذلك من عزمه، وعلى الرغم من ذلك، لاحظتُ أنه كان يضطر إلى التوكؤ على عصاه، في مشيه، ولئن كنا تبادلنا أطراف الحديث، فإني لم أعد أذكر منه شيئًا، وإنما أذكر أنه ختم حديثه قائلًا:

«ليس لي منزلٌ أبيتُ فيه، وأنزل حيث تيسّر لي، ثم إني جلتُ في كل أصقاع المملكة الأنجلوسكسونية». وكانت تلك الكلمات خير ما ينطق عن كبره، ولئن كان والدي، فيما مضى، لا يكف عن ذكر المملكة الأنجلوسكسونية بالاســـم، فإن الناس اليوم يبدلون تلك التسمية بإنجلترا.

ولما كان لديّ خبزٌ وسمك، فقد رحنا نتناول العشاء في صمت، فيما كانت الأمطار تهطل، خارجًا، وإذ غلب النعاسُ جفونه، مددتُ له فراشًـــا من جلود بعض الماشية، وجعلته أرضًا، في الموضع الذي كان أخي قد لفظ أنفاسه الأخيرة فيه، بالضبط، ولم تحلّ حلكة الليل، حتى رأيتنا مستغرقَيْن في نومنا.

وبعد أن طلع النهـــار، وكفت الأمطار عـــن الهطل، وغطّت الأرض قشـــرة من ندائف الثلج الهامية لتوها، خرجنا سويا من المنزل.

ونحن على هذه الحال، أفلت الرجل عصاه من يده، وأمرني بأن ألتقطها له.

فقلت: «ما هي دالّتك عليّ لأطيعك؟».

فأجابني: «لأنني الملك».

ظننت أول الأمر أن به مسًا، فالتقطت عصاه، وأعطيته إياها. وراح، لتوّه، يتكلّم بنبرة فريدة:

«إني ملكُ السكجين، ولطالما أحرزت بهم النصر في معارك ضارية، غير أني أضعتُ ملكي في ما قُدّر لي من الزمن، أما اسمي فهو إيزرن، وأتحدّر من سلالة أودين».

فرددتُ عليه بالقول:

«أنا لا أجل قومًا أو دينًا، وإنما أؤمن بالمسيح».

فأردف قائلا، وكأنه لم يلقِ بالًا لأي كلمة نطقتُ بها:

«لئن كنتُ أهيم في دروب المنفى، فإنني مازلتُ الملك، لأن في حوزتي الأسطوانة، أترغب في رؤيتها؟».

ثم فتح لي راحة يده العظيمة، فلم تقع عيناي على شـــيء، لأنها كانت فارغة تمامًا، وللحال، أدركتُ أن قبضته كانت لاتزال مشدودة، وقال وهو ينظر إليّ شزرًا:

«بوسعك أن تلمسها».

وبعد تردّد، مددت طرف أناملي لألمس راحته، وللتو، انتابني شعورٌ بالبرود، إذ لمحتُ وميضًا، وانغلقت اليد بغتة، لم أتفوّه بكلمة، وأردف الأخير بأناة كأنما يحدث فتى، قال:

«إنها أسطوانة أودين، ليس لها إلا وجه واحد، وأنتَ لا تجد في الأرض غيرها ذات وجه، ومادامت في يدي أظل الملك».

«أتراها من ذهب؟» سألتُ.

«لا أدري، إنما هي أسطوانة أودين وكفى، وليس لها إلا وجه واحد».

عندئذ، تملكني الحسد، فطمعتُ بتلك الأسطوانة، ورحتُ

أقول في سرّي: لو صارت إليّ، لأمكنني بيعها، ولاستبدلت بها سبيكة من ذهب، فأغدو ملكًا، فقلتُ لهذا المتشرد الذي مازلت أكرهه إلى يومنا:

«لقد سـوّيت لي مخبأ في كومي، وجعلت فيه خزنة مُلئت بالقطع النفيسة، وهي من ذهب كلها، وتتلألأ كما فأسي، وإن أعطيتني أسطوانة أودين، وهبتُكَ خزنتي».

فردّ عليّ بنبرة ملؤها العناد، قال:

«هيهات!».

فقلتُ له:

«إذن، ما عليكَ سوى أن تمضي في سبيلك».

وما إن استدار حتى عاجلتُهُ بضربة فأس على رقبته، كانت أكثر من كافية لجعله يترنّح ويهوي، غير أنه، لدى سقوطه، جعل يبسـط راحته، فعاينتُ الوميض متلألئًا في الهواء. ولما كنت أخشى تضييع الوميض، غيبته بحدّ الفأس، وجعلتُ أجرجر الميت حتى النهر الذي كان لايـزال في إبان فيضانه، وألقيتهُ فيه. وحال عودتي، مضيتُ أبحثُ عن الأسطوانة فلم أجدها، وها قد مضت سنوات وأنا لاأزال في بحث دءوب عنها.

جوٌ ريفي

تأليف: خوسيه ماريا ميرينو
ترجمة: صالح علماني

سلموه الشقة في أواخر السنة، وبدأ على الفور بتصميم ديكور لها. كان يرغب في أن يضفي على المسكن هوية تميزه عن مئات الشقق المحيطة بشقته، والمتراكمة أيضًا في عمارات هائلة مائلة إلى الحمرة. وكان يرغب في الوقت نفسه في أن يُشيع، ولو بالتصنع، حضورًا ريفيًا، جبليًا؛ كذكرى من بلدته الأصلية، النائية والمنسية.

قسم الصالة بألواح زجاجية شفافة كبيرة، تاركًا القسم الخارجي منها متصلًا مباشرة بالشرفة الصغيرة.

وفي الجانب الداخلي من الحيز الذي يقسمه الزجاج إلى قسمين، بقيت حجرة مكعبة أقام في وسطها، بدلًا من الأثاث المتداول، رابية صغيرة، صنع هيكلها من ألواح خشبية، مغطاة بقماش سميك.

ووضع في أنحاء متعددة من السفح جهاز الموسيقى، والأسطوانات، وأشرطة الموسيقى والفيديو، وأقام مشربًا صغيرًا. وبقيت في القمة - التي يُصعد إليها بدرج قصير تتلوه صدوع - فجوة مريحة تُستخدم في الوقت نفسه كمقعد وثير، يلقي عليه جسده في أوقات الراحة.

كانت الرابية المغطاة بذلك القماش الأخضر والرمادي، تتألق تحت مصباح السقف: وهو كرة كبيرة بيضاء، موشاة بخطوط أشعة صفيحية هي صورة ورمز للشمس.

وضع على الجدران رفوفًا للكتب والأواني، مثبتة على ألواح خشبية مقصوصة ومطلية في استنساخ لطيف لجبل أوبينياس وقمم أخرى من سلسلة الجبال. ووراء تلك المجسمات الجبلية، كانت هناك فجوة ضيقة تخفي الأنوار الكهربائية التي تمنح السقف زرقة السماء المسائية الباهرة.

في القسم الخارجي من الحاجز الزجاجي، المتصل بالشرفة الصغيرة - والذي تحول إلى فضاء متماثل مع الخارج بعد نزع الباب والنافذة العريضة وإبقاء مكانيهما الخاويين مفتوحين للهواء - قرر أن يزرع مرجًا صغيرًا، فعزل الأرضية برقائق بلاستيكية، وغطى كل المكان بطبقة سخية من الدبال؛ ثم زرع بذورًا وسمّد الزرع، وراح يسقيه بعد ذلك عدة مرات لكي يُسّرع انتشار ونمو العشب والبرسيم القصير.

علق رفوف أصص على جدران حجرة المرج وحجرة الرابية، وزرع فيها فسائل لبلاب وكرمة. ومع توالي الأيام والوهج الدافئ الذي يسمح اتجاه الشقة بدخوله، ظهرت براعم ونمت أول الأغصان، ثم راحت تتكاثر براعم جديدة.

امتدت ذرى سلسلة الجبال المجازية في الشقة وجروفها على طول الممر، من خلال رسوم تلتحم في أعلى الجدران وفي السقف بزرقة بديعة.

وفي غرفة الحمام، فوق أحد طرفي حوض البانيو الضيقين، أخفى الدوش والصنابير، ببناء منحدر من الحجر والطوب، فيه تجعدات وخشونة الحجر؛ ومن هناك صار يمكن للماء أن يسيل كما في مسيل جبلي.

علق أصص نباتات معرشة وزعترًا فوق أفاريز كل النوافذ، وأضفى على المطبخ جو البيوت الريفية، بوضع مقعد من خشب الصنوبر، وتعليق ضفائر من الثوم والفلفل والسجق وباقة من الغار، وهاون برونزي وتمثال لامع للقديس بانكرثيو.

وقسم حجرة النوم عند منتصف ارتفاعها بمنصة من ألواح خشبية عرضها متر ونصف المتر وبطول الحجرة، وكانت تزدهي في الجهة غير الملتحمة بالجدران شرفة شديدة الإتقان، مسورة بحزم من الحشيش المجفف، ووضع الفراش فوق تلك السقيفة.

كان يصعد إلى هناك كل ليلة، ويسحب السلّم الصغير قبل أن ينام؛ ثم يستلقي، فيشعر بأنه يطفو فوق العالم، مثلما في ليالي الطفولة.

***

عندما جاء الصيف، صارت الرطوبة تنشر نداوة كبيرة، تضمخ البيت كله. وكانت الحمائم التي يربيها على الشرفة تدخل إلى القسم الداخلي من المرج لتنقر ما بين العشب، حيث كانت تنسل بعض السحالي. وأحضر كذلك أرنبين اثنين بدآ يخرجان من جحرهما ليتسكعا مذعورين.

كان يجلس فوق القمة ويستمع إلى الموسيقى، ويقرأ روايات، ويشاهد التلفزيون المعلق ما بين القمم، ويغمض عينيه مستسلمًا للتهادي على هديل الحمائم، وصرير الجداجد، وصدى المسيل المتدفق في الحمام بهدير ماء كأنه يندفع بين الجروف. ومع ذلك، فقد راحت بعض الهموم تعكر طمأنينته: فالأرنبة ولدت مجموعة جديدة من الأرانب الصغيرة، وهي حبلى مرة أخرى دون شك، والحمائم تكاثرت، بعد كثير من الهديل. ورأى أنه يمكن لتلك الخصوبة في التوالد أن تُعرّض جوه الريفي للتهديد والخطر.

***

عندما استيقظ في صباح أحد الأيام، وجد أنه لم يعد هناك من مجموعة الأرانب سوى الذكر وأرنبين صغيرين. أما البقية فقد اختفت جميعها، وكانت هناك بقايا جلد ودم تشير إلى حدوث مجزرة.

بحث عن آثار، واكتشف أخيرًا، وبوضوح كامل في وسط الممر، آثارًا مؤكدة لقوائم كلب ضخم أو ذئب.

بقي طوال الليل في أعلى الرابية، متيقظًا، ملتفًا ببطانية ليحتمي من الرطوبة، وممسكًا في حضنه بالبندقية القديمة التي كان جده قد اصطاد بها الخنزير البري الضخم في أومانيويلا. إلا أن الذئب لم يظهر، وفي الساعة التاسعة صباحًا، رنّ الهاتف: لقد استغربوا في المكتب غيابه المريب، وهم قلقون على صحته. وكانت قد انقضت، كما يبدو، أربعة أيام.

عاد إلى العمل في اليوم التالي، ولكنه حين رجع إلى البيت كان الذئب قد التهم بقية الأرانب. عندئذ قرر القيام بمطاردة صيد في كل أركان الشقة، ولكنه لم يتمكن من العثور على الحيوان الضاري.

واستعد مرة أخرى للحراسة فوق المرج، فبقي ساهرًا تلك الليلة، والبندقية على ساقيه، وطوال النهار التالي، دون أن يظهر الذئب. وفي الليلة الثانية أحس بنعاس شديد، ولكنه تمكن من مواصلة الحراسة. ولم يظهر الذئب كذلك. وفي الليلة الثالثة غلبه النعاس.

بعد يومين من ذلك اتصلوا عدة مرات بالهاتف، ولكنه لم يرد. وكان لا بد من مرور أسبوع آخر قبل أن يجدوه: كان ملقى في وسط الصالة، ملطخًا بدم جاف، وحنجرته ممزقة. وبسبب انعدام السقاية، كان العشب قد ذبل واصفرّ تمامًا.

رسالة غرامية

تأليف: دينو بوتزاتي
ترجمة: نهلة بيضون

هآنا قد عدت أخيرا، حبيبتي، وأنتظر حاليا أن تلحقي بي. تقولين في رسالتك الأخيرة التي لقيتها منذ شهر إنك أصبحت لا تطيقين العيش دوني. أصدقك لأن الشعور نفسه يخالجني. ألا يعتبر ذلك نوعا من الانجذاب الحتمي الذي يكاد يكون عقابا؟

إن ما يجري عادة بين رجل وامرأة هو أن أحدهما فقط يكون مغرما بينما يرضى الآخر بهذا الوضع أو يخضع له. أما نحن الاثنين فإننا نعيش هوانا على قدم المساواة مما يضفي على علاقتنا مسحة من الروعة. يا له من وضع جميل ومرعب في آن معا! كما لو كنا ورقتين تدفعهما الواحدة باتجاه الأخرى رياح شرسة! فما عسى أن يحدث عندما تلتقيان؟!

تصلك هذه الرسالة بعد ثمان وأربعين ساعة. أعرف أنك متأهبة للرحيل منذ أشهر عديدة، رتبت حقائبك وودعت أصدقاءك. يلزمك يومان لتصلي إلى هنا، ولنفترض أنك ستنطلقين يوم السبت: بعد أربعة أيام، سأبدأ بانتظارك منذ بزوغ الفجر.

كيف ستكون حياتنا؟ خلال سنوات الفراق الماضية، ما فتئت أفكر بحياتنا المشتركة المقبلة دون أن أفلح في تصور الأمور بوضوح، إذ يهيج بي الشوق إليك فيجتاح كياني ويشتت مخيلتي. لذا أغتنم اليوم هنيهة هدوء أشعر فيها بحاجة ماسة لأستشرف بعض الأمور وأحيطك علما بها. أعرف أنك لا تحتاجين للإقناع، حذار إذا بقي لديك أو لدي طيف شك، ولكن بوسعك لدى قراءة هذه الصفحات ثانية خلال السفر أن تقدري فرصة خيارك الذي لا رجوع عنه وخياري حق تقدير.

أود بادئ ذي بدء وقبل أن يسبق السيف العذل، أن أستعرض خصال وعيوب كل منا، المركز الاجتماعـــي لكل منا، عاداتنا ورغباتنا التي تتطابق تطابقا تاما، أما لاحظت ذلك قط؟!

أولا، هناك مركزنا الاجتماعي، فأنت أستاذة في اللغة الفرنسية وأنا منتج خمور. أنا العامل الاقتصادي كما يقال، وأنت المثقفة. سيصعب علينا، ولحسن الحظ، أن نتفاهم تماما، إذ سيظل هناك دوما عائق وستار يفصلنا ولن تنجح النوايا الحسنة في إزاحته.

فكري مثلا بمشكلة الأصدقاء: أصدقائي أشخاص شرفاء وطيبون ولكنهم بسطاء. لا أعني أنهم جاهلون بكل معنى الكلمة، فمن بينهم محام معروف ومهندس زراعي ونقيب متقاعد. ولكن لا أحد منهم يعاني مشـــكلات معقدة، فهم يتذوقون إجمالا الطعام الجيد وأؤكد لك أنهم لا ينفرون من النوادر الفاحشة. أتخيلك بصحبتهم: تتثاءبين تثاؤبات متواصلة تسعين لإخفائها لأن تربيتك الراقية تحتم ذلك. سيصعب عليك التأقلم فأنت إنسانة عصبية المزاج، ليس من شيمك الصبر والتسامح، بل إن هذا الطبع هو الذي جعلك تفقدينني صوابي. أصغي إلي

حتى ولو كان ما سأقوله لا يمت بصلة لما سبق : ماذا لو سافرت في أول قطار يوم السبت بحيث تصلين مساء الأحد، ألا يكون ذلك رائعا حقا؟!

تقولين إننا روحان توأمان وأنا أصدقك القول، فالانسجام بين شخصين لا يعني التطابق أو التشابه التام، بل تبين التجربة أنه يعني العكس تماما. وهذا مـــا ينطبق علينا: فأنت مجازة في اللغة الفرنســـية وأنا خمار، كما كان يحلو لك أن تنعتيني متهكمة في بداية تعارفنا. أعلمك بأنني لا أنوي الرجوع إلى الأرجنتين فقد ضقت ذرعا. لقـــد بعت المزارع التي تركها لي عمي في «مندوسا»، ولن أفارق أراضي بعد اليوم، أو على الأقل، هذا ما أتمناه، فأنا لا أشعر بالسعادة إلا هنا. ولكنني أعي، من جهة أخرى، أن العيش في الريف ســـيملؤك كآبة حتى لو تابعت التدريس، ومضيت ذهابا وإيابا إلى المدينة المجاورة. إنه الريف بكل معنى الكلمة. ستكظمين غيظك في البداية دون شك. ولكن ها هو ثغرك يتراءى أمام ناظري إذ تشقينه قليلا كطفلة صغيرة وكأنك تترقبين شيئا ما. ستتهمينني بالتفاهة وترددين ذلك مرارا، إنما هو الشيطان أو ما شابهه قد اتخذ له مخدعا في شـــفتيك العذبتين المتفتحتين. أعترف لك بأن ثغرك ذاك هو الذي بدأ يسلب فؤادي.

فلننتقل إلى البيت: بيتي فسيح ومريح فقد فرغت لتوي من تجديد صالات الحمام الثلاث، ولكنه يختلف تماما عن بيتك. فالأثاث يعود إلى عهد أجدادي بل أجداد أجدادي، ولكنني لا أفكر بتغييره لأنني أعتبر ذلك تدنيسا كانتهاك حرمة قبر. أما أنت، فتفضلين «جروبيوس» (هل يكتب الاسم بهذا الشكل؟). أعذريني إذا ما أخطأت فأنت تعلمين أن مستواي العلمي يقتصر

على الشهادة المتوسطة فحسب.

أنت تحبين الأرائك والثريات التي صممها أشهر المهندسين. أشياء براقة، عملية، أساسية، مقومة للاعوجاجات (هل لي أن أقول ذلك؟). كيف ستشعرين وسط هذا الأثاث العتيق الذي أدرك أنه لا يجسد الذوق الرفيع؟ يكفي أن أفكر بالرائحة التي تفوح من هذه الغرف، رائحة الرطوبة والغبار النقي والريف، رائحة كوخ متصدع، رائحة أعشقها، أستميحك المعذرة. أما أنت، فلا ريب أنك ستشعرين بالتعفن والغربة وتتقوقعين على نفسك كالقنفذ. تعالي، تعالي يا فؤادي!

ماذا عن طباعنا؟ أنا طيب، منفتح السريرة، مرح أكثر مما ينبغي أحيانا، ولكن ما حيلتي؟ أما أنت فقد ترعرعت في كنف الراهبات الفرنسيات في «سانت - إتيان»، تنتمين إلى عائلة أرستقراطية فقدت ثروتها (سوف تعتبرينني نذلا لأنني أكتب هذه الأشياء بهذه الطريقة الجارحة،هذا أفضل، صدقيني!). أنت اعتدت صحبة الناس المثقفين الذين يتحدثون عن الفن والأدب والسياسة بطريقة راقية (حتى الثرثرة تكتسب معهم أناقة مميزة).

أنا فلاح، قرأت مانزوني وتولستوي وسينكيفيكز، ولكني أقر بضعف مستواي الثقافي. أنت مترددة، متحفظة، متعجرفة، لا أريد أن أقول مغرورة (إنما يا لبشرتك الرائعة، ما أكاد ألمسها حتى يرتجف كياني. هل قيل لك ذلك؟ يا لسذاجتي، من يدري كم رجلا أسر لك بذلك؟). يشمئز أنفك الصغير الساحر عندما أستعمل كلمة في غير مقامها. وكم كلمة من هذا القبيل سأتلفظ بها على مسمعك! أليس ذلك كله عجيبا! امنحيني قبلة يا كنزي، أغلقي فمي.

ثمة شيء آخر: أنت معتادة الحياة في مدينة كبيرة. قلت لي ذات يوم إن هدير السيارات والشاحنات وصفارات سيارات الإسعاف وصرير الترامواي هي مهدئات تساعدك على النوم مساء وتسهل عملك اليومي. خلاصة القول، أنت تتمتعين بمزاج المدن الكبرى المشحون، أما هنا فلا شيء سوى الهدوء التام الذي يثير الأعصاب أحيانا، حتى أعصابي. فماذا أقول عن الليل إذن؟ لا شيء سوى حفيف الأشجار عندما تعصف الريح، وقطرات المطر تتساقط على السقف ونباح الكلاب البعيد تحت ضوء القمر. لا، لن تستطيعي التكيف أبدا فأنا أتخيل منذ الآن الأعصاب المشحونة والملاحظات اللاذعة والنزق والغضب. أو تعرفين، يا للروعة؟! القس مستعد لعقد قراننا صباح الإثنين، وما عليك إلا الوصول في الوقت المناسب، فالدعوات لحضور الزفاف قد وزعت منذ فترة طويلة.

علاوة على ذلك، أنا أهوى كرة القـــدم التي تمقتينها. فأنا من قدامى مشجعي نادي «يوفنتوس»، وقد أفقد شهيتي مساء كل أحد إذا لم تكن نتيجة المباراة إيجابية. لك أن تتخيلي إذن أن كل أحاديثي مع الأصدقاء تدور حول هذا الموضوع طوال الأســـبوع. أعتقد أن ذلك قد يثير فيك الغثيان. عند المساء تحدجينني بنظرة غريبة كما لو كنت ترمقين دودة زاحفة، وقد يصل بنا الأمر إلى الشجار، وعندئذ سيتلفظ ثغرك الصغير الأثير بكلمة نابية.

بالمناسبة، يمكنك بالتأكيد دعوة من تشائين إلى حفل الزفاف، ويمكن لجميع مدعويك النزول في الفندق المجاور والذي تتوافر فيه كل وسائل الراحة. وسأتحمل النفقات بالطبع. أما عائلتي فأقول لك فورا إن عددهم سيكون أربعين شخصا على أقل تقدير.

تعالي يا حبيبتي، فأنا أحبك حتى الموت عندما تغضبين.

لا شـــك في أن العادات تختلف في العاصمـــة، فعندما لا تذهبين إلى السينما (بالمناسبة، هل شاهدت فيلم «واترلو»؟! لقد أعجبني كثيرا)، تلتقين إحدى الصديقات، تتناقشان في مشكلات المدرسة والمناهج، تقومان بما يسمى عملا اجتماعيا وتشعران بأنكما عقلان متفوقان، أليس كذلك؟!

في المساء، أحب أن أجلس أمام التلفاز. عادة فظيعة أليس كذلك؟! فلنتفق إذن. أنا مستعد بين الحين والآخر أن أصحبك إلى المدينة مساء يا عزيزتي. ولكن يجب أن تدركي أن التلفاز أسوأ مما تتصورين (أنت التي رفضت دوما مشاهدته بحجة أن حاجبك يشاهده أيضا). عند المساء، لن أخفي عليك أنك ستتابعين المباراة بدورك من وقت لآخر. أتصور أنك ستصبين لعناتك علي، تتقوقعين علـــى الأريكة في زاوية قرب المصباح الصغير وتقرئين «تيلار دوشاردان» (هل الاسم صحيح؟).

هيا يا حبيبتي، دعي الطائرة تقلك أو الصاروخ عابر الكواكب أو البساط السحري، هلمي سريعا عزيزتي فقد عيل صبري، تعالي حبيبتي، سنكون أشقياء، أعاهدك على ذلك!

صباح الليلة الأولى بعد الألف

تأليف: آندريه ميكيل
ترجمة: أحمد عثمان

في الصباح الذي يلي هذه الليلة الشهيرة، الليلة الأولى بعد الألف، وبعد أن أعلن الملك زواجه على شهرزاد ونصبها ملكة إلى جانبه، انسحب إلى غرفته. بعيدًا عن صخب الساحة، بعيدًا عن صياح الفرحة الذي يتعالى في المدينة، يريد أن يتذوق البهجة الفريدة التي منحته الطمأنينة. اكتشف في شهرزاد، في النعيم المتبادل، الامتنان والإعجاب اللذين بديا عليه. ومع ذلك كان هناك شيء ما يقض مضجعه.

حبيبتي شهرزاد - قال - لن أكون راضيًا حقًا إلا إذا كشفت لي اللغز: ممن تعلمت كل ما سمعته منك، خلال هذه الليالي؟ وضحي لي أرجوك، يا من يعرف كيفما يجب أن نعرف؟

يا مولاي العزيز - أجابت شهرزاد - الأمر الأول، بالضبط، أننا لا نعرف شيئًا بمفردنا: الشعراء أنفسهم، الذين يطمحون، حتى الأكثر جنونًا منهم، في امتلاك قطعة صغيرة من هذه السلطة المبدعة التي، في الحقيقة، لا تنتمي إلا لله وحده، الشعراء، كما أقول، لا يعرفون ما يفعلونه بالكلمات التي انتقلت

إليهم من الآخرين، هناك التعريف الأول للمعرفة: إنه الإرث، ولم أفعل شيئًا آخر، يا مولاي، سوى قول ما تعلمته.

وأضافت شهرزاد، بشيء من الرضا: «ومن الصحيح أن به لمستي الشخصية الصغيرة». ثم، بنبرة جادة: «وإلا، فيم تفيد المكتبات؟ تحفظ ذاكرة كل ما يتم التفكير فيه، وبالأحرى: كل نظرائك، حينما تجد حكاية جميلة ومثالية تأمر بإيداعها الأرشيف الرسمي».

وسيكون من الرائع - قال الملك - إذا أردت يا شهرزاد، أن تمنحيني لطفك وجهدك، أن تملي على كَتَبتي كل ما حكيتيه. وسوف آخذ على عاتقي أيضا، وأؤكد لك أن كلامك، سوف يصبح نصًا، يحيا للأبد، سأفعلها، هذا النص سيتم حفظه، ويعاد نسخه وقتما يلزم الأمر، لكي ينقل من جيل إلى جيل، لأجل مجد المملكة والإنسانية جمعاء. غير أنني لم أنته بعد من طرح أسئلتي.

أسمعك، يا مولاي.

فهمت، بما فعلتيه معي، أن المعرفة إرث من دون شك، ولكن نستطيع، ويجب أن نضيف إليها.

نعم القول، يا مولاي. كل حي، موهوب بالكلام، بالمنطق، بالتخيل، يجب أن يحقق، في الواقع، قاعدة لتأمل، لتزويق، لإثراء، وأيضًا تصويب إذا لزم الأمر، كل ما تركه آباؤه. بالتالي، ما سيكون عليه الأمر إذا ظل هذا الإرث على حاله، هذا الحقل إن لم نكبره، هذا البيت، إن لم نلمسه، وتركناه يخرب رويدا رويدا؟ للشعراء، على الأقل، حق في هذا الشأن: التلقي لا يمنع الإبداع أبدًا، ماذا أقول؟ إنهم يفرضونه، حتى باسم الوفاء.

ولكن هذا الإبداع، يا شهرزاد، أين نبحث عنه؟

في أنفسنا، بالتأكيد، يا مولاي، ولكن بشرط ألا نتناوله في عالم منغلق على ذاته. العالم، نفسه، ينادينا من كل الجهات. من اللازم ألا ينغلق الحكيم في معارفه، وإنما يجب أن يجابهها بمعارف الآخرين، وليس فقط بحكماء بلده أو زمنه، المتخصصين في علمه. البحث، هنا، لا يستلزم أي حدود، لا تاريخ، لا أرض، لا معرفة، والقاعدة الذهبية، كمـــادة، تتمثل في البحث عن الناقص من اللذة، وفي كل مرة لذة جديدة مؤكدة.

كأني أسمعك تقولين يا شهرزاد، إن هذه اللذة هي الحقيقة الوحيدة. ولكن إذا لم يفض البحث إلى المجهول المرغوب دومًا، فكيف ستكون اللذة: كيف ســـتكون المعرفة؟ بالأحرى، ثرثرة مرادفة، بصورة ما، لخيبة الأمل، بل واليأس.

أسلم، يا مولاي، بأن هناك شيئًا من الحقيقة فيما قلته. اسمح لي أن أبين أن لذة البحث توجد في مسعاها عن محتواها. لنرجع إلى الشـــعراء: حينما يؤكد لنا أحدهم، ونعرفه نحن أنفسنا، أنه يحمل جديدًا، أين يوجد هذا الجديد؟ في الحقيقة، هو وإخوته، منذ البداية، لا يفعلون شيئًا سوى مساءلة مصيرنا، والموضوعات الثابتة عن الحب، البهجة أو الغم، العالم، الموت والآخرة. تحمل ابتكارية الشاعر الطريقة التي ينتهجها ويتنظم كلماته لكي تمنح إضاءة جديدة للسؤال الأبدي عن أصولنا، ذواتنا ومستقبلنا. خاصية الشاعر، ليست «ماذا» وإنما «كيف»، أي جانبه غير القابل للتقادم، أي صوته.

تبســـطين الأمور إلى حد ما، يا شـــهرزاد: كم أن الشعراء متساهلون! لنرجع - إن أردت بالطبع - إلى موضوع حي، إلى المعرفة، بمعناها العام. اللذة، الإبداعية، كل هذا جميل، وإنما قد تكون أنانية! أليس كذلك؟

من الصحيح: كثيرًا، كثيرًا للغاية. لنترك جانبًا كل ما يخص العلوم التي يتخصص فيها الخبراء المميزون. غير أن معينها لا ينفد وبالتالي المعرفة. كل ما يفهمه العقل الأصيل يجب أن يكون شائعًا: المعرفة تنكر وجودها إن لم تتقاسم، العالم ينكر وجوده إذا كان مدعيًا. وبذلك، من الواجب أن نهتم بما يقال وما يكتب: حينما يدخل الكلام أو الريشة إلى الساحة، من اللازم المحافظة على الفكر حتى تحيا الكلمات، المنطوقة أو المكتوبة. هل تتلاشى؟ من دون شك، ليس دائمًا، ولكن يبقى، في كل الأحوال، شيء ما، وهذا التقاسم، أيضًا، لذة.

كيف لا أحبك، يا شهرزاد؟ سببان يكفياني: أنت ذكية مثلما أنت جميلة. ومع ذلك يبقى سر من كل هذه الليالي الطويلة لم أصل إلى إدراكه. نعم، سر.. هل تستطيعين أن تقولي لي أي سر هذا؟

أنا صغيرة، صغيرة جدًا، يا مولاي، ولكن من بين كل ما تعلمته، أعرف أن لذة الحب تنفد وأنك ببلوغها ستقتلني. لحسن حظي. أنني أعرف أن هناك لذة أخرى، لذة المعرفة، وأنها لا تنفد إلا مع موتنا. ومنذ ذاك، منحتك إياها، ومنذ تلقيتها، أصبحت ملكي، للأبد.

آريان

تأليف: ج. م. ج. لوكليزيو
ترجمة: حمادة إبراهيم

على شاطئ النهر الجاف، توجد مدينة H.L.M ، هي مدينة حقيقية في حد ذاتها، بها عشرات البنايات، والأراضي الصخرية العالية على الشاطئ، القائمة في الساحات الأسفلتية، وفي كل مكان تلال حجرية، وطرق وجسور، مع مجرى النهر من الحصى المترب، ومصنع حرق الجثث الذي تتطاير أدخنته النفاذة الثقيلة فوق الوادي. نحن هنا بعيدون عن البحر، بعيدون عن المدينة الكبرى، بعيدون عن الحرية، بل بعيدون عن الهواء، بسبب أدخنة مصنع حرق الجثث، وبعيدون عن الناس، لأنها مدينة تشبه مدينة كبيرة خالية. فلربما لا يوجد بها أحد في الواقع، في هذه البنايات الكبيرة الرمادية ذات الآلاف من النوافذ المربعة، لا أحد في آبار السلالم هذه، في هذه المصاعد، ولا أحد كذلك في مواقف السيارات هذه التي بها السيارات واقفة - لربما هذه النوافذ وهذه الأبواب مسـدودة مطموسة، ولا أحد يستطيع أن يخرج من هذه الجدران، من هذه الشقق، من

هذه الكهوف – ولكن الذين يروحون ويجيئون بين الجدران العالية الرمادية، من رجال ونساء وأطفال وكلاب أحيانًا، أشبه بالأشباح التي لا ظل لها، ولا يمكن الإمساك بها ولا العثور عليها، هؤلاء الناس ذوو العيون الفارغة، الضائعون في الفضاء الذي لا حرارة فيه، ولا يستطيعون أن يتلاقوا بالمرة، أن يتقابلوا بالمرة، كأنهم بلا أسماء حقيقية.

من آن لآخر، يمر طيف، يمـــرق بين الجدران البيضاء. أحيانًا نرى السماء بالرغم من الغيوم، بالرغم من الدخان الكثيف الذي يخرج من مدخنة مصنـــع حرق الموتى في الغرب. كما نرى أيضًا طائرات تفر من السحب، وترسم خلف أجنحتها اللامعة خيوطًا طويلة قطنية.

تقول الأســـطورة إن آريان هي ابنة مينوس ملك كريت. ساعدت البطل تيزيه في التغلب على المينوتور وهو الحيوان الخرافي، ثم هجرها تيزيه (قاموس الأعلام) لا توجد طيور هنا، ولا جراد. أحيانًا توجد دعسوقة ضلت طريقها في مواقف السيارات الأسمنتية الكبيرة. تمشي على الأرض، ثم تحاول أن تفر فتطير بصعوبة إلى أحواض الزهور المليئة بالطين حيث يوجد الغرنوقي المحروق.

أحيانًا يوجد أطفال واقفون أمام أبواب البنايات. وقد ألقوا بحقائبهم على الأرض، يلعبون، ويصرخون، ويتعاركون، لكن هذا لا يســـتمر طويلًا. فهم يعـــودون إلى الزنزانات بين الجدران، ونسمع أصوات التلفازات تدمدم وتغني. أو حينما يهبط الليل فنسمع فجأة ضجيج العجلات البخارية، فتنطلق المجموعة بكل ســـرعة في خطوط متعرجة عبر مواقف الســـيارات، وتدور حول الأعمدة الكهربية حيث

مراكز الانطلاق والوصول. عشر عجلات أو ربما عشرون، ويرتدي جميع الأولاد الأقنعة والقمصان السوداء والخوذات البرتقالية أو المتعددة الألوان. وينعكس ضجيج مركباتهم على الجدران الأسمنتية، ويدوي في الممرات، وفي السراديب، ويجعل الكلاب تنبح أحياناً. ثم ينطلقون دفعة واحدة ونسمع ضجيج عجلاتهم يخفت وينقطع بين جدران أخرى، في جوف ممرات ضيقة أخرى.

أحياناً يذهبون وراء مصنع حرق الموتى، نحو أعلى وادي آريان، أو يصعدون الطرق التي تفضي إلى المقبرة. ضجيج غريب كضجيج قطيع من الحيوانات المفترسة تصرخ وتزأر في الليل وتحدث أصداء في جوف الخرائب المظلمة. ضجيج يثير الخوف لأنه يأتي من كل مكان في وقت واحد، غير مفهوم، خارق للعادة وللطبيعة.

في الليل، يهب الهواء البارد على البنايات وعلى مواقف السيارات، وعلى المرتفعات الحجرية. السماء سوداء، بلا نجوم، بلا قمر. مع النور الباهر الذي يصدر عن الأعمدة الحديدية الضخمة، النور الذي ينعكس على الأسفلت. وفي النهار ينعكس ضوء الشمس على الجدران الأسمنتية اللون، وهو حبيس سحب كثيفة، والصمت الذي هو بداخل هذا الضوء لا نهاية له. هناك أنوار، وهناك ظلال. هناك مرور للسيارات على الطريق الكبير الذي يحاذي النهر، وأسفل على الطريق السريع. محركات السيارات تنطلق وتزأر بلا انقطاع بين المرتفعات. شاحنات الأسمنت، وشاحنات الأخشاب، والبنزين، والطوب، شاحنات اللحوم واللبن. السيارات تتجه نحو الأسواق والمحال الكبرى، أو تعود

منها، عمياء، كأن أحدًا لا يقودها في الواقع.

اليوم الإثنين الموافق لعيد الفصح. مدينة H.L.M الكبرى أكثر فراغًا، أكثر اتساعًا. السماء رمادية، وريح باردة تهب بمحاذاة النهر الجاف، وتصعد بين جدران السدود، بين مرتفعات البنايات. ونور السحب الأبيض يلمع على النوافذ، حتى الطابق السادس عشر، ويصدر أنواعًا من البرق تتحرك، أنواعًا من الأشعة. وثمة ظلال شاحبة تتحرك في مواقف السيارات الخالية.

الناس لا وجود لهم هنا اليوم. اختفوا. لا يوجد سوى هياكل السيارات والمنازل، أشبه بسيارات المقابر الكبرى، هناك على مرتفع النهر. هذا يوم لها، يوم لهياكل السيارات المهجورة، بلا محركات، بلا عجل، بكشافات محطمة، وزجاج مكسر، وكابوتات مفتوحة تظهر الفراغ الأسود الذي انتزع منها ما بداخلها.

في الشوارع الخالية، يوجد بعض الأطفال الذين يركضون وراء كرة لونها أبيض في أسود. ويوجد بعض النساء متوقفات على حافة الطوار، يتبادلن الحديث. وأحيانًا هناك موسيقى. تخرج من نافذة كبيرة مفتوحة بالرغم من الريح الباردة: موسيقى ثقيلة؛ ذات نغمات بطيئة، يصاحبها صوت غريب حاد يغني وهو يرتجف دون توقف، وأيادي الناس تصفق على الإيقاع. لمن يغني هذا الصوت - الصمت، وراء ذلك، كبير، طويل. الصمت يأتي من الجبال الملساء، التي يختفي انحناؤها في السحب، الصمت يأتي من الطرق، من مجرى النهر الجاف، ومن الناحية الأخرى، بعيدًا، من الطريق السريع فوق قواعده العملاقة. إنه صمت حاد، وبارد،

صمت له صرير من التراب والأسمنت، كثيف كالدخان الأسود الذي يخرج من مداخن مصنع حرق الجثث. إنه صمت من هناك، من ضجيج المحركات. في أعلى التلال، من جهة المقبرة، يعيش هذا الصمت، ممزوجًا برائحة الدخان النفاذة التي تصدر عن مصنع حرق الجثث، ثم يهبط متثاقلًا على قاع الوادي، على مواقف السيارات، ويمتد حتى قاع الكهوف بلا نور.

هنا تمشي كريستين بمحاذاة العمارات العالية، دون أن تنظر، دون أن تتوقف. طويلة، رشيقة، وبخاصة مع الجينز القطيفة الأسود الذي ترتديه، والبوت القصير ذي الكعبين العاليين جدًا. ترتدي كذلك سترة بلاستيك بيضاء على قميص مخطط أحمر في أبيض. شعرها الطويل مربوط ذيل حصان مع بوكلات مذهبة تضغط على حلمتي الأذنين. الريح الباردة تكنس الشارع الذي لا ينتهي آتية من البحر من الجهة الأخرى للتلال، وتصعد وادي النهر مثيرة الغبار. ثم هي ريح شتاء، وكريستين تنضغط في سترتها البلاستيكية، وتقفل الياقة بيدها اليمنى، فيما تدس يدها اليسرى في جيب البنطلون الخلفي على مؤخرتها.

الصمت يسود بحيث إنها لتسمع ضوضاء كعبيها ترن في بلاط مواقف السيارات، وجميع جدران العمارات الكبيرة، بل وحتى قاع الكهوف. ولكن لعل البرد هو الذي يجعلها لا تسمع شيئًا آخر. الكعبان يرتطمان بأسمنت الطوار فتحدثان ضوضاء معدنية حادة، لحوحة تدوي دويًا عاليًا في داخل جسمها وفي رأسها.

وفيما هي تمشي تحاول أن ترى نفسها في زجاج السيارات

المتوقفة، أو في المرايا القلابة في خلف الشاحنات الكبيرة. تحاول أن ترى نفسها، بشـــيء من القلق وهي تميل قليلًا برأسها وتخفض عينيها. في المرايا الصغيرة، المحدبة كما في وسط الغيوم الزرقاء، ترى صورتها سوداء وبيضاء تتقدم وكأنها ترقص وساقاها طويلتان وذراعاها طويلتان ووجه صغير يلفه شعرها الذهبي. ثم يكبر الوجه ويتضخم حتى يتشوه قليلًا، فيطول الأنف، وتسود العينان وتتباعدان كعيني سمكة، وفم يبتسم يكشف عن أسنان بيضاء ناصعة. فيما مضى كانت كريســـتين تضحك أمام شكلها المشوه. لكنها الآن ومع القلق الشديد تحاول أن تستعيد وجهها الحقيقي، وجسمها الحقيقي من خلال الصورة المضحكة وهي تغمض عينيها حينما تجاوزت المرآة.

لا تدري لماذا هي تحتاج إلى أن ترى نفسها إلى هذه الدرجة. هذا شيء يحز في داخلها ويكاد يؤلمها، وحينما تكون قد سارت طويلًا في الشارع دون أن ترى إلا صورتها الرمادية في المرآة، أو وجهها المشوه في مرايا السيارات العاكسة، تبحث عن مرآة حقيقية، أينما تكون، في مدخل عمارة، أو أمام صالون حلاقة. فتذهـــب إلى المرآة وتتوقف، وتطيل النظر، بشراهة، دون أن تتحرك، دون أن تتنفس تقريبًا، وعيناها مثبتتان في عيني الأخرى، لدرجة الدوار.

لا ترى الشمس بسبب السحب الرمادية، ولكن كريستين تشعر بأن الوقت متأخر. والليل على وشك الهبوط الآن، ليس بسرعة، صاعدًا حذو وادي النهر، مع الريح. لكن كريستين لا تريد أن تعود إلى البيت. ففي البيت، الشقة ذات الجدران الضيقة القذرة، ورائحة المطبخ الثقيلة المقرفة مع ضجيج

جهاز التلفاز، وصياح الجيران وضوضاء الأواني، والضوضاء التي تدوي على السلالم الأسمنتية. وباب المصعد الذي يصر ويرتطم من طابق إلى طابق. كذلك تفكر كريستين في أبيها، أبيها الجالس أمام جهاز التلفاز بخديه اللذين لم يحسن حلقهما وشعره الأشعث؛ وتفكر في أختها الصغرى، ووجهها الشاحب وعينيها المحاطتين بهالة سوداء، ونظرتها الخبيثة لطفلة في العاشرة من عمرها. تفكر فيها بشدة لدرجة جعلتها تقطب ما بين حاجبيها وتهمهم ببعض الكلمات دون أن تدري ما هي بالضبط، أو من مثل «هيا»!. وتفكر أيضًا في أمها بوجهها المتعب، وشعرها المصبوغ، وأطرافها وبطنها الثقيل، وصمتها الثقيل أيضًا، كأنما هناك أشياء كثيرة تراكمت أشبه بالدهون الضارة.

الحقيقة أن كريستين لا تفكر حقيقة في كل ذلك، وإنما تمر عليه سريعًا، صور، وروائح، وأصوات تتدافع بقوة وسرعة لدرجة غيّبت مشهد مواقف السيارات والجدران ذات الثلاثمائة نافذة متماثلة. حينئذ تتوقف وتغلق عينيها أمام هذا البلد شديد البياض، هذا البساط من الملح، من الجليد.

وتهب عليها الريح الباردة من جديد. أمامها، أسفل العمارة العملاقة، يوجد مقهى ميلك بار. هنا تحب كريستين أن تأتي لتمضية الوقت حينما تخرج من المدرسة وقبل أن تعود إلى البيت الضيق وأبيها وأمها الصامتة ونظرة أختها الماكرة. تصعد السلالم وهي تشعر بالبهجة وتدفع الباب الزجاجي وتشم الرائحة التي تحبها، رائحة الفانيليا، والقهوة والسجائر. اليوم لا يوجد أحد في الميلك بار. لقد ذهب

الجميع إلى المدينة الكبرى للنزهة على شاطئ البحر، أو إلى الجبل بالدراجات البخارية. لا يوجد سوى صاحب الميلك بار وهو رجل ثخين بنظارة، جالس خلف منضدته يقرأ الصحيفة. مائل على الصحيفة يقرأ كل سطر بكل اهتمام لدرجة أنه لا يتنبه لوجود كريستين حينما تدخل وتجلس بجوار النافذة إلى طاولة من البلاستيك.

ماذا يقرأ يا ترى بكل هذا الاهتمام؟ ولكن كريستين لا تفكر في ذلك، فسيان بالنسبة لها. هي تحب أن تجلس هنا ومرفقاها فوق الطاولة تتطلع إلى الخارج من خلال الزجاج.

الآن، الليل على وشك الهبوط. ففي الشارع الخالي، تحت السماء الرمادية، يتقدم الظلام ببطء، ويستقر. من آن لآن يمر شخص على قدميه وينظر داخل الميلك بار ثم يستأنف طريقه. وتود كريستين أن تعرف الساعة لكنها لا تجرؤ أن تسأل صاحب المقهى الذي يواصل قراءة الصحيفة كلمة كلمة كأنه لا يتمكن من فهم ما يقرأ.

ثم مرت كاتي أمام الميلك بار، وعرفت كريستين ولوّحت لها ودخلت مندفعة إلى المقهى، وهي ترفع صوتها بحيث انتبه الرجل. كاتي أطول من كريستين وأضخم منها، وجهها مليء بالبقع الحمراء وشعرها أسود مجعد. هي أيضًا أكبر سنًا من كريستين. ويبدو أنها في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمرها. ولكن يبدو أن كريستين مساوية لها في العمر بسبب ملابسها والكعب العالي وكذلك المساحيق. وينهض صاحب المقهى تاركًا منضدته ويقبل على الفتاتين قائلاً: «ماذا تشربان»؟ فقالت كاتي: «قهوة»، وقالت كريستين:

«قهوة باللبن»، وظل الرجل ينظر إليهما في انتظار أن تقولا شيئًا آخر. ثم همهم قائلًا: «حسنًا. ولكني سأغلق البار بعد عشر دقائق» هكذا هي كاتي دائمًا: تتكلم أكثر من اللازم، وأسرع من اللازم وتأتي حركات أكثر من اللازم. وهذا يشبع كريستين قليلًا، وبخاصة أنها لم تأكل منذ الصباح، وأنها سارت طوال النهار في الخارج في الشوارع الخالية والميادين، وعلى شاطئ البحر. كذلك فإن كاتي تغتاب الناس جميعًا، هي بالفعل لسان عقرب، وهذا يدير الرأس أشبه بآلة تدور بسرعة خارقة.

من حسن الحظ أن الليل هبط في الخارج. وبالرغم من التحذير الذي أعلنه صاحب المقهى، فإنه لم يبد عليه أنه يريد أن يغلق المقهى حالًا. فهو لايزال يقرأ صحيفته، ولكن بدرجة أقل من الاهتمام، وهو يرفع رأسه من آن لآخر لينظر إلى الفتاتين. وتلقي كريستين نظرة نحوه، فتفاجأ به ينظر إليها بعين لامعة. فتشمر بالخجل، وتدير رأسها بسرعة نحو زجاج الباب.

وفجأة تقول لكاتي «هيا، نذهب!» وبلا انتظار، تضع ثمن القهوة باللبن فوق المنضدة البلاستيكية وتخرج. وتلحق بها كاتي أسفل السلم: «ماذا بك = تريدين العودة إلى البيت»؟ فتقول كريستين: «لا، لا شيء!»

ولكنها الآن وهي في الخارج، تدرك أنها يجب أن تفكر من جديد في الشقة ذات الجدران القذرة، والتلفاز الذي يتحدث وحده، ووجه أبيها، وأمها المتعبة، ونظرة أختها. وقالت كاتي: «حسنًا، سلام، أنا سأعود إلى البيت». وبدا عليها الضيق فجأة. وتود كريستين أن تستبقيها، فتشير

لها وتقول: «اسمعي، هل...؟».

ولكنها لا تدري ماذا تقول. الليل بارد، الريح تهب. وترفع ياقة سترتها الزرقاء، وتأتي بحركة بيدها وتتصرف وهي تجري. وتراها كريستين وهي تدخل العمارة المقابلة وتنير نور السلم. وتنتظر لحظة أمام أحد أبواب الطابق الأرضي. ثم يفتح الباب، ويغلق. اختفت كاتي.

وتسير كريستين في الشـــارع بضع خطوات حتى زاوية موقف السيارات. تلوذ بأحد الجدران في منطقة مظلمة. برودة الليل تجعلها ترتعش، بعد حـــرارة المقهى المعطرة. الســـماء الرمادية أصبحت وردية منيرة من جهة المدينة الكبرى، مع وجود الخط القاتم الذي يعلو مداخن مصنع حرق الموتى. لا توجد ضوضاء، أي ضوضاء ذات معنى. كل ما هناك ضجيج السيارات المكتوم والشاحنات. هناك فوق جسر الطريق السريع، وضوضاء الرجال والأطفال داخل الشقق أو الصوت الأخن الذي يصدر عن أجهزة التلفاز.

لا تريد أن تدخل عند أهلها، ليس بعد. تريد أن تظل مكانها جامدة، مستندة بظهرها إلى الجدار البارد، تتطلع إلى الليل، إلى السماء الرمادية، إلى الجدران العالية البيضاء حيث مئات النوافذ المنيرة. والسيارات الجامدة في المواقف، تحت المصابيح، والشاحنات المتوقفة في الشارع، وأنوار المدينة الكبرى التي تضيء كنجوم كابية. تريد أن تسمع ضوضاء الحياة المختلطة داخل الشقق، تسمعها جميعًا مرة واحدة، وتشعر ببرودة الليل. وتمكث طويلًا على هذا النحو، جامدة لصق الجدار، حتى جمّد البرد ساقيها وذراعيها وكتفيها. نقاط الرطوبة تلمع فوق سترتها البلاستيكية البيضاء وفوق

حذائها البوت.

حينئذ تستأنف سيرها في الشوارع الخالية وهي تلف حول المجمعات السكنية. لا تعلم كثيرًا إلى أين تذهب. أولًا نحو مبنى المدرسة، ثم تعبر حديقة الأطفال الصغيرة وهي تهبط الطريق، ثم تصعد الحارات حيث المنازل الخربة المهجورة في حدائقها الجرداء. تجعل الكلاب الصغيرة تنبح خلف القضبان الحديدية، وهناك قطط سوداء تجري أمامها تحت السيارات المتوقفة.

وحينما تصل المجمعات السكنية التي تشبه عمالقة واقفين وسط الأرض ومواقف السيارات، تشعر من جديد بنور المصابيح البارد الرطب فيقشعر جسمها.

حينئذ يقبل ضجيج الدراجات البخارية نحوها بسرعة فائقة. تسمعه يفرقع بين العمارات دون أن تدري من أين يأتي بالضبط؟ أين تذهب؟ وتود كريستين أن تختبئ لأنها واقفة في منتصف الشارع الكبير ونور المصابيح ينيرها بطريقة فجة. فتأخذ في الجري نحو أقرب عمارة وتلصق ظهرها بالجدار في اللحظة التي تمر فيها مجموعة الدراجات بكل سرعة في الشارع. ستة أو سبعة عليهم أقنعتهم من الخوذات، يرتدون قمصانًا من الجلد الصناعي الأسود فوق دراجاتهم البخارية تريال المليئة بالوحل. تراهم كريستين يلفون عند المفترق وتسمع ضجيج الدراجات الذي يبتعد ويختفي.

فجأة، تشعر بالخوف. لا تدري بالضبط مصدر الخوف، لكنه فيها، مثل القشعريرة، وأيضًا من حولها، في صمت الشوارع الخالية، والعمارات العملاقة ذات المئات بل الآلاف

من النوافذ، في نور المصابيح البرتقالي، في الريح الباردة التي تصعد بطول الوادي حاملة الرائحة النفاذة الكريهة، رائحة الدخان وجلبة الطريق السريع. خوف غريب غير واضح، يطبق على حلق كريستين ويبلل بالعرق ظهرها وراحة يديها، بالرغم من البرد.

تمشي بسرعة الآن؛ محاولة عدم التفكير في شيء. ومع ذلك وفجأة، تتذكر نظرة صاحب الميلك بار الحادة فيأخذ قلبها في الخفقان أسرع، كأنها لاتزال تشعر بهذه النظرة عليها، ترصدها في الظلام. لعله هنا، حقًا. وتذكر أنه كان على وشك أن يغلق المقهى، ونظر إليها بعد أن خرجت وكانت واقفة في الشارع.

وفجأة، ومن جديد؛ جاءت الدراجات البخارية. في هذه المرة لم تسمعها وهي تأتي، فقد وصلت في اللحظة نفسها التي سمعت فيها ضجيجها. فلعلها وصلت ببطء وهي تلف وتتعرج داخل موقف السيارات متلصصة بين السيارات المتوقفة حتى تفاجئها.

الآن كريستين تقف جامدة في موقف السيارات، تحت نور المصابيح الأصفر الذي يلمع فوق شعرها الأشقر، فوق سترتها البلاستيكية البيضاء وفوق حذائها البوت، فيما تدور الدراجات في بطء من حولها. أما راكبو الدراجات فوجوههم تحت أقنعة خوذاتهم، ولكن أحدًا منهم لا يبدو أنه ينظر إليها، ولكنهم بكل بساطة يلفون حولها وهم يعطون دفعات لدواسة البنزين فيضغطون عليها في دفعات صغيرة تجعل الدراجات تندفع، ويحركون نور الكشافات والنور الأحمر. وكلما يدورون يضيقون حلقتهم على الفتاة، والآن يتحركون

قريبين منها جدًا بحيث تستطيع أن تشعر بسخونة الهواء الخارج من الشكمانات. وتلزم كريستين مكانها جامدة وقلبها يخفق وساقاها خائرتان. وتتطلع من حولها نحو العمارات العالية، لكن الجدران عالية شاهقة، والنوافذ المنيرة كثيرة، وفي مواقف السيارات، السيارات المتوقفة كثيرة وهياكلها ملأى بالانعكاسات! الضجيج البطيء العميق الصادر عن الدراجات التي تدور يهز الأرض، يهز جسمها كله ويملأ رأسها. وتشعر بساقيها ترتعدان من تحتها ويستولي عليها نوع من الدوار. حينئذ، وفجأة، وفي صرخة عالية، تنطلق أمامها وتجري بكل ما تستطيع من سرعة عبر موقف السيارات.

لكن الدراجات لاتزال وراءها، ثم تدور حول السيارات المتوقفة وتعود إليها وهي تعميها بكشافاتها وتضغط في دفعات على دواسات البنزين، وتجعل زئير الدراجات يدوي ويطن.

لكن كريستين لا تتوقف، بل تجتاز أحد مواقف السيارات ثم تجري بحذاء الشوارع الكبرى وتحاذي جدران العمارات، وتعبر المساحات المغطاة بالحشيش الأجرد. تجري بكل سرعة بحيث إنها لم تعد تستطيع تقريبًا أن تتنفس، وجعلت الريح الباردة تسيل دموعًا على خديها. ومن فرط ما جرت، لم تعد تعلم أين هي الآن، فهي لا ترى حولها، وعلى مدى البصر، سوى الجدران البيضاء العالية. جدران العمارات المتشابهة، ومئات بل وآلاف النوافذ المتشابهة، والمواقف بسياراتها المتوقفة، والشوارع التي تنيرها المصابيح البرتقالية، والخرائب المغطاة بالعشب القذر. بعد ذلك، وكما جاءت الدراجات

البخارية، فقد اختفت. ومن جديد، عاد الصمت الثقيل والبرد والفراغ، يستولي على مدينة H.L.M. وتستطيع كريستين أن تسمع من جديد السيارات البعيدة بضجيجها وهي تدور هناك فوق الجسر الكبير الذي يعبر النهر.

ترى أين هي؟! دون أن تدري كيف. ساقاها وهي تجري قادتاها حتى العمارة التي تسكن فيها. وترفع بصرها تبحث عن نوافذ الشقة حيث يوجد أبوها وأمها وشقيقتها الصغرى. منذ ستة أشـــهر وهي تســـكن هنا. لكنها يجب أن تنظر طويلًا قبل أن تعرف النوافذ الثلاث التي يوجد بجوارها أوعية الجيران. النافذتان الكبيرتان الخاصتان بالحجرة الكبيرة منيرتان، فأبوها يجلس فيها على الكرسي الخاص به، يشاهد التلفاز وهو يأكل. الآن، كريستين مرهقة، وهي سعيدة تقريبًا لأنها تعود إلى الشقة الضيقة وتشم رائحة الطعام الثقيلة، وتسمع صوت التلفاز الزنان. تصعد درجات السلم، وتدفع باب دخول العمارة وتضع يدها على مفتاح نور السلم. ها هم في انتظارها، كلهم، بقمصانهم السوداء وخوذاتهم التي تلمع في نور السلم.

لا تستطيع أن تصرخ. لأن شيئًا ما يسد حلقها. وساقاها لا تقويان على الحركة. واقتربوا. أحدهم وهو طويل يرتدي قميص طيار وخوذة برتقالية، يأخذها من ذراعها. فتحاول أن تخلص نفسها، وتفتح فمها وتهم بالصراخ. فيضربها بكل قوته بقبضته في بطنها حيث ينثني الجسم نصفين ويتوقف التنفس. ويسحبونها نحو الباب المجاور للمصعد ويهبطون السلم الأسمنتي الذي يرن. وتسمع ضوضاء التلفاز في الطابق الأرضي، وضجيج الأواني، وصياح الأطفال. تحت الأرض،

النور الرمادي يأتي من مصباحين في منتصف مواسير المجاري. ويتقدمون بسرعة، يسحبون جسم كريستين، يكادون يحملونها. لا يقولون شيئًا. يفتحون بابًا. فإذا بكهف، بالكاد أربعة أو خمسة أمتار مربعة من الأسمنت الرمادي، بعض الصناديق. وعلى الأرض مرتبة قديمة. يلقون بكريستين أرضًا. ويوقد أحدهم شمعة في عمق الكهف فوق طبق قديم. الكهف من الضيق بحيث يقفون ملتصقين. وفي الخارج، ينطفئ نور السلم ولم يعد هناك سوى نور الشمعة الذي يتراقص. وتسترد كريستين تنفسها. وتسيل دموعها فوق خديها فتلخبط الريميل والماكياج. وتصطك أسنانها.

«اخلعي ملابسك»

ويدوي صوت الشاب الطويل في الكهف، صوت حاد وأجش لا تعرفه كريستين. تسقط في قاع بئر متجمدة وسوداء، استمر ذلك طويلًا لدرجة أنها لم تعد تدري ماذا جرى.

ثم، تهتز الشمعة أكثر قليلًا وتغرق في مادة الشمع. حينئذ يتوقف كل شيء. يسود الصمت، والبرودة من الشدة بحيث إن كريستين تتكور على نفسها فوق المرتبة، ثم يغشى عليها.

حينما يعود النور الكهربي، ترى باب الكهف مفتوحًا وركاب الدراجات واقفين في الممر. تعرف أن كل شيء انتهى. فتنهض وترتدي ثيابها، وتخرج من الكهف يدفعونها أمامهم في السلم الأسمنتي. وفي المدخل، بقي كبيرهم وحده بخوذته وقميصه، قميص الطيار. وقبل أن ينصرف، يميل على كريستين ويحط يده فوق رقبتها. فتقول كريستين: «قذر!» ويرتعش صوتها من الغضب والخوف. لكنه يضغط بيده على كتفها.

«لو تكلمت فسنقتلك»

تجلس كريستين في الخارج فوق درجات السلم. وتظل طويلًا في مكانها، بلا حراك، حتى تفقدها البرودة كل إحساس، وحتى تغطيها عتمة الليل، وتهدئ من ألم بطنها وجروح شفتيها. ثم تخرج إلى موقف السيارات وتبحث عن سيارة متوقفة بمرآة قلابة، وبكل هدوء، وبهمة طفلة صغيرة، تمسح الريميل من عينيها وتبسط صبغة خديها المزرقين.

السيد بريتشارد

تأليف: دنيس جونسون ديفز
ترجمة: كامل يوسف حسين

دوى رنين الهاتف، وتساءل صوت مرتعش عمّا إذا كنت موجودًا، فقلت: «هأنا أحدّثك»، وانتظرت. بعد لحظة صمت، أبلغني المتحدث بأن اسمه بريتشارد وأن مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية قد أعطته اسمي باعتباري شخصًا يعطي دروسًا في اللغة العربية.

«كان ذلك منذ بعض الوقت»، قلت هذا لأنني أصبحت أعتقد أن التدريس من أقل سبل كسب العيش مردودًا على الصعيد المادي.

أوه، كنت آمل.. قرأت أخيرًا مقالك عن القصة القصيرة العربية، وتمنيت لو أن...

بما أنه لم يواصل حديثه، فقد اضطررت لقطع الصمت، وسألته عن مستواه في اللغة العربية.

قال: «أوه، مجرد هاوٍ متحمس. بمقدوري تصفح جريدة بكثير من الصعوبة بالاستعانة بقاموس - إنني أستخدم قاموس وير، وآمل أن توافق على أنه أفضل قاموس متوافر - ولكنني غالبًا

ما أجد عبارات أو جملًا بكاملهـــا يراوغني معناها..»، كانت لديه عادة التوقف فجأة في وسط الجملة وترك عبء مواصلة الحديث يقع على كاهل من يستمع إليه. وقبل أن أدرك جليّة الأمر، كنت قد وافقت على أجر بالساعة لقاء درسين أسبوعيًا، في يومي الإثنين والخميس، ابتداء من الإثنين المقبل. وما إن أعدت السماعة إلى مكانها حتى ساورني الشعور بالندم على الموافقة.

عندما أطل السيد بريتشارد عند باب الشقة، في السادسة من يوم الإثنين، بدا أكثر إيغالًا في العمر مما أوحى به صوته عبر الهاتف. كانت شقتي في الطابق الثاني، وليس لها مصعد، وعندما لبيت نداء جرس الباب، بدا عليه مظهر من يوشك على دفع ثمن الإجهاد المبالغ فيه لنفسه.

«بريتشارد».. قالها بأنفاس لاهثة، ومدّ يدًا كالمخلب مصافحًا. وقال في التو، وهو يغوص في مقعد ذي مســند: «أمر طيب للغاية منك أن توافق على إعطائي دروسًا. وآمل ألا أكون قد بدوت ملحًا أكثر من اللازم».

غمغمت بشيء في معرض الرد، وجلست في المقعد ذي المسند الآخر الذي كانت إلى جواره منضدة صغيرة رتبت عليها كومة من الكتب العربية وصحيفة حديثة. وتطلعت إلى تلميذي، وخمنت أنه في أواخر السبعينيات أو أوائل الثمانينيات من العمر.

ورغم أنه مديد القامة ووثيق البنية، فإنه بدا موحيًا بالهشاشة، ولاحت بشرته كما لو كانت قد شُدت بإحكام عبر المجال بين عظمة والتي تليها. دهشت إزاء الجهد الذي كان قد بذله للقدوم عبر لندن من الفندق الذي أبلغني أنه ينزل فيه، والمطل على شارع كروميل.

قال كأنما كان يقرأ أفكاري: «عندما أخرج من معقل فندقي هذه الأيام، فإنني أستفيد من خدمة سيارات الأجرة الممتازة في لندن. وهو ترف بسيط أسمح لنفسي به، تنازل أمام سنواتي الموغلة في مسيرتها .. يالها من عبارة مثيرة للسخرية (الموغلة في مسيرتها) كأنما السنوات يقدّر لها التراجع أبدًا!». ضحكنا كلانا، ثم مررت الصحيفة إليه، وطلبت منه أن يقرأ بصوت عال الفقرة التي كنت قد حددتها، وبهذه الطريقة سأتمكن عاجلًا من تحديد مدى معرفته باللغة. ودهشت إزاء الدقة التي قرأ بها، بل إنه نطق العديد من الأصوات اللينة في أواخر الكلمات على الوجه الصحيح. غير أن حديثه المتداخل أصبح أكثر وضوحًا عندما تكلم بالعربية، وكان من المتعذر عليّ متابعة ما يقوله. وتوقف من تلقاء نفسه، ونحى الصحيفة جانبًا.

أبلغني بقوله: «قبل عام أو عامين، تعرضت لسكتة دماغية محدودة، وهذا جعل نطق حروف عربية معينة أكثر صعوبة بالنسبة إلي، دع جانبًا أنني لم أتملك قط ناصية نطق بعض هذه الحروف حقًا». قلت محاولًا ألا أبدو بمظهر المتعالي: «لديك تمكن جيد على نحو غير مألوف من ناصية هذه اللغة».

«أوه، لا، إنني على تمام الوعي فحسب بالثغرات الموجودة في معرفتي.. على أي حال، أليس لدى العرب تعبير يفيد بأن الكمال لله وحده؟ قلت: «أصبت».

«لم أحظ حقًا بالتغلب على صعوبة هذه اللغة في الجامعة، وهي أصعب من أن يدرسها المرء معتمدًا على نفسه، على نحو ما حاولت القيام به في هذه السنوات القليلة الماضية. وبالطبع، في الخدمة السياسية بالسودان - حيث عملت - يتعين على المرء أن يتعلم من اللغة العربية ما يكفي لتدبر أمره، وفي حقيقة

الأمر، فإن المرء كان عليه خوض سلاسل من الامتحانات قبل الحصول على ترقيته، ولكن لم يكن هناك الكثير من التشجيع - أو الوقت حقًا - لتملك ناصية دقائق العربية الفصحى».

ثم روى لي أنه كان لديه كاتب يدعى عبده إبراهيم، وكان معجبًا أشد الإعجاب بالشاعر أبي نواس الذي اشتهر بخمرياته. ويبدو أن عبده إبراهيم كان معتادًا على العكوف على الشراب كذلك، وغالبًا ما اضطر السيد بريتشارد إلى تجاهل وصوله إلى العمل في أسوأ هندام.

استند إلى ظهر المقعد، وبعينين مغمضتين أنشد في عربية طنانة بيت أبي نواس الأكثر شهرة:

دع عنك لومي، فإن اللوم إغراء

وداوني بالتي كانت هي الداء

عقب بحماس قائلًا: «هذا هو الشعر!»، ثم أضاف: «حاولت أخيرًا قراءة بعض مما يسمى بالشعر الحديث، فوجدته مما يصعب فهمه، وما فهمته لم يؤثر فيّ كثيرًا».

قلت إنني أميل إلى الاتفاق معه، ثم ذكرت نفسي بأنني المدرس، وأن الدرس خرج عن نطاق السيطرة، وأنه في حقيقة الأمر لم يبدأ إلا بالكاد، وقد أوشكت الساعة الآن تقريبًا على الانتهاء. وصممت على أننا في الدرس المقبل سنبدأ العمل على نحو جدي، وتبينت منه أنه لم يعرف بأمر السيرة الذاتية المبهجة، التي أنجزها الدكتور طه حسين، ومن هنا فقد أبلغته بأننا سنتصفح معًا المجلد الأول، وهو المجلد الذي يتناول طفولته في قرية بصعيد مصر. وكان على السيد بريتشارد القيام بإعداد صفحات عدة، ثم نقوم بتصفّحها خلال درسنا، وأبلغته بأن هذا الكتاب يمكن الحصول عليه من مكتبة أو أخرى من

مكتبات شارع راسل.

رغم أن تقدمنا اللاحق في سيرة طه حسين الذاتية كان وئيدًا فإنني أعتقد أننا كلينا قد استمتعنا بهذه التجربة. وكانت القراءة تتخللها أسئلة عدة من السيد بريتشارد حول دقائق النحو والأسلوب شديد الخصوصية والمتردد على نحو جذاب الذي استخدمه المثقف الضرير، وحول تفاصيل أواخر حياة الرجل العظيم وكتاباته الأخرى. وقد غدوت أدرك أن الدروس بالنسبة إلى تلميذي كانت تعني ما يتجاوز مجرد الإضافة إلى حصيلته من اللغة، حيث كانت معلمًا مهمًا في أسبوعه الخالي من الأحداث.

كان حريصًا بصورة مفعمة بالتدقيق على ألا يأخذ من وقتي أكثر من ساعة، كان معه على الدوام المبلغ المحدد في ظرف يتركه في تلطف على المنضدة قبل أن ينبعث واقفًا.

ثم سألته، ذات مساء بعد انتهاء ساعتنا عمّا إذا كان يريد قهوة، فنجانًا من القهوة التركية، فالتمعت عيناه، وهو يسأل: «هل لديك كنكة؟».

«نعم، لديّ كنكة».

«ومن أين أفلحت في ابتياع النوعية الصحيحة من البن؟».

أبلغته بأن هناك عددًا من الأماكن في سوهو وغيره من الأحياء.

ارتشف من قدح القهوة مبتهجًا. قال وظل من الماضي يدف عبر محياه العجوز: «إنها تعود بي إلى الأيام الخوالي». للحظة خلت أنه بسبيله إلى استحضار الذكريات، ولكن بدا أنه يكبح جماح نفسه. أدركت أن القهوة كانت أكثر سخونة من أن تشرب إلا في حسوات متباعدة، فسألته عما إذا كان يتذكر التعبيرات

عن درجات الحلاوة التي يمكن للمرء أن يطلب أن تقدم القهوة بها. وقد منحه سرورًا عظيمًا على نحو جلي أن يعتصر ذاكرته بحثًا عن الكلمات المختلفة التي تستخدم في هذا الصدد.

«وبالنسبة إلى القهوة الخالية تمامًا من السكر؟».

تردد ثم قال ظافرًا: «سادة»، وانبعث واقفًا، معتذرًا عن أخذ الكثير من وقت، ووضع الظرف المعد إلى جوار فنجان القهوة.

مع استمرار الدروس، كنت أحرص على تخصيص ربع الساعة الأخير لشربنا القهوة معًا. وفي بعض الأحيان، ربما بسبب نقطة لغوية تكون قد برزت في غمار الدرس، كنت أسأله عن جانب من جوانب الحياة في السودان، وعلى نحو يوشك أن يكون بمنزلة اعتذار كان يسرد طرفة خطرت على باله. ذات مرة عقب بقوله: «كان المرء في تلك الأيام يشعر بأنه في قلب الحياة، وليس.. وليس...». وبسبب افتقاره إلى الكلمات المناسبة أو حتى لا يضايق نفسه (أو يضايقني) اكتفى بشبك يديه الكبيرتين أمامه في إشارة تعبّر عن نزعة نهائية جهمة.

بمرور الوقت أحسست بنفسي في قرارة ذاتي، وقد اضطلعت بدور أكثر أهمية في حياته الجافة، دور شعرت بأنني غير راغب فيه، وغير مؤهل للقيام به. وفي الوقت نفسه أيضًا كنت على وعي بولع متزايد بالرجل العجوز الذي حدثت نفسي بأنه إلى جوار كونه أكبر مني بأجيال عدة، فإنه مختلف عني أشد الاختلاف.

كنا قد قطعنا حوالي منتصف الشوط في قراءة المجلد الأول من سيرة الحياة الذاتية لطه حسين، عندما قال فجأة: «أتذكر أن صديقًا سودانيًا من أصدقائي قال لي ذات مرة إنه لو لم

يولد سودانيًا، فإنه كان يود أن يكون إنجليزيًا، وقد كان رجلًا استثنائيًا - رجلا مثل طه حسين علا شأنه صعودًا من بدايات متواضعة - ونظرت إلى ذلك باعتباره مجاملة عظيمة لنا، وأجبته على نحو مماثل بأنني لو لم أكن إنجليزيًا لوددت أن أكون سودانيًا. ولم تكن هذه مجاملة جوفاء من جانبي، وإنما كنت أعنيها. فقد أحببتهم وأعجبت بهم كثيرًا، وبدا لي على الدوام أمرًا مؤسفًا أنهم والإنجليز لم يكن بوسعهم التقارب على نحو أكبر من مغادرتنا البلاد».

أزال بعض ثقل البن عن فمه بأحد أصابعه، وحك إصبعه بجانب طبق فنجان القهوة، قائلا:

- «لو أني كنت أحظى بأي نوع من الشجاعة - أعني الشجاعة الحقيقية، وليس النوع الذي يمنحون الأوسمة من أجله - لواصلت البقاء في السودان. ففي نهاية المطاف، هناك استقر فؤادي... وبدلًا من التقاعد والتحول إلى رجعي عجوز ينهي أيامه في فندق مطل على شارع كرومويل، حيث كل ما هنالك جسر، وقيل وقال. كان ينبغي أن أترك الخدمة وأن أبتاع لنفسي بضعة فدادين من الأرض، ودارًا قروية صغيرة في مكان ما، وكان بمقدوري عندئذ أن أجد لنفسي فاطمة أو زينب حسناء، وإذا كان معنى ذلك اعتناق الإسلام، فما هو الأمر المفزع للغاية في ذلك؟ بمقدوري التفكير فيما هو أسوأ كثيرًا من أن أصبح مسلمًا ورعًا ينهض مع الفجر ليؤدي الصلاة الأولى من صلوات اليوم».

رمقني بنظرة مصارحة من تحت حاجبيه الكثيفين، وأضاف: «لاشك في أن فاطمتي كانت ستدفعني إلى حتفي في وقت مبكر - فالسودانيات معروفات بعنفوانهن - ولكن من العبث قياس الحياة بالسنين... إن الحقيقة المحزنة هي أن المرء يمكن

أن يحيا وقتًا أطول مما ينبغي، يمكن أن يعيش إلى ما يتجاوز عمره الذي ينبغي أن يحياه».

كشفت نظرة مختلسة إلى ساعتي أننا قد تجاوزنا وقتنا بعشر دقائق، وساورني الشعور بأنه نادرًا ما تحدث بمثل هذه الصراحة إلى أي شخص، وأنه بعد أن تغلب على تردده الطبيعي في الحديث عن نفسه، فإنه يود الاستمرار، وكنت بدوري يجري إطلاعي على جانب آخر من العجوز، وأحسست بأن وقتي لا يجري تبديده من خلال الإصغاء إليه.

أشرت بقولي: «ليس هذا بالشيء الذي يقدم عليه عضو في الخدمة السياسية بالسودان!»

أشار مشددًا على قوله: «أوه، كان حريًا بالإنجليز أن يكرهوا الأمر! وكان يمكن أن يقولوا في نواديهم المختلفة: «جعل بريتشارد العجوز المسكين نفسه واحدًا من أهالي البلاد». ولكن ما الذي كان يمكنهم القيام به في هذا الشأن؟ لا شيء... وإذا كان هذا هو ما أردت فعله ببقية عمري، فقد كان ينبغي علي المضي قدمًا وتنفيذه، إن معظمنا أكثر تخوفًا مما قد يقوله الجيران من أن يقدموا على شيء ينظر إليه على أنه غير تقليدي. ومثل هذا الجبن - كل هذا الجبن - يدفع ثمنه غاليًا».

حدّق أمامه حالمًا لبعض اللحظات، وقد نسي وجودي في ما يبدو، ثم استجمع نفسه، وانبعث واقفًا، وخرج للبحث عن سيارة أجرة تقله.

ذات يوم، وبينما كنت أقلب بعض أرفف كتبي، عثرت على نسختين من كتاب دراسي للغة العربية كنت قد ألفته وأصدرته في القاهرة قبل سنوات عدة.

أبلغته في ختام زيارته التالية بقولي: «حسبت أنك ستود أن

تحصل على نسخة من هذا الكتاب» وقدمتها إليه. أخذها بما يكاد يكون توقيرًا. وقال: «هل أنت واثق من أنه يمكنك الاستغناء عنها؟»، وتطلع إلى صفحة الغلاف الداخلي، وقال: «هل لك أن تكتب لي شيئًا فيها؟».

لم يكن قد خطر ببالي أنه قد يتقدم بمثل هذا الطلب، وللحظة غاب عني ما يمكن قوله، ثم استعرت منه قلمه، وكتبت: «إلى السيد بريتشارد عربونًا للصداقة» ووقعت النسخة وأضفت التاريخ.

قرأ ما كتبته، وابتسم: «هذا جميل منك للغاية، لسوف أعتبره بمنزلة كنز».

انبعث واقفًا، وصافحني.

قلت: «إلى اللقاء يوم الإثنين».

رد قائلًا: «إن شاء الله» وكان حريصًا في ذلك، شأن مسلم ورع، على عدم الحديث عن أي شيء في المستقبل إلا بعد إضافة هذه العبارة.

كررت قوله: «إن شاء الله».

ولكن مشيئة الله قضت ألا يكون لنا درس آخر، ففي يوم الإثنين، وقبيل الساعة السادسة، دوى رنين الهاتف، وأبلغني صوت هادئ بأن المتحدثة هي مديرة فندق كينجسلي، وأن سير هيو بريتشارد قبل نقله إلى المستشفى بعد إصابته بنوبة قلبية كان قد طلب أن تقوم بالاتصال بي هاتفيًا لتقول إنه لن يكون بمقدوره مواصلة دروسه.

- يؤسفني القول إن سير هيو قضى نحبه في سيارة الإسعاف في طريقه إلى المستشفى. ولسوف يفتقد كل العاملين هنا هذا السيد النبيل العجوز.

أفردت له صحيفة «التايمز» المرتبة الأكثر بروزًا في عمود الوفيات.

وبعد إيراد تفاصيل حياته العملية المميزة، خلصت إلى ذكر أن زوجته كانت قد توفيت قبل سنوات عدة «في ظروف مأساوية» وأن ابنه الوحيد كان قد قتل في حملة شمال إفريقيا. ورغم ذلك، فإنني أحسب أن قلة من الناس قد شهدوا جنازته. وربما باعتباري خير أصدقائه في وقت وفاته كان يتعين علي بذل جهد القيام بذلك.

(ب.وردز ورث)

تأليف: ف.س.نايبول
ترجمة: د. أحمد هلال يس

ثمة ثلاثة شحاذين كانوا يطرقون أبواب المنازل التي تتسم بالكرم وحسن الضيافة، في شارع ميجل في توقيت دقيق كل يوم. ففي حوالي العاشرة كان يأتي شحاذ هندي يرتدي وزرة قصيرة في خاصرته، وسترة بيضاء، وكنا ندلق ملء علبة صفيح من الأرز في الجوال الذي كان يحمله على ظهره.

وفي الثانية عشرة كانت تهل علينا امرأة عجوز وهي تأخذ أنفاسا عميقة من غليون من الفخار ثم تزفره سحابة من الدخان كثيفة، وكنا ننفحها بـ«سنت».

وفي الثانية كان يجيء رجل أعمى يقوده صبي للمطالبة بنصيبه. وكان يطرق بابنا أحيانا أحد المتشردين. فذات يوم جاءنا رجل يشكو الجوع. قدمنا له الطعام. وبعد أن فرغ منه طلب سيجارة وأصر على عدم الذهاب ما لم نشعلها له، إلا أن هذا الرجل لم يكرر الزيارة قط.

أما أكثر هؤلاء الزائرين غرابة وشذوذا فكان رجلًا وفد علينا

في أصيل أحد الأيام في حوالي الساعة الرابعة بعد عودتي من المدرسة وارتدائي ملابس البيت. قال بصوت رقيق، مفعمة نبراته بالرجاء: أتسمح لي يا بني بدخول فناء منزلك؟

كان رجلا قصير القامة، رقيق الجسم، أنيق الملبس والهندام. كان يرتدي قبعة، وقميصا أبيض، وبنطالا أسود.

سألته: ماذا تريد؟

فأجاب: أن أرقب النحل في الفناء.

ثمة أربع أشجار نخيل صغيرة من فصيلة جرو - جرو كانت مغروسة في الفناء، ويغص أعلاها بجحافل النحل المتطفل.

وثبت فوق الدرجات بلا حرص صائحـــا: ماما.. ثمة رجل بالخارج، يقول إنه يريد أن يشاهد النحل.

خرجت أمي من المنزل، وشـــخصت إلى الرجل ببصرها ثم سألته وقد التوت شفتها السفلى في امتعاض: ماذا تريد؟

فردَّ الرجل: أرغب في مشاهدة النحل.

وقعت لغته الإنجليزية من مسمعي موقع الدهشة والغرابة، إذ كانت من الإتقان في غاية، ولاحت فـــي عيني أمي نظرة ارتياب. قالت مجتاحة بدفقة غضب: امكث هنا جنبه وراقبه وهو يشاهد النحل.

فابتدرها الرجل قائلا: أشكر لك يا سيدتي حسن صنيعك فقد عملت خيرا اليوم.

كان يتحدث بأناة وتؤدة، متوخيـــا الدقة في كل ما يندّ عنه كما لو أن كل كلمة كانت تغرمه ثمنا باهظا.

جعلنا نرقب النحل لمدة ساعة تقريبا، وقد تكوّمنا متقرفصين على كثب من أشجار النخيل.

قال الرجل على سبيل الملاطفة والتودد: إنني أحب مراقبة

النحل. هل تستهويك مشاهدتها؟

فقلت: ليس لدي وقت لهذا.

هزّ رأسه في أســـى ثم قال: إنني أقنع بالمشاهدة فحسب، فبوسعي مراقبة النحل لأيام دون انقطاع. هل حدث أن قمت بمراقبة النمل والعقارب وحشرات «أم أربع وأربعين»؟

هززت رأسي بالنفي. ثم سألته: ماذا تعمل يا سيدي؟ نهض بغتة قائلا بفخار صبياني: إنني شاعر.

فسألته وقد جرفني حب الاستطلاع: شاعر مجيد؟

فأجاب من فوره: أعظم شاعر في العالم.

- ما اسمك يا سيدي؟

- ب.وردز ورث.

- هل ترمز الباء لاسم بيل؟

- كلا... بلاك... اسمي بلاك وردز ورث. أما وايت وردز ورث فقد كان اسم أخي، إذ إن كلينا تقاسم المشاعر والأحاسيس نفسها، ولذا أجدني أغرق في نشيج حار عندما أرقب الزهر يتفتح من أكمامه.

فقلت بصوت لا يخلو من رنة الأسف: لماذا تنخرط في البكاء عندما ترى الزهر؟

فأجابني: إن تساؤلك هذا يثير دهشتي يا بني، ولسوف تعرف الإجابة عندما تكبر. إنك تعرف أنك أيضا شـــاعر، وعندما تكون شاعرا مثلي فسوف تحزن لكل شيء حزنا بالغا وتبكيه مر البكاء.

تكتّمت ضحكة بالعض على باطن شفتي.

ثم واصل متسائلا: هل تحب أمك؟

- عندما لا تضربني.

دسّ يده في جيب بنطاله الخلفي واستخرج ورقة ثم قال: هذه الورقة تحوي أعظم قصيدة نظمت في الأمهات وسوف أبيعها لك بسعر منخفض يعز على التصديق. أربعة سنتات فقط.

هرعت إلى الداخل صائحا: ماما هل تودين شـــراء أشعار بأربعة سنتات؟

صرخت أمي في وجهي وقد أخرجها الغضب عن وعيها: قل لهذا الرجل: اذهب في داهية ولا ترنا وجهك مرة أخرى.

عدت إلى السيد وردز ورث وقلت له بصوت لا يخلو من رنة الأسف: تقول أمي إنها لا تملك أربعة سنتات.

فقال وهو يكابد خيبة أمل: ولذا فإن أي شاعر يبدو مثالا صادقا لليأس والضياع.

دس القصيدة في جيبه دون مبالاة.

قلت بعد تردد: أعجب بها من طريقة لبيع الأشـــعار! كأنك بائع جوّال هل يشتري كثير من الناس أشعارك؟

فأجاب وهو يعاني سكرات الخيبة: إن أحدا لم يشتر نسخة واحدة حتى الآن.

فتساءلت وأنا من العجب في غاية: فلماذا تسرح بها متوقعا لها سوقا نافقة؟

لأن ذلك يتيح لي فرصة نادرة لملاحظة أشياء عدة، كما أنني آمل دوما في مقابلة شعراء مثلي.

تساءلت بريق جاف: هل تعتقد حقا أنني شاعر؟

إنك تنتظم مثلي في ســـلك عالم الشـــعر لؤلـــؤة منعدمة النظير.

بعد أن غادرني وردز ورث تضرعت إلـــى الله ألا يحرمني لقاءه ثانية.

بعد هذا اللقاء بأسبوع في طريق عودتي من المدرسة عصر ذات يوم، لمحته واقفا عند ناصية شارع ميجل.

قال بارتياح وهو يبتسم مشرقًا: إنني أنتظر مجيئك هنا منذ فترة طويلة، فسألته: هل بعت أي أشعار؟

هز رأسه سلبا. ثم قال: بفناء منزلي توجد أفضل شجرة مانجو في بورت أوف سبين. وهي مثقلة بثمار دانية القطوف تسر الناظرين. وقد أتيت لأدعوك إلى تذوّق بعض الثمار.

كان يعيش في شارع ألبرتو في كوخ يتكون من حجرة واحدة يتوسط الفناء المترامي حوله، والمتلفع بخضرة يانعة، وينبثق من أديمه شجرة مانجو ضخمة وشجرة جوز هند وشجرة برقوق.

بدا المكان مهجورا مسربلا بعزلته الوحشية، كما لو كان منقطع الصلة بصخب المدينة من حوله. محاطا بأسوار عالية تحجب المنازل الضخمة في الشارع عن الأنظار.

كان الرجل محقا في إطرائه حلاوة ثماره التي التهمت منها ستًا بنهم وانساب عصيرها الأصفر خطوطا على ذراعي حتى الكوعين، كما انساب من فمي منحدرا إلى ذقني، وانداحت البقع فوق قميصي.

عندما عدت إلى المنزل صاحت أمي مرعدة كالوحوش الضارية: أين كنت؟ هل تعتقد أنك بلغت مبلغ الرجولة وبمقدورك أن تخبط في الشوارع على غير هدى أو تتسكع في الطرقات. هيا أعد لي سوطا لتأديبك.

ألهبتني أمي بالسوط. مرقت خارج المنزل كالهارب وأنا أقسم بأغلظ الإيمان بأنني لن أعود أبدا.

ذهبت إلى منزل وردز ورث، وقد ثارت ثائرتي واستولى علي

الحنق والغيظ. كان الدم يسيل من أنفي.

قال وردز ورث في نبرات حزينة: توقف عن البكاء وسوف نخرج للتريض بالسير. كتمت انتحابي ولكني ظللت ألهث وجعل صدري يعلو وينخفض. قطعنا شـــارع سانت كلير مشيا على الأقدام حتى سافانا، ثم واصلنا السير إلى حلبة السباق.

قال مستوهبا تأييدي: فلنفترش الحشائش ونشخص ببصرنا إلى صفحة السماء التي تنبســـط متبرجة بما لا يحصى من نجومها متأملين بعدها السحيق عن الأرض.

استلقيت على ظهري فوق الحشائش أسرح الطرف في صفحة الســـماء، وســـرعان ما تجلت لي الحكمة وراء قوله. انتابني إحساس بالضآلة حتى كدت أتلاشى، وإن طارت بي نشوة في الوقت نفسه لم أعهدها في حياتي من قبل، وداخلني شعور بالسعادة والتفوق عجيب تبددت معه جميع مشاعر السخط والغضب، وانمحت من ذهني ذكـــرى الدموع والضربات التي انهالت على جسدي.

وعندما أخبرته أنني أشعر بأن الهم قد انزاح عن قلبي جعل يخبرني بأسماء النجوم التي احتفظت ذاكرتي منها على وجه التخصيص بأسماء مجموعة الجوزاء رغم أنني أجهل السبب وراء ذلك، فبوسعي حتى الآن تحديد مواقع نجوم هذه المجموعة إلا أنني نسيت مواقع النجوم الأخرى.

ســـلّط على وجهينا بغتة ضوء كشاف كهربائي يقبض عليه رجل شرطة جعل يصلينا نظرات ملتهبة من عينين متقدتين، انتفضنا قائمين.

- ماذا تفعلان هنا؟

فأجاب وردز ورث: هذا هو السؤال الذي ظل يلح على ذهني

طوال الأربعين عاما الفائتة دون أن أجد له جوابا حتى الآن.

اتحدت علاقتنا في صداقة وطيدة. مـــال على أذني ذات يوم وهمس قائلا: حذار أن تفضي إلى امرئ بسرِّ صداقتنا وتمتعنا بشجرة المانجو وشجرة جوز الهند أو شجرة البرقوق. فإذا بحت هذا السر فسوف أعلم لأنني شاعر.

قطعت على نفسي أمامه عهدا بالكتمان وحافظت عليه.

أحببت حجرته الصغيرة التي لم تكن تحوي قطعا من الأثاث تفوق تلك الموجودة بحجرة جورج الأمامية، وإن بدت أكثر نظافة، بيد أنها كانت تظللها أيضا سحابة من الوحشة.

سألته ذات يوم: لماذا تحتفظ بهذه الشجيرات الكثيفة في فناء دارك؟ ألا تجعل المكان رطبا؟

فقال: سوف أقص عليك قصة: حدث ذات يوم أن تقابل فتى وفتاة ووقع كلاهما في هوى الآخر، عشق كلاهما الآخر لحدِّ الوله فتزوجا. كان كلاهما يقرض الشعر. هام هو بالكلمات هياما، في حين أحبت هي الحشائش والأزهار والأشجار حبّا ملك عليها حواسها وعقلها. عاشا في حجرة يتيمة يرشفان من كئوس السعادة الصافية، إلا أن الفتاة الشاعرة قالت للفتى الشاعر ذات يوم: سوف نرزق بشاعر آخر، بيد أن هذا الشاعر الوليد لم يُقيض له أن يرى نور الحياة، إذ ماتت الفتاة ومات الشاعر الصغير في أحشـــائها. انعقدت سحب التعاسة فوق رأس الزوج وبدت له الدنيا صفراء كريهة لا تحتمل ولا تعاشر، وأقسم بكل مقدس ألا يلمس شيئا في حديقة الفتاة. ولذا امتدت يد الإهمال إلى الحديقة واكتسبت سحنة وحشية.

جعلت أرنو إليه وهو يقص علي هذه القصة الجميلة فلمحت النظرات في عينيه تشيخ وبدا وجهه أكبر من سنه، إلا أن مغزى

قصته لم يغمض عليّ.

كنا نخرج نتريض بالسير فنظل نخبط في الشوارع على غير هدى لساعات طوال. كما ذهبنا إلى حدائق النباتات وحدائق الصخور، وتسلقنا تشانسللور هيل وكنا نلقي ناظرينا إلى الأفق، وقد جعل المغيب يرسل ألوانه الهادئة الرزينة المليئة بالشجن، وقرص الشمس يهبط وديعا أليفا في الشفق وقد استلت منه روح الشـــباب الفائر، وتراءى بورت أوف سبين والليل يهبط من ذروة الأفق، وسرعان ما كانت الأنوار تضيء أرجاء المدينة والسفن الراسية في الميناء.

كان كل ما يند عنه من أفعال يشي بنشوة الحماس التي كانت تتقدح في قلبه كما لو كان طفلا تتفتح عيناه على مسرات الحياة ومباهجها لأول مرة فيحس بموجة من الفرح تغمره وتطير به إلى شاطئ السعادة. كانت كل أفعاله تنضح بحماس الراهب الذي تشتعل جوارحه بنيران مقدسة.

وأحيانا كان يقول وهو يهز رأسه في طرب مفاجئ: ما رأيك في تناول الآيس كريم؟ وعندما كنت أحني رأسي إعرابا عن الموافقة كانت تلوح في عينيه أمارات الجد البالغ متسائلا: ما المحل الذي سوف نتعامل معه؟ كما لو كان أمرًا بالغ الأهمية. بيد أنـــه كان يتفكر هنيهة ثم يقول بغتـــة، وقد دبت في قلبه الحماسة: أظن أنه آن أوان ذهابي لهذا المحل للتفاوض على شراء الآيس كريم.

صفت الحياة من شوائب الكدر ومضت الأيام مترقرقة بالسعد والإقبال.

قال لي ذات يوم وأنا أجالســـه في فناء منزله: سوف أبوح لك بسر هائل.

- هل هو سر حقا؟
- هو سر حتى الآن.

جعلنا نتبادل النظرات في صمت مجلل بالرهبة، ثم غمغم وكأنما يهامس نفسه: إني أنظم قصيدة الآن.

- أوه.... ندت عني بصوت خامل محشرج بالخيبة.

واصل قائلا: بيد أنها قصيدة جد مختلفة. إنها أعظم قصيدة خطها يراع شاعر في العالم بأكمله.

صفرت بفمي بإعجاب قال مجتاحا بدفقة حماس: إنني أواظب على النظم بهمة لا يعتريها الكلل منذ خمس سنوات خلت، وسوف أنتهي من كتابتها بعد حوالي اثنين وعشرين عاما، شريطة أن أواظب على الكتابة بالمعدل الحالي نفسه.

- لاشك أنك تنجز الآن الكثير.

- لم أعد أكتب الآن بالمعدل نفسه عند البداية. فإنني أكتب الآن بيتًا واحدًا كل شهر، إلا أنني أتوخى أن يولد متوهجًا بالتفرّد والعبقرية.

- ما البيت الذي نظمته الشهر الماضي؟

شخص ببصره إلى السماء ثم قال: (إن الماضي موغل في العمق).

فقلت وقد تشعشع رأسي بالنشوة: إنه بيت جدير بانتزاع آهات الإعجاب من الأعماق.

فقال بارتياح ممزوج بزهو: آمل أن أقطر خبرة وحكمة شهر بأكمله في هذا البيت اليتيم. ولذا فإنه عندما تنقضي هذه الأعوام الاثنان والعشرون سأكون قد أبدعت قصيدة تغدق على البشرية جمعاء أعذب الألحان.

ثمل قلبي بالحماس والإعجاب.

واظبنا على الخروج في جولات استكشافية. بينما كنا نسير بحذاء الكورنيش عند دوكسايت في ذات يوم، تساءلت بعد تردد: هل تظن أن هذا الدبوس سوف يطفو عندما أسقطه في الماء؟ فأجاب بصوت لا يخلو من رنة الأسف: إن هذا العالم يتسم بالغرابة. فلتسقط دبوسك في الماء ونرَ ما سوف يحدث.

غاص الدبوس في الماء.

قلت ممهدا لمجرى جديد من الحديث: ما الذي أضفته إلى قصيدتك هذا الشهر؟ بيد أنه لم يتلُ عليّ أي بيت جديد، بل أكد لي فحسب: إن الأمور تسير على خير ما يرام، فلا تقلق، وأحيانا كنا نقتعد سور الكورنيش ونرقب السفن وهي تتهادى إلى داخل الميناء.

انقطع حديثنا عن قصيدته التـــي كان يعدها درة ليس لها نظير في عالم الشعر.

ساورني إحساس مبهم بأن سيما الهرَم تغشاه وأن الشيخوخة الكريهة تنشب فيه الأنياب والأظفار.

سألته ذات يوم: كيف تعيش يا سيد وردز ورث؟

- تعني الحرفة التي أعتاش منها؟

وعندما أحنيت رأسي دلالة الإيجاب، انفجر صدره عن ضحكات بلهاء الرنين ثم قال: إنني أترنم بأشعار تنبعث في نفسي بوحي البديهة أثناء موسم الأغاني الشعبية.

- هل يكفيك ما تكسبه أثناء هذا الموسم طوال العام؟

- نعم... يفي بحاجياتي.

- لكنك سوف تصبح أكثر رجال العالم ثراء عندما تنتهي من نظم أعظم قصيدة في العالم؟!

بيد أنه لم يحر جوابا، وختم على شـــفتيه بخاتم الصمت.

وعندما ذهبت إلى منزله الصغير في ذات يوم وجدته مستلقيا على فراشه الصغير، وقد حل به هزال وذبول فبدا كالطيف. راودتني نفسي على البكاء، وشعرت بقلبي ينتحب في أعماق صدري.

قال بصوت يكاد يطمسه رماد الأمل: إن مشروع القصيدة يتعثّر بالعراقيل والمشـــكلات. كان يتحدث كما لو كان يناجي نفسه، وهو يمد بصره إلى شجرة جوز الهند من خلال النافذة. غمغم وكأنما يهامس نفسه: عندما كنت في العشرين كان يفعم قلبي إلهام التفاؤل والإقدام. أغمض عينيه في إعياء استسلام ثم رفع إليَّ وجها بارز العظام مدبوغا بالتعاسة والكبر وواصل: بيد أن هذا كان منذ زمن طويل.

وإذ ذاك دهمني شعور قاس، كإحساسي بقبضة أمي تنهال على صدغي، بدنوه نحو الفناء بخطو دءوب، لاحت في نظرة عينيه الغائمة أطياف من العالم الآخر.

عندما لمح الدموع تترقرق في عيني اعتدل جالسا في الفراش ودعاني إلى الجلوس على ركبتيه. نظر في عيني وقال: إنك تقرأ في وجهي نذر الموت. لقد كنت أعلـــم دائما أنك تملك عيني شاعر.

بدا لي غير مبال بمصيره، فتقطع قلبي حزنا عليه، واستسلمت لموجة عاتية من النحيب. ضمني إلى صدره بحنان قائلا: هل ترغب في أن أقص عليك قصة مضحكة؟ ابتسم لي ابتسامة رقيقة على سبيل التشجيع.

لم أحر جوابا. ساد صمت كأنه بكاء أخرس.

استطرد قائلا: أريدك أن تعدني بعد سماع هذه القصة أن ترحل ولا تعود أبدا لرؤيتي. هل تعدني؟

أومأت برأسي موافقا.

- هل تذكر هذه القصة التي قصصتهـا عليك التي تدور حول الصبي الشاعر والفتاة الشاعرة؟ إنها قصة ملفقة. كما أن حديثي عن الشعر ونظمي أعظم قصيدة في العالم حزمة من الأكاذيب. ألا تظن أن هذه القصة من أمتع ما سمعت في حياتك؟

ثم أمسك لسانه بالصمت بعد أن تهدج صوته منذرا بالبكاء، غادرت المنزل بقلب كسـير، ثم طفقت أعدو بسـرعة الريح صوب بيتي مستسلما للنحيب مثل شاعر يبكي مر البكاء كل ما يراه.

تحاشيت السير في شارع ألبرتو لمدة عام كامل. بيد أنه ذات يوم مررت، بعد أن عاودت السير فيه، أمام موقع منزل الشاعر فلم أجد له أثرا. كما لو أن الأرض فغـرت فاها وابتلعته، إذ طالعني بدلا منه مبنى ضخم يتكون من طابقين شـيد على مساحة الأرض بأكملها، واختفت شجرة المانجو وشجرة البرقوق وشجرة جوز الهند.

بدا الأمر كما لو أن ب.وردز ورث لم يوجد على ظهر الأرض قط.

العَرَق

تأليف: فريد أوركوهارت
ترجمة: ريم داود

كانت ترتعب من فكرة أن يلاحظ الناس رائحتها. لم يكن لذلك أدنى أهمية في المشغل حيث تعمل. فقد كان العرق ينزّ من كل فتاة هناك... وكانت أركان الغرفة الضيقة تمتلئ عن آخرها بسحب كثيفة من العرق الثقيل. ولكنها كانت تخشى من أن ينتبه الناس لتلك الرائحة الحمضية، الحارقة، في قاعات السينما وعربات الترام. إذا لاحظت أن شخصًا يشهق أو يزفر بطريقة ملحوظة، غمرها الشعور بالخزي والحرج، إذ ربما اعتقد الناس أنها تتكاسل عن الاغتسال، ولكن ذلك كان منافيًا للحقيقة، وحده الله يعلم كم يؤنّبها أفراد أسـرتها على الوقت الطويل، الذي تقضيه في الحمام، تاركة أباها وأمها وشقيقها يتململون في انتظار خروجها، ليتمكنوا بدورهم من استخدامه. ومع ذلك، كانت تحسّ على الدوام بأن ذلك لا يعدو كونه مضيعة للوقت، لأن الرائحة لم تكن لتفارق أنفها، مهما فعلت. كانت أحيانًا تحاول أن تخدع نفسـها بأن تلك الرائحة كانت تنبعث من الفتيات الأخريات فقط، وبأن أذيالها العالقة بأنفها، والمصاحبة لها أينما ذهبت، كبقايا لحن قديم، تعلق مقاطع منه بالذاكرة: كانت

رائحتهن. ولكن في كل مرة تضغط بذراعيها على جانبي جسمها، كانت تشعر بالبلل يرسم بقعًا ودوائر على قماش فستانها، تحت الإبطين مباشرة، وكانت عندئذ، تعلم أنها في حال مزرية، كالفتيات اللواتي يظهرن في إعلان مزيلٍ العرق، الذي تنشره المجلات الأمريكية، التي كانت تبتاعها أحيانًا من محلات «وول وورث».

لم تكن أي فتاة أخرى في المشغل، تهتم بالرائحة، كنّ قد اعتدن عليها، بعد السنوات الطويلة التي أمضينها في ذلك المكان. هي وحدها، التي لم يمر على وجودها فيه أكثر من ستة شهور، وكانت تلك هي أول وظيفة تلتحق بها، كانت مقتنعة بأنها - مثلهن - ستعتاد الأمر بعد فترة، كان المشغل في الحقيقة مجرد قبو، وكان الجوّ به خانقًا لا يطاق في هذا الصيف الحار.

كان الضوء الوحيد الذي يبدد ظلمة هذا المكان، هو ذلك المنبعث من الأنوار الكهربائية القليلة والمتباعدة، المعلقة في سقفه، كانت النوافذ الضيقة الصغيرة، المطلة على رصيف الشارع، مفتوحة على الدوام، ولكن الجو في الخارج كان رطبًا وثقيلًا، ولم تكن نسمة واحدة من الهواء النقي تتسرّب إلى المكان، كانت النار التي تظل مشتعلة في أركان القبو، لتسخين المكاوي، تجعل الجو أكثر وحشية، وكثيرًا ما تساءلت إذا ما كانت ستستطيع الصمود في هذا المكان لفترات طويلة، كتلك التي قضتها أغلب العاملات هنا.

نصحتها (ماجي)، التي تجلس بجانبها دومًا، بأن تتزوج: «لا تورّطي نفسك بالاستمرار في هذا العمل، لديك فتى يحبك، تزوّجيه، وانقذي نفسك من هذا الوضع، مادامت الفرصة لاتزال سانحة أمامك».

أجابتها (جيني) في تردّد: ولكني لا أعرف ما إذا كان (هاري) يفكر في الزواج أصلًا... أم لا؟

-(طيب... عليك إذن أن تجعليه يفكر في ذلك، واظبي على إغرائه،

إلى أن يقتنع بأن الطريقة الوحيدة للوصول إليك هي الزواج، لا تكرري خطأي، لقد ظللت أهمل الفرصة تلو الأخرى، ممنية نفسي - في كل مرة - بظهور رجل أفضل في حياتي، إلى أن فقدت نضارتي، خلال انتظاري الطويل هذا، ومازلت هنا في هذا المكان اللعين، المليء بالعرق. أعمل بأجر زهيد، ولولا أنني أحيك الأثواب والفساتين لبعض السيدات بعد ساعات العمل، لما وجدت ما أسدّ به رمقي، كم يدفعون لك يا جيني؟

- خمسة عشر شلنًا في الأسبوع.

- الأمر يا صغيرتي، لا يستحق كل هذا العناء، وأنت تعلمين ذلك جيدًا، اخرجي من الأمر برمته قبل أن يمتص كل الطاقة والنشاط من داخلك. انظري إلى (جو).

أشارت إلى (جو) الساعي الذي جلس بجسده القوي الفتي، الذي بدأ يغزوه الترهّل، بجانب النار المشتعلة، يقرأ مجلة مصوّرة عن مغامرات «طرزان» مع وحوش الغابة، غير آبه للنار، ولا للهيبها الحارق، لم يكن يتحرّك من مكانه أبدًا، إلا إذا رنّ الجرس الموضوع بجانبه، معلنًا وصول طرد أو رسالة، فكان يقوم - عندئذ - من مكانه، متثاقلًا، ليسلم الطرود والخطابات إلى أصحابها، ثم يعود إلى مجلاته من جديد.

انظري إليه، عندما جاء هنا منذ عشر سنوات، كان لايزال مراهقًا صغيرًا في الخامسة عشرة، يملؤه الحماس، والرغبة في تسلّق السلم الوظيفي والترقّي لعمل أفضل، ولكنه الآن يمضي أوقاته في القراءة، قانعًا بعمله كساع، لقد انتزع هذا الجو الكئيب منه كل أمانيه وأحلامه، لا ترتكبي الخطأ ذاته يا حبيبتي.

عاهدت (جيني) نفسها بألا تقضي بقية حياتها في هذا المكان. (هاري) بدوره لم يكن يتلقى أجرًا مناسبًا إزاء الجهد الذي يبذله في عمله، ولكنها فكرت بأن من الأفضل أن تصبح زوجته، بدلًا من أن

تئد نفسها في عرق وقذارة هذا المكان، حيث يشويها عرقها الساخن، الذي يظل يتصبّب منها، وهي منهمكة في الخياطة، يمر الوقت بطيئًا، إلى أن يبدأ الألم في إلقـــاء ظلاله على عينيهـــا المرهقتين، ويتبلّد عقلها، للدرجة التي تجد معها نفســـها تردّد دون وعي منها: (ليتها كانت السادسة والنصف، ليتها كانت السادسة والنصف، السادسة والنصف...).

ارتفع صوت (ماجي) الحاد وهي تترنّم: (آه، لا أريد أن أموت، أريد أن أعود إلى وطني)، بدت الأغنيـــة، بطريقتها في الأداء، بلا لحن، وتفتقر إلى الموسيقى.

علّق أحد خياطي الدور العلوي - الذي كان قد نزل إلى مشـــغل الفتيات ليسخّن المكواة الخاصة به - تعليقًا فجًا، بالغ الوقاحة، ردّا على أغنيتها، إلا أنها لم تعره أدنى اهتمام، وواصلت غناءها الرتيب، فبصق على النار في غيظ وحنق.

كانت (جيني) تمقت هذا الرجل الطويل بوجهه النحيل القاسي، ذي الشفتين المفرطتين في الحمرة. حين كانت تمر بجانبه في الممر الطويل، لم يكن يتوانى عن مد يده قارصًا إياها قرصة سريعة، خفيفة، فعل ذلك أكثر من مرة، ثم حـــاول أن يقبّلها عنوة في إحدى المرّات، فعاجلته بصفعة على وجهه، ومنذ تلك الحادثة، دأب على السخرية منها، ولم يعد يناديها إلا باسم (العذراء) متهكمًا.

قال لـ(جو) شيئًا، لم تتبيّنه جيدًا، عن الروائح الكريهة التي تنبعث من النسوة اللاتي يملأهن العرق، فازدادت كراهيتها له، هل يعتقد أن النســـاء فقط هنّ من يتعرقن في الحر؟ حـــين كانت تصعد إلى غرفة الخياطين لأمر ما، كانت تجد الرائحة ذاتها هناك أيضًا، ربما لم تكن في قوة الرائحة الجاثمة هنا في القبو، ولكنها، موجودة على أي حال.

انتبهت على صوت (ماجي) وهي تصيـــح به في ضيق: (كفّ عن سخافاتك يا (ماك آرثر)، لو أنك كنت تعمل بالقدر نفسه، وبالجدية نفسها، مثلنا جميعًا، لغطاك العرق مثلنا أيضًا).

كانت الليلة، ليلة جمعة، اليوم الذي يتم فيه دفع أجور العاملين في المشغل، كان أجر (جيني) لهذا الأسبوع، يزيد شلنًا عن بقية الأسابيع، نظير عملها لساعتين إضافيتين.

ساعتان من العمل المضني، الذي كاد أن يقصم ظهرها من فرط الألم والتيبس، كانت تدرك أن المنطق يحتّم عليها أن تستغل هذا الشلن في ركوب المواصلات، بدلًا من السير لمسافات طويلة، تعرق خلالها عرقًا غزيرًا، يزيد الأمر سوءًا، ولكنها عوضًا عن ذلك، ابتاعت في طريقها للمنزل زجاجة من عطر (زهور العاطفة)، بذلك الشلن، ربما استطاعت باستخدامها له أن تزيد من حرارة العواطف بينها وبين (هاري). وفي كل الأحوال، ستصبح رائحة العرق أقل قوة، وتركيزًا.

تناولت عشاءها بسرعة، ولكنها لم تكن سريعة بما فيه الكفاية، لتدخل الحمام قبل أخيها، الذي لن يغادره - مهما كانت الظروف - قبل مرور نصف ساعة على الأقل، تنهّدت في تعب وإرهاق، وتوجهت إلى الغرفة الضيقة الملحقة بالمطبخ، حيـــث الحوض الصغير الذي يغسلون فيه الأواني والأطباق، بدأت في ملء الحوض بالماء، وأخذت تخلع ثوبها، حين فاجأها صياح أمها: (جيني... لماذا تغلقين الباب؟ دعيه مفتوحًا حتى يدخل الضوء إلى المطبخ، ليتمكن أبوك من قراءة الجريدة).

شعرت (جيني) بغصة، كيف تغسل نفسها أمام والدها؟ زرّرت ثوبها، واكتفت بغسل وجهها ببعض الماء البارد، لم يكن بإمكانها أن تنتظر لحين خروج (بيتر) من الحمام.

في حجرتها خلعت (جيني) فستانها، وتشمّمت إبطيها، فانتابها

شعور بالغثيان والتقزّز، فتحت (زهور العاطفة)، وسكبت القليل منها في راحتيها، وراحت تمسح العطر تحت إبطيها، وما بين نهديها، أعجبتها رائحة جسمها، وقالت لنفسها مؤكدة: (لو لم تكن هذه الرائحة قادرة على إغواء هاري، فلا شيء إذن سيمكنني من إغوائه).

اصطحبها (هاري) للتنزّه في حديقة (كنجز بارك)، اختار أن يجلسا في ركن قصيّ، بعيدًا عن ازدحام الناس في جنبات المكان الواسع، أخذ يلاطفها ويضع يده عليها، قالت له أخيرًا: (كفّ عن ذلك...)، ولكنها لم تبد أي مقاومة حقيقية له، أو تحرّك ساكنًا. غشيتها سحابة من مشاهد غرفة المشغل المكتظة بالحائكات اللاتي يعلو وجوههن الإرهاق والعرق، هاجمتها رائحة الغرفة، الحامضة، الثقيلة، والقوية.

كان الرعب من مصيرها المجهول في ذلك القبو الخانق، يفوق مشاعر احترام الذات، والتمسّك بالفضيلة، وجميع الأخلاق والمبادئ المغروسة بداخلها.

رفع (هاري) رأسه عن كتفها فجأة، وراح يتشمّمها، وحين رأت منخريه ينقبضان في قرف، داهمها خوف وخجل مخز، وتلوت أمعاؤها في عصبية، كدودة تتلوّى على سطح أوراق وردة، وجاءها صوته بعيدًا: «ما الذي فعلتيه بنفسك؟ لماذا تعطّرت بهذه الرائحة الرخيصة المنفرة يا جيني؟».

قاتل التنّين

تأليف: راينر ماريا ريلكه
ترجمة: حسين الموزاني

كان هناك بلد جميل خصب غنيّ بالغابات والحقول والشـــوارع والمدن، وثمة ملك شـــيخ من أكبر الملوك سنّا وأشدهم فخرًا وكبرياءً، أجلسه الإله على عرش البلد.

لم يكن لهذا الملك ذريّة سوى ابنة وحيدة بالغة الحلم، ذات حســـن بارع وفتوّة متفرّدة. كان الملك يرتبط بصلة قرابة مع العروش كلها في البلدان المجاورة، إلا أن ابنته لم تزل صبية منقطعة كما لو أنها بلا أقرباء. بلاشك أن حلمها ورقتها وهيبة طلعتها الهادئة الطاهرة كانت السبب البريء لذلك التنين الذي كان حجمه يزداد ضخامة على الدوام، ويتسع كلما تسلل حتى بلغ أخيرًا الغابة الواقعة أمام أجمل مدينة في البلد، فحلّ كما الرعب نفسه مجسّدا، إذ إن هناك علاقة سرية بين الجميلة والوحش الرهيب. فكان كل منهما يكمل الآخر في موضع محدد مثلما الحياة الجذلة والموت اليومي الوشيك.

هذا لا يعني أن التنين كان يقف موقف العداء من الفتاة الشابة،

مثلما لا يصح للمرء الادعاء بشرف وضمير بأن الموت نقيض الحياة. لعل هذا الحيوان الضخم القـاذف النيران يقرقص كما الكلب إلى جانب الفتاة الجميلة، وربما لا يتردد عن تقبيل يديها اللطيفتين، وبخضوع حيواني، إلا بسبب بشاعة لسانه، بيد أن المرء - بالطبع - لم يخضع هذا الأمر للتجربة، ولاسيما أن التنين كان يقضي، وبلا رحمة، على كل من تسول له نفسه التوغّل في محيط جبروته، فبدا كالموت المبين الذي يقبض على الجميع بمن فيهم الأطفال والقطعان، فيظلّ ممسكا بهم.

من المحتمل أن الملك لاحظ ذلك بارتياح بالغ، لأن المحنة والخطر المحدق سيجعل الكثير من شبّان مملكته رجالا حقيقيين. فحمل الشباب من مختلف طبقات الشـعب، نبلاءً وتلامذة، رهبانًا وخدمًا حملة رجل واحد، كما لو أنهم كانوا يشنون حربًا ضد دولة أجنبية نائية، فذاقوا طعم البطولة طوال ساعة واحدة حامية الوطيس مقطوعة النفس شـهدوا فيها الحياة والموت والأمل والخوف والأشياء الأخرى كلها - كما الحلم. وبعد بضعة أسابيع لم يخطر في ذهن أحد أن يحصي هؤلاء الشجعان أو يدوّن أسماءهم، لأن الشعب تعوّد في تلك الأيام العصيبة حتى على الأبطال، فلم يعودوا في نظرهم من الخارقين.

آنذاك صرخ الشعور والفزع وجوع الآلاف من الناس فأصبحوا كالضرورة، أو كالخبز، مثلما تقضي القوانين السارية المفعول حتى في زمن الويلات.

لكن بعدما صار عـدد أولئك الذين ضحّوا بأنفسـهم إثر المقاومة اليائسة يزداد على الدوام، بحيث إن كلّ عائلة تقريبًا في البلد فقدت خيرة أبنائها (كان أغلبهم في مقتبل العمر) بات الملك يشعر، وبحقّ، بقلق من أن يفنى أبناء البلد الأبكار

كلّهم فيترمّل الكثير من الفتيات الشابّات ويعشن حياة سنوات طويلة خالية من الإنجاب، فمنع حينئذ رعيّته من القتال. لكنه أبلغ التجّار الأجانب الذين تمكّن منهم الهلع، فهربوا من البلد المنكوب بإيصال رسالة إلى الملوك الواقعين تحت وطأة ظروف مماثلة منذ زمن بعيد: بأن كلّ من يفلح في إنقاذ البلد البائس من الهلاك ستُقدم له ابنة الملك هبة، مهما كان أصله، نبيلًا أو ابن جلّاد وضيع.

اتضح أن البلدان القريبة كانت مليئة بالأبطال أيضًا، وأن الجائزة النفيسة لم تعدم الأثر، بيد أن الغرباء لم يكونوا أوفر حظًا من أهل البلد، فهم لم يأتوا إلا لكي يلقوا حتفهم.

في تلك الأيام طرأ تغيير على ابنة الملك، وإذا كان قلبها حتى ذلك الحين مثقلًا بالحزن والوبال الذي آل إليه البلد، متمنيًا هلاك الغول، فإنها لجأت، بفعل سذاجة شعورها، وكذلك لأنها أوقفت لمجهول شديد اليأس، إلى التحالف مع التنيّن المطبق عليهم، بل إن الأمر وصل إلى حدّ أنها ابتدعت، بتأثير من صدق حلمها وصراحته، أدعية من أجله، وطلبت من النسوة القدّيسات أن يضعن الغول تحت حمايتهن. ذات صباح عندما استيقظت خجلة تمامًا من هكذا أحلام تناهت إلى سمعها شائعة جعلتها تشعر بالرعب والاضطراب معًا. قيل إن رجلًا - يعلم الله من أي مكان جاء - أقبل للمنازلة، إلا أنه في الواقع لم يتمكن من الإجهاز على التنيّن، ومع ذلك فقد تحرر من براثن العدوّ المروّع جريحًا ينزف دمًا، فأخذ يزحف في الغابة الكثيفة الأشجار، حيث عثر عليه باردًا في درعه الحديدية فاقدا الوعي، فجلب إلى بيت منفرد، بدم ساخن تحت العصابات الحارقة، ورعشات الحمّى تتنازعه. حين تلقّت الفتاة هذا النبأ، تمنّت لو أنها

انطلقت في الشوارع بقميصها الحريريّ الأبيض لتقف عند فراش المحتضر. لكن بعد أن ألبستها الخادمات وصارت تتطلع إلى فستانها الساحر ووجهها الواجم جيئة وذهابًا أمام مرايا القصر الكثيرة، فقدت شـــجاعتها في القيام بعمل خارق، بل إنها لم تجرؤ حتى على إرسال خادمة كتومة إلى البيت الذي رقد فيه المحموم الغريب لتجلب له المسكنات، ضمادات كتّان رقيقة أو مرهما مخففا للآلام.

بدا أنها وقعت فريسة للاضطراب حتى كادت تصاب بالسقم، وبعدما جنّ الليل جلست عند الشبّاك وحاولت أن تخمّن البيت الذي فارق فيه الغريب الحياة: إذ إن موته بدا لها بديهيًا. لعل امرأة ما كانت ستنقذه من الموت، لكن هذه المرأة كانت أشدّ خوفًا من قدرتها على زيارته، فرسخت في ذهنها فكرة أن حياة البطل الجريح كانت رهن يدها، وباتت لا تستطيع الفكاك منها.

في اليوم الثالث الذي أمضته باللوم والعذاب، ألقت بها هذه الفكرة أخيرًا في ليلة الربيع الحالكة السواد الممطرة، المرعبة، وهامت على وجهها كما لو أنها صارت تطوف في قاعة حالكة الظلمة. لم تكن تعلم كيف ستتعرف على الدار التي كانت تبحث عنها. غير أنها تعرّفت عليها بسهولة عبر نافذة مشرعة، وخلال ضوء يتلألأ وسط الغرفة، ضوء طويل عجيب، ليس من شأنه أن يساعد على القراءة أو النوم. فمرّت ببطء أمام الدار، حائرة، مسكينة، غارقة في نوبة من الحزن للمرّة الأولى في حياتها، ثم تابعت سيرها، فســـارت بعيدا، بعيدا. حينئذ توقف المطر فانتصبت نجوم ضخمة منفردة بين خطوط الغيوم المتفرقة، وفي بستان ما أنشد طائر مغرّد مطلع مقطع شعريّ لم تستطع إتمامه بنفسها. كان الصوت يرتفع كلّ مرّة متسائلا من جديد.

صوت انطلق من السكون عظيمًا مدويًا مثل صوت طائر عملاق استقر عشّه على ذرى تسع أشجار من السنديان.

أخيرًا عندما رفعت الأميرة بصرها المبتل بالدمع عن دربها الطويل، لمحت غابة خلفها طيف من تباشير الصباح، وأمام هذا الطيف ارتفع شيء ما أسود، تراءى وكأنه بدأ يقترب منها. اتضح أنه كان يعتلي جوادًا، فحشرت الأميرة نفسها دون إرادة بين الأدغال البليلة المعتمة. مرق بها على مهل، فكان جواده أسود بفعل العرق الناضح، وكان يرتجف، وبدا الرجل نفسه يرتعد أيضًا، وقد ارتطمت حلقات درعه ببعضها مولّدة رنينًا خافتًا، كان حاسر الرأس، بلا خوذة، كانت يداه مجرّدتين، والسيف يرتخي معلقًا في الجانب ثقيلاً ومتعبًا، فأمعنت البصر في صفحة وجهه، فبدا الوجه ساخنًا، والشعر أشعث متطايرًا.

ثم تطلعت إليه من الخلف فترةً طويلةً، فأدركت أنه قد قتل التنيّن.

ودفعة واحدة انجلى عنها الحزن، فلم تعد مجرد شيء حائر ضائع في تلك الليلة، بل باتت مقترنة به، بهذا البطل الغريب المرتعد الأوصال، أصبحت ملكًا له. كما لو أنها شقيقة سيفه، فحثت خطاها إلى المنزل لكي تنتظره. ودخلت مخدعها دون أن يلحظها أحد، ثم سارعت إلى إيقاظ الخادمات، طالما كان في الأمر متسع، طالبة منهن إحضار أجمل ثيابها. وبينما كانت الخادمات منهمكات في تهذيب فستانها استيقظت المدينة مغمورة بسعادة لامتناهية، وأخذ الناس يتهللون فرحًا، وكادت النواقيس يقرع بعضها بعضًا في أبراجها. والأميرة التي سمعت الصخب أدركت فجأة أنه سوف لا يأتي، فحاولت أن تتخيله، مأخوذة بامتنان الجموع، بيد أنها لم تتمكن من تخيّل ملامحه، فبحثت

بخوف إلى حدّ ما عن صورة البطل الوحيد، المرتعد، مثلما رأته لتحتفظ بها، كما لو كان من المهم بالنسبة لحياتها هو ألا تنسى صورته. وعلى الرغم من علمها بأن أحدا لن يأتي، شعرت بنشوة احتفالية، فلم توقف الخادمات المنهمكات بتزيينها، وجعلتهن ينظمن اللؤلؤ والزمرّد في شـــعرها المبلل مما أدهشهن. لقد أصبحت الأميرة جاهزة متأهبة، فرشقت الخادمات بابتسامة ثم مرقت شاحبة الوجه بعض الشيء أمام المرايا، تحت حفيف فستانها الأبيض، الذي كانت أذياله ترفل خلفها على مسافة بعيدة. بيد أن الملك العجوز كان قد تربّع على العرش في الصالة المهيبة، وقورًا، في غاية الجدّ، محاطًا بحاشية المملكة العتيدة المتألقة، ينتظر قدوم البطل الغريب، المنقذ.

لكنّ الفارس واصل طريقه بعيدًا عن المدينة، فتشكّلت حول رأسه قطعة من السماء مليئة بالقبّرات، ولو عنّ لأحد أن يذكره بثمن ما فعله لرجع مبتسمًا، إذ إنه قد نسيه تمامًا.

بيضة الحمامة

تأليف: مارتين موزيباخ
ترجمة: سمير جريس

شيء ما معتم مستدير كان يتحرك بين أصص الزهور. لم تستطع المرأة الرقيقة أن تتعرف على كنهه من كرسيها الخيزراني. بلا وعي اتكأت بظهرها وكأنها تحاول أن تتحاشى منظرا كريها.

«إنه الحمام»، قالت صديقتها.

«زوج من الحمام يعشش في المزراب. حاولتُ دون جدوى أن أمنعه. ولكنني الآن أحبه. لقد وضعت الحمامة بيضة ترقد عليها، وزوجها يأتي بالغصون الصغيرة وبالحبوب لإطعام خليلته».

حاولت المرأة الرقيقة أن تداري ذعرها، إلا أن يديها ظلتا متقاطعتين على صدرها. ثم قالت في ارتباك إنها لا تستطيع التغلب على نفورها إزاء الحمام، والطيور عموما. إنها تخاف من تلك الرفرفة الفجائية والعرامة المتمردة. تتخيل دوما أن بإمكان الطيور أن تهاجم وجهها بأجنحتها ومخالبها ومناقيرها. عندما تتطلع إلى عين طائر محملقة

تتوقع هجوما تشعر أنه يتخلق في دماغ هذا الطائر، خلف تلك العينين الضئيلتين الشـــريرتين الجامدتين. «الحمام لا يغادر مكانه بين أصص الزهـــور على الإطلاق»، قالت الصديقة: «إنني سعيدة بأنني لا أفزعه عندما أسقي النباتات على الشرفة. صحيح أن الذكر يختفي، إلا أن الأنثى تظل راقدة على البيضة. أتمنى لو استطعتِ أن تنظرى إلى هذه البيضة. إنها كاملة الجمال: عاجية اللون، دقيقة المسام، وخافتة اللمعان كأن طبقة من دهن تعلوها. إنها موديل لك. سترغبين على الفور في رسمها».

كانت المرأة الرقيقة تحدثت قبلها لما تشـــتت انتباهها بســـبب الظلال بين الأصص عن الطبيعة الصامتة التي تعد لها في الوقت الحالي. في مثل هذه الحالات لا تترك شيئا للمصادفة. القراءة تســـبق الرسم. تدرس وصفات قديمة لخلط الألوان، وتتمعن طويلا في أهمية الشـــيء الذي اصطفته موديلا. في محل أنتيكات في مارايس وقعت عيناها على مجموعة من الأرفف الصينية الصغيرة. «هذه الرفوف الصغيرة الحمراء هي مصدر إلهام للوحتي. على هذه الرفوف الصغيرة الثلاثة أستطيع الآن أن أضع الأشياء التي جمعتها للوحة متجاورة». ليس التداخل الزخرفي هو مبتغاها، بل الصف والترتيب والتنظيم الذي يكاد يقترب من الهوس. كما في متجر أو فترينة متحف، هكذا ينبغي عرض القطع. «وعارية أيضا!»، أضافت الرســـامة. إنها تبغي الوصول إلى الوضوح المطلق للمعروضات. الانطباع الأول للمتأمل لابد أن يسبب رعشة في يده، تدفعها إلى أن تمتد وتمسك بالقطعة وتنزلها من الرف الأحمر. عندما

تنخدع العين ينخدع الإنسان كله. مَن يعتبر المرسوم حقيقيا، يتحول هو نفسه لبرهة إلى رسم.

من جديد، أخذت الرسامة تتحدث باسترخاء. نسيت الحمام. «لدي مثلا لؤلؤة كبيـــرة تثيرني منذ فترة طويلة كي أرسمها. لؤلؤة شرقية، غير متناســقة، ذات نتوءات وبروزات. تكاد تبدو للعين كالغــدة، أو كدموع متحجرة. عندما يراها الإنسان يلحظ على الفور أن جسما دخيلا تسبب في إفرازها. إنها عاقبة مرض. أرسطو يقول إنهم كانوا يعتبرون اللؤلؤة قلب الحلزون. هذا أيضا ما يخطر على بال مَن يتأمل لؤلؤتـــي ويدحرجها في كفه. إبراهيم أبوالأنبياء كان يعلِّق لؤلؤة كبيرة. من نظر إليها كان يُشفى. ولكن بريق إفرازات الجسد المتجمدة يثير الغثيان أيضا. العين تسحر من يراها، لكن الإنسان لا يريد أن يعضها. شـــيء من هذه الثنائية يكمن في اللآلـــئ. أريد أن أمنح لؤلؤتي شيئا من ذلك».

«غاغو، غاغو» يهدل الحمام في حكاية سندريلا، وأيضا الحمام في المزراب يهدل بخفوت ووضوح: «غاغو، غاغو» تهمس الصديقة: «إنهما يتبادلان الحديث» ثم تنحني وترسل بصرها خلف الأصص: «لو نظرت نظرة واحدة للبيضة!»

«أود لو ألقي نظرة على البيضة»، قالت الرسامة، «أيضا لا اعتراض لدي على رؤية الريش، ولكـــن فقط إذا كان الطائر ميتا. الريش شيء رائع في شكله المصطنع حتى أن المرء ينسى من أين جاء. قد يظن المرء أن صانع مراوح قد اخترعه. في «طبيعتي الصامتة» ستكون هناك أيضا ريشة

صغيرة، ربما بيضاء ذات خطوط زرقاء فاتحة، مأخوذة من جناح «أبو زريق» - ريشة يلمع فيها بريق يخترق غمام سماء ربيعية. هل تعرفين أن الإنسان يحتضر وقتا أطول على الريش؟ لهذا كانوا قديما يوسّدون المتوفى الأرض. الريش يُمَكّن الطائر من الطيران، لكنه يجعل البشر يتأرجحون بين الحياة والموت بطريقة تستعصي على الفهم. أنت نفسك تعرفين كيف تجلب ريشة الطاووس الشؤم. ولكن ريشة الطاووس لا تتواءم مع طبيعتي الصامتة. ألوانها أكثر من اللازم، ومختالة بنفسها أكثر مما ينبغي، ورمزها فج مبتذل في وضوحه».

كانت الصديقة تهتم اهتماما كبيرا بخطط الرسامة. لذلك مرت تلك الساعة الصيفية التي شربن فيها الشاي على الشرفة الواقعة في ضاحية هادئة من المدينة الكبيرة وكأنها تحقيق. على الرسامة أن تفصل بكل دقة في أي شيء تفكر، أو ماذا تنوي أن تفعل. هل يشي هذا الفضول الودي بالرغبة في الاندماج مع الحركة الفنية؟ في بعض الأحيان كانت الرسامة تتردد وتعجز عن اتخاذ قرار. لم تكن الصديقة تسمح بهذا: «ينبغي عليك...»، هكذا كانت تبدأ العبارات التي تنصح بها الرسامة المتأرجحة. اليوم قالت لها: «ينبغي عليك أن تضيفي بيضة إلى طبيعتك الصامتة».

«بيضة؟» ردت الرسامة حالمة. «ما أحتاجه بالفعل هو مرجانة صغيرة. لدي غُصين من المرجان تشع أطرافه لونا فضيا.. به ثقب. تميمة. شجيرة المرجان هذه التي تبدو

كالعروق التي تخثر فيها الدم تقلقني وتجذبني. يمكنني تأملها ساعات. ولهذا أفهم أيضا لماذا يتصيد المرجان النظرة الحسودة ويستحوذ عليها ويمتصها. ضد العجز الجنسي كانوا قديمًا يعلقون في العنق كيسا به أغصان مرجانية ووردة وجذور حشيشة ست الحسن. على مثل هذا الكيس المخملي المخضر سأضع مرجانتي حتى تتألق على الخلفية الحمراء على خير وجه. يؤلمني أنني أبخل من أن أجرؤ على طحن مرجانة حقيقية لخلطها بألواني.. ألن يكون هذا نصرا فنيا.. رسم المرجان بالمرجان؟»

أومأت الصديقة برأسها. إن الكيفية التي تضع بها الرسامة الأشياء على رفوفها الصغيرة تشبه سلوك الحمام الكبير السمين في المكان الضيق بين أصص الزهور والمزراب. بصدرها المرتفع وريش ذيلها الطويل المتصلب. تستطيع الطيور الاستدارة بخطوات قصيرة على أرضية لا تتعدى مساحتها الكف. لا يني الحمام يستكشف كُنه هذا المكان المُعذب في ضيقه والذي اختاره الحمام بنفسه، وكأنه مرغم على أن يبرهن كل دقيقة على مزاياه. صمتت الحمامتان وكأنهما اعتبرتا أن من الحكمة عدم التدخل في الحوار الدائر بين الصوتين النسائيين، ولم يصدر عنهما في فترة صمت الصديقتين سوى هديل متفاهم واضح النبرات؛ وكأنهما شعرتا أن الرسامة لن تنفر من وجودهما طالما لزمتا مكانهما في تواضع.

«كالبيضة تبدو الحصاة المستديرة الملساء الوردية ذات العروق البيضاء التي أفكر في وضعها على الرف الأوسط»،

قالت الرسامة. هل تعرفين ما يقولونه عن حياة الأحجار؟ لقد مرت أيام كانت فيها كل الأحجار صغيرة. كانت تنمو على الأرض حتى ميلاد المخلِّص. عندئذ توقف نموها، إلا إذا واصلت نموها سرا عندما تلاحظ أنها بمنأى عن المراقبة. «ثمة أحجار تعرق، وأحجار تدمي عندما تُطعن. عندما أتناول الحصاة الوردية المعروقة في كفي يسري فيها الدفء بسرعة حتى أنني أعتقد أنني قد نشطت دورتها الدموية. ثم أظهرت لها راحة يدها الطفولية المغطاة بشبكة من التجاعيد الجافة. حتى في شبابها كانت راحة الفنانة متغضنة على هذا النحو.

بجانب الحصاة أُثبتُ بدبوس فراشةً لونها رمادي دافئ كالدخان والحرير. الغبار يعلو أجنحتها، ليس لونا بالمعنى الصارم للكلمة، نغمة لون فقط تبين الاختلاف الرقيق والضئيل في البشرة ذات الظلال الواهية. الفراشات أرواح. مثل هذه الفراشات الرمادية تخرج من أفواه الموتى، ثم تحط على صدورهم، وفي ما بعد على توابيتهم. وفي النهاية ترفرف الفراشات لبرهة في محيط الموتى تكفيرا عن آثامه. أود أن أعرف لمن كانت الروح التي أدخلت فيها الدبوس».

الآن تصب الصديقة عصير خوخ في كئوس طويلة. أظلمت السماء، ولكن حتى لو هطل مطر غزير فلن يصيبهم تحت سقف الشرفة إلا قطرات قليلة. ألم يكن عش الحمام على حافة مزراب المطر مهددا أن تدمره سيول الماء وتجرفه؟

«لا شـــيء يحدث لهذا العش!» قهقهت الصديقة. كان الإعجاب يطل من عينيها. لا شيء يدمر هذا العش الواهن.

تعيش الطيور في فقاعة غيـــر مرئية، تحميها من جميع التقلبات الجوية. خرير الماء يحيط بها، إلا أنه لا يتغلغل، بل يتساقط على الأجنحة التي تبدو في لمعانها وكأنها من معدن.

انحنت الرســـامة بينما بدأ الهديـــل يرتفع بحذر فوق أصيص الزهور. في البداية لم تتعرف على شيء هناك، ثم انشقت العتمة عن جسم لامع مستدير كالدائرة رأس صغير ذو لونين؟ قطعة زجـــاج؟ بل عين طائر. لما تعرفت الرسامة عليها شعرت بعودة ذلك الشعور بالجمود الذي كانت قد تغلبت عليه، لذا أشاحت بوجهها سريعا.

أخذت الصديقة الآن تتودد إلى الرسامة. لقد شعرت أنها تقاوم رغبتها، لذا فكرت أن تكسح هذه المقاومة بطوفان من الثناء، تماما كما يزيح تيار الماء المندفع في ماســـورة المطر شبكات العنكبوت وأوراق الشجر الذابلة من طريقه. إن ما يتجمع في رأس الرسامة، ثم على الأرفف الحمراء الصينية، ولاحقا بأفخر ألوان التمبرا والزيت على اللوح الخشبي الناعم الأملس، هذه هي صورة العالم. بأي الرموز تبوح أشياؤها؟ من يرد أن يدرك كنه الصورة الناشئة ويلم بجميع أسرارها لابد أن يعرف أولا كيف يقرؤها. من أين لها أن تعرف كل تلك المعاني؟ إنها على كل حال لم تؤمن حتى الآن بالخرافات والخزعبلات.

كلا، إنها لا تؤمن على الإطلاق بالخرافات، تقول الرسامة. إلا أن الأساطير والحكايات الشعبية وحكايات السحر كانت دوما تثير اهتمامها، حتى أثناء دراســـتها الجامعية. في

الأرشيف الذي يضم هذه الحكايات تختبئ كنوز وكنوز.

«وكالكنز أريد أن أظهر على لوحتي الأشياء التي جمعتها، وهي أشياء عديمة القيمة أساسا. أهدف إلى أن أثير انطباعا بالكمال. من يرَ هذه الأشياء على الرفوف لابد أن ينتابه الشعور بأنه ينظر داخل الدماغ، وأن أمامه شفرات الوعي. بجانب الحجر أضع قوقعة....»

«لقد رسمتِ قواقع كثيرا».

«نعم، إنها تكاد تغدو علامة التعرف على فني. هذا السلم الحلزوني الذي يضيق ويضيق، ويتواصل في الآن نفسه بلا نهائية. إنها بالنسبة لي صورة للفكر الذي لا يني يتعمق ويحفر في الواقع، ليصل عندئذ إلى رؤى تثقل على النفس أكثر فأكثر. قديما كانوا يعتقدون أن الحلزون يولد من الطين والعشب والندى، وهو ما يعني بالنسبة لي الإنعاش والإحياء لشيء ميت. وليس هناك ما هو أكثر فظاعة من أن تعود الحياة الكاملة لشيء كان يُعتقد أنه ميت». ثم خيم الصمت على المرأتين من جديد.

وفجأة قالت الرسامة: «ينبغي عليّ بالفعل أن أضم إلى مجموعتي بيضة، بيضة طائر صغيرة. ألا تستطيعين أن تعطيني ببساطة بيضة حمامتك؟»

لبرهة تلون وجه الصديقة بالبهجة والموافقة. أما الآن فإنها لم تستطع أن تخفي رفضها، بل واستياءها. انتزاع البيضة من الحمامة؟ سرقة طفل من أمه؟ وهل تحملت طوال هذا الوقت رائحة زبل الحمام على الشرفة حتى ترتكب الآن جريمة قتل طفل؟ لو أرسلت الرسامة فقط بصرها إلى

أسفل لرأت منظرا يمس شغاف القلوب: الحمامة المنشغلة ببيضتها عن الدنيا. هذا الرقاد على البيضة وما يعنيه من شعور بالواجب هو أمر يكاد يكون إنسانيا. على الرسامة أن تأخذ بيضة دجاجة وتصغرها. كل الرسامين يزيفون. الآن كان على الرسامة أن تكظم شعورها بالاستياء.

لا بيضة، إذن. إلا أن الأمر لن يمر بمثل هذه السهولة. لقد أشـــادت الصديقة بالبيضة إشادة عظيمة حتى أنها لم تعد تتصور الرف من دون بيضة الحمامة. «لدي شيء آخر لك. على مكتبي محارة جميلة من الأطلسي. سأعيرك إياها».

«المحار يرمز إلى جمال المرأة»، قالت الرسامة بسأم.

«إذن فهي مناسبة جدا»

«نعم، ولكن فقط مع البيضة»

«سأخرج هذه البيضة من رأسك» ونهضت الصديقة. الغرفة خلف الشرفة كانت تسودها شبه عتمة صيفية. تردد صدى خطواتها فوق الأرضية الباركيه، ثم ضاع الصدى.

كم أغضبها هذا التدخل غير الفني في تخطيطها للوحة. ويا للوقاحة أن تحاول الصديقة أن تئد هذه الخاطرة التي ألحت عليها، ثم ما لبثت أن ملكت عليها زمام نفسها. ألم تكن الصديقة بحمامها المثير للفزع هي التي أولت البيضة كل هذا الاهتمام؟ بيضة صغيرة تلمع لمعانا خافتا. رأتها الصديقة أمام عينيها. لم يعد هناك مجال للاستغناء عن البيضة. ألم تخطط اللوحة كلها فـــي الحقيقة من أجل البيضة؟ إن الرسامة خبرت في عملها مثل هذه السلسلة

السببية التي تبدو للعقول المتوسطة كأنها سببية مقلوبة: أن يخطط المرء لصنع تشكيل ما، وفي مرحلة متقدمة للغاية من العمل يطرأ بالمصادفة شيء آخر، ثم يكتشف المرء أن هذا الشيء، البيضة مثلا، ليس تكملة مُلهَمة فحسب، بل شيء ينتظره المرء في السر منذ مدة طويلة، كلا، إن التشكيل لا يكتمل إلا بهذا الجسم الذي لم يكن في الحسبان. أين ذهب خوفها من الطيور؟ نعم، من الممكن أن تطير الحمامة في وجهها برفرفة صاخبة أثناء انحنائها على أصص الزهور، ولكن حتى هذا التصور المهول لم يعد يستطيع أن يلجم فضولها الجامح.

أغصان صغيرة تناثرت على الأرض، وفي منتصفها توهجت البيضة، بيضاء وشهية. الحمامتان طارتا بعيدا. بأدب جم، وبكتمان بالغ أخلَتا الشرفة المزدحمة بأصوات المرأتين. كانت الرسامة بمفردها مع البيضة. لم ترجع صديقتها بعد. أضحت البيضة الآن أجمل مما وصفتها الصديقة الغائبة. لمعت القشرة الدهنية في خفوت. بدت مختلفة كل الاختلاف عن القشرة المألوفة لبيضة الدجاجة، القشرة الخفيفة الخشنة التي توحي بالتفتت. بدت البيضة ثقيلة وراسخة كالصخر. كم يبلغ وزنها؟ عندما مدت يدها الصغيرة إلى البيضة توقعت الرسامة أن ينشق الظلام عن طائر يائس بمنقار ضخم. لم يحدث شيء. خفيفة ملساء استقرت البيضة في راحتها المتغضنة. لم تتأملها طويلا. من شنطة يدها انتشلت منديلا ولفت فيه البيضة. عندما انزلق الطرد الصغير بأطرافه المثنية واتخذ مكانه

في الشنطة، تناهت إلى سمعها خطوات الصديقة فوق الباركيه. اتكأت الرسامة إلى الوراء وأرسلت بصرها باسمة مترقبة. وضعت الصديقة محارة صغيرة مسنونة الأطراف على المائدة، وانحنت على الفور فوقها ناظرةً إلى أصص الزهور. «لابد أن أتطلع أولا إلى الحمامتين. هناك تجلسان. هذا الرقاد الساكن كم هو مُخْلِص! إن أمومة هذه الحمامة تهزني من الأعماق».

«المحارة قبيحة»، قالت الرسامة. لكنها بدت ودودة في سخريتها، حتى أن الصديقة لم تستطع أن تأخذ كلامها على محمل السوء.

بعد وقت قصير كانت الرسامة تقف في منزلها، في الأتيلييه الهادئ أمام النافذة الضخمة المقسمة إلى عدة ألواح زجاجية. من النافذة سقطت عليها أشعة بيضاء باردة وكأنها غطاء كبير أُلقي فوقها. فوق قاعدة نهضت الرفوف المطلية بالأحمر، وعليها ريشة وحصاة وقوقعة. هناك ستضع الآن بيضة الحمامة. ستشكل البيضة المركز الخفي للوحة. بالرغم من أنها بطبيعة الحال لن توضع في المركز، إلا أن العين ستنجذب بتلقائية إلى البيضة، إلى هذا الانغلاق المليء بالأسرار، هذه العتمة المفعمة بالنبوءات.

جلست الرسامة على كرسي الرسم المنخفض ذي الثلاثة أقدام. على ركبتها شنطة اليد. فتحت الشنطة. كانت اللفة – المنديل قد هوت إلى عمق الشنطة، بين أدوات التجميل وجراب النظارة الجلدي. راحت الأنامل الرقيقة تتحسس القماش. قشعريرة انتابت جسمها كله. كان القماش

مبلولا.

بأقصى درجات الحذر أخرجت اللفة. إنها الآن ترقد على راحتها المتغضنة بأدغال الخطوط. بقعة دم على القماش. تجمع ضوء نافذة الأتيلييه كله وتركز على هذه البقعة الدموية. شعرت الرسامة بوجهها يحمر، قلبها يخفق. بأظافر الأنامل فحســـب وضعت اللفة على الرف بين الريشة والقوقعة. من هناك لمع الدم. وكأنها في حلم وضعت أيضا اللؤلؤة والمرجانة. ألا تستطيع أن تحاول رسم هذا التشكيل؟ لا قوة في العالم سترغمها الآن على فتح اللفة الصغيرة.

المفقود

تأليف: أرنولف أوفرلاند
ترجمة : سميرة أحمد السليمان

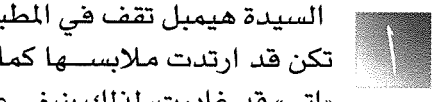

السيدة هيمبل تقف في المطبخ حينما دق الباب. لم تكن قد ارتدت ملابسها كما ينبغي حتى الآن، لكن «إتي» قد غادرت، لذلك ينبغي عليها فتح الباب بنفسها. كان يقف في الخارج رجل بقبعة لها جزء أمامي متحرك يغطي الوجه ومعطف رمادي فضفاض. كان يحمل كيسا تحت ذراعه. لم يقل شيئا، فقط وقف ونظر إليها، يصفي حنجرته، لكنه لم يقل شيئا.

كانت ستغلق الباب مرة أخرى. لم يكن لديها شيء لإعطائه. بالمناسبة، هي لا تحب هؤلاء الذين يأتون ويطرقون على الأبواب - وبالذات عندما تكون وحيدة في المنزل.

حينما اقترب نحوها وأمسك الباب.

ليزا!

هل يعرفها؟ السيدة هيمبل حدقت في ذلك الوجه الرث المحروق من الجو، هذا الوجه يشبه شيئا قد حلمت به. والصوت أيضا.. ثم صرخت. تركت مقبض الباب، نحو الخلف، تلمست

طريقها خلال الممر ثم داخل الصالة وأجلست نفسها.

الرجل أتى خلفها.

إنه أنا!

مازلتَ على قيد الحياة؟! همست هي. الفزع يملؤها تماما حتى الحنجرة.

نعم.

ونحن الذين اعتقدنا أنك ميت.

لا لا، لقد أخذت أكسجين.

كنتَ ضمن قائمة المفقودين. ولم نسمع منك المزيد. ولا كلمة واحدة. لماذا لم تكتب؟!

هناك، لم يكن بريد. لقد حاولنا بعض المرات إرسال مكاتيب، وقالوا إنهم سوف يرسلونها، لكن..

بعدها لم يكن لدينا أوراق.

هل كنت في روسيا؟

نعم في سيبيريا.

طوال الوقت؟ كانت سنة ١٩١٥ حين اختفيت؟

نعم

والآن نحن في سنة ١٩٣٠ نحو ١٥ سنة!

نعم.

ولكن لماذا لم تأت قبلها؟ الحرب انتهت سنة ١٩١٨!

في ١٩١٨؟ لا. كنا في مخيم المسجونين في كراسنويارسك لمدة ثلاث سنوات، ثم أتى إلى المنطقة كولتشاك. وحاربنا بجانبه ضد البولشفيك. ثم أصبحنا مسجونين من جديد. كان هذا سنة ١٩١٩. حينها كنا نقوم بأعمال الطرق معظم الأوقات، وأعمال البلد.

إذن لم تكونوا في مخيم المسجونين طوال الوقت؟

لا، السنوات الأخيرة كنا فيها أحرارا.

ألم يكن باستطاعتكم حينها القدوم إلى الوطن مرة أخرى؟

نذهب حول العالم؟ لا.

نظرت إليه. إنه زوجها الذي عاد. رجل رمادي، نصف عجوز، يشبه والده جورج. ذات مرة تزوجت منه، الأفضل أن تقول إنها كانت في الواقع متزوجة منه.. تنظر إليه. لم تعد خائفة. هذا الرجل الفقير العجوز لا تخافه. لكنها لا تعلم ماذا سوف تصنع معه.. يقف هناك أمامها والكيس تحت ذراعه حتى الآن، لكن لا تستطيع أن تطلب منه الجلوس، لأنه وبطريقة ما كان في منزله. خرج بعضهم في ممر الدرج الخارجي. لقد نسيت إغلاق الباب خلفها. كانت ضعيفة قليلا في ركبتيها حتى الآن، ذلك ما تدركه.

ألن تضع الكيس؟

بلى.

ذهب هو نحو الباب ووضعه هناك. هناك كان كرسي أيضا. أجلس نفسه هناك. قبعته ألقاها فوق الكيس. كان على الأصح متعبا، قد مشى على قدميه من «باهنوف».

هل تناولت الفطور؟ هل ترغب في أن أقوم بإعداد بعض الطعام لك؟

نعم، شكرا.

خرجت ووضعت إناء القهوة.

بعد برهة دخلت مرة أخرى مرتدية معطفا وقبعة.

نعم، الآن كل شيء جاهز لك. سوف أذهب الآن، أنا. أنا

سأرجع على الغداء.

هل ستذهبين؟

نعم، يجب عليَّ الذهاب إلى المتجر.

المتجر؟

نعم؟ المعمل؟

أوه نعم نعم! هل لديك ذلك حتى الآن؟

نعم نعم!

هل تستطيعين أن تديريه إذن؟

نعم، هذا أستطيعه، ما الذي كنا سنفعله أو نعيش منه؟

لا. لكن هل استطعت تعلُّم شيء؟

نعم، استطعت ذلك. كذلك لدى «نولتا». نعم، «نولتا» هو صانع ساعات أيضا. وأنا أقف في المحل.

مفهوم، نعم.

نعم، الآن يجب عليَّ الذهاب. يا إلهي، الساعة الآن بعد التاسعة! إلى اللقاء إذن.

ذهب إلى المطبخ وأكل. ثم ذهب مرة أخرى إلى الصالة. وهكذا يجلس هنا في المنزل. في المنزل مرة أخرى. غريب هذا الشعور. لكنه لم يكن قد فكر فيه هكذا. الصالة كانت كما هي تقريبا، وبطريقة ما، الأريكة القديمة والطاولة القديمة والكراسي القديمة كانت هناك. ما عدا بوفيه خشب البلوط مع الكئوس الألماسية والصحون الفضية. لم تكن له. لكنها كانت جميلة. لكنها ليست له.

وهكذا - زوجته - مالذي أصابها؟ فأصبحت أكبر سنا، نعم، نعم، أصبحت كذلك. لكنها لم تكن بهذا الكبر. دعني أرى، سنة ١٩١٤ كانت حينها ٢٥ سنة، بلى، إنها الآن ٤٠ سنة. لكنها كانت

جميلة حينذاك. سمينة فقط قليلا، يا إلهي. ظل من الخوف قد أتى من خلاله بالضبط وبما فيه الكفاية لكي يقول لنفسه إنه عاد إلى منزله مرة أخرى. لكنه اعتقد أن يكون ذلك الاستقبال مختلفا إنه كان غير منتظر. وكان ذلك منذ وقت طويل جدا. لابد أنه قد تغيَّر كثيرا، لذلك لم يكن من السهولة أنت تعرفه من جديد. وكذلك كانت هي تعتقد أنه قد مات، ولكن عندما تعرفته من جديد وبعد لحظة المفاجأة، بعدها كان من الواجب أن يعانق كل منهما الآخر، وأن تكون فترة مقدسة عندما يرجع الأب من الحرب إلى بيته.

وبالضبط بسبب اعتقادها أنه كان ميتا، كان من الواجب أن تكون سعيدة بمقدار الضعف لأنه مازال يعيش على قيد الحياة. وكان من الواجب أن يكون أمرا مقدسا وبهيجا الجلوس على طاولته مع زوجته وطفلته. لحظة فرح حقيقية كان من الواجب حدوثها.

وكانت هي مشغولة جدا، لدرجة أنه لم يملك الوقت المناسب ولو لمرة واحدة للسؤال عن «إتي». يجب أن تكون الآن فتاة كبيرة، يا إلهي، هذا ما يجب أن تكونه.. يجب أن تكون في الثامنة عشرة تقريبا.

ألم تكن هي التي قابلها على السلالم؟

المرأة الصغيرة القادمة نحوه، نحو الأسفل بجورب حريري ومعطف جلدي؟ والتي أدرك عطرها حينما مالت نحو الحائط عندما مرت به؟ مستحيل!

لا يستطيع الحصول على صورة لها؟ كانت هناك بعض الصور المعلقة على الأريكة.

بلى، الفتاة الصغيرة في فستان التعميد يجب أن تكون «إتي».

إنها جميلة، إنـــه لأمر غريب أن تكون هـــذه الفتاة الناضجة ابنته.

وهذا هو، في منتصف الحائط، في اللباس الرسمي. هذه هي الصورة التي التقطها في يوم الحشد للحرب. ومع الحداد الأسود على الإطار وزهور الخلود والصليب الحديدي!

أحببناه وفقدناه!

أجلس نفسه لينتظر. هذا ما تعلَّمه. الانتظار هو ما قد تعلمه. الوقت أصبح طويلا. ذهب مرة أخرى إلى المطبخ ودهن لنفسه شريحتي خبز. قليل من التبغ لديه حتى الآن.

وفي الساعة السادسة قدمت ليزا وبدأت تحضِّر للغداء. في الساعة السابعة حضرت «إتي».

أخرجت صرخة تعجُّب عندما رأته. قدمت الأم نحوها.

هذا هو أبوك.

نظرت إليهما الابنة دون أن تفهم شيئا.

إنه أبوك قد عاد مرة أخرى من الحرب.

أي حرب؟!

الحرب، يا ابنتي، الحرب العالمية!

أوه.. لكن..

كان في الأسر في سيبيريا.

لكنك كنت تقولين دوما إنه..

نعم، هذا ما اعتقدناه!

«إتي» قال هو ومد ذراعيه نحوها.

مساء الخير! قالت هي. أصبحت منتصبة وهي تنظر إليه. إن لديها أبا، وإنه قد أتى إلى المنزل. ســـمعت والدتها تقول ذلك، وأنها يجـــب أن تعرف ذلك. أن تســـتوعب ذلك. كانت

هناك قضية أخرى وهي. هل سوف يعيش معهما على سبيل المثال؟ هذا الرجل.

غادرت الأم مرة أخرى إلى المطبخ. فأصبح الاثنان وحيدين في الصالة. إنه مؤلم.

لحظة واحدة! قالت «إتي» واختفت. أتت مرة أخرى مع مفرش وأطباق وأعدت الطاولة.

تناولوا الطعام بصمت. بعد الغداء خرجت «إتي»، سوف تقابل أحدهم. وأصبح الاثنان جالسين وحدهما:

وهكذا رجعت إلى البيت مرة أخرى إذن!

كان شيئا حقيقيا بما فيه الكفاية. ليس لديه ما يقوله لهذا الأمر.

ما الذي فكرت في البدء به الآن؟

سوف أبدأ في المعمل مرة أخرى.

ليس هناك الكثير لعمله هناك، قالت هي. ليس هناك عمل لأكثر من اثنين. و«نولتا» له نصيب في المتجر، إنه شريك.

لم يقل شيئا عن هذا أيضا. لم يقل إنه معمله. لأن ذلك كان منذ وقت طويل. ولم يكن واثقا أنه قادر على ذلك أيضا الآن. ليس لديه اليدان لمثل هذا العمل الدقيق. يجب أن يبحث له عن شيء جديد.

ما الذي أستطيع أن أبدأ به؟

آه نعم، هذا ما يعلمه الله. هنا فقط البطالة والغلاء. جميع الناس يروحون بلا عمل. وأنه لمكلف جدا أن تعيش، فظيع الغلاء بحيث أني و«إتي» نتدبر أمرنا بشق الأنفس. فإذا لم تستطع الحصول على عمل ما، فأنا لا أعلم!

السيدة هيمبل أخرجت قطعة قماش وبدأت في ترقيعها.

الساعة أصبحت التاسعة. بدأت في التثاؤب.

سوف أرتب لك السرير.

دخلت إلى غرفة النوم وعادت مرة أخرى مع بطانية وملاءات ووسادة وبدأت في الترتيب فوق الأريكة.

هل سوف أنام هنا؟

نعم. في الداخل ننام أنا و«إتي».

الموسيقي «يانكو»

تأليف: هنريك شينكيفيتش
ترجمة: هناء عبدالفتاح

ولد في هذا العالم ضعيفًا: نحيلا، أما الجارات، اللائي اجتمعن أثناء ولادته، عندما كانت أمه تلده راقدة فوق (الأريكة)، فكن يثنين رءوسهن ذات اليمين وذات اليسار حسرة على ضعف الأم ومولودها.

كان طفلنا دوما نحيلا يميل وجهه إلى السمرة، ببطن منتفخ، ووجنتين متهدلتين، كان شعره في معظمه أشقر اللون يميل إلى البياض، ويتساقط متهدلا فوق عينيه العريضتين المفتوحتين، اللتين كانتا تنظران إلى هـذا العالم، وكأنهما تنظران إلى أفق لانهائي. في الشتاء كان «يانكو» يجلس خلف المدفأة، ويبكي بكاء حارا من البرودة أحيانًا، وأحيانًا أخرى بسبب الجوع، لم يكن بمقدور أمه أن تضع شيئًا في الآنية لتشبع جوعه، في الصيف كان يسير مرتديًا شيئًا أقرب ما يكون إلى السروال المعقود بحزام من الحبال في الوسط. وفوق رأسه قبعة من الخوص. أما الأم المسكينة التي كانت تعيش حياتها يومًا بيوم، فربمـا كانت تحبه على طريقتها، لكنها

كانت تضربه دوما، كانت ترى فيه طفلًا مختلفًا عن الآخرين. في الثامنة من عمره بدأ يخرج للعمل، اتجه إلى الغابة كراع للبقر، وعندما لم يكن في بيتهما الريفي المتواضع شيء، كان يحمل أكوابًا معدنية ليجمع فيها ثمار التوت من الغابة، كان عليه فقط أن يحرص على ألا تأكله ذئاب الغابة. كان فتى قليل الخبرة، ومثل الأطفال القرويين كان يضع إصبعه في فمه. لم يكن معروفًا لماذا ولد بهذه النقيصة، لكنه بالرغم من ذلك، كان نهمًا أمام شـــيء واحد، أمام العزف. أينما وجد، كان يسمع هذا العزف، وعندما استطالت قامته، لم يعد مهتما بشيء آخر ســـوى العزف. أحيانًا ما كان يسير بأبقاره نحو الغابة، وبأكوابه المعدنية لجمع ثمار التوت، إلا أنه كان يعود بلا ثمار، ويقول متهتها متلعثما:

– أأأمي...الحـــ ... بيـ ... بـــة... في الغـــا... بة كانوا يعزف ... ون...أوي! أوي!

أما الأم فتجيبه قائلة:

– سأعزف لك الآن، سأعزف لك لحنًا لم تستمع إليه من قبل! لا تخف، سوف أجعلك تسمعه مني!

وتضربه بملعقة خشبية كبيرة، كان الصبي يصرخ، ويعد أمه بأنه لن يقوم بفعل ذلك ثانية، لكنه في أعماقه كان يؤمن بأن ثمة شيئا كان يعزف، ما نوع هذا العزف؟ لم يكن يعرف؟!... ربما تكون الأشجار، الطيور، كل شـــيء كان يعزف، الغابة بأسرها كانت تعزف! الصدى كذلك، في الحقل كانت تعزف الحيوانات، في البستان كانت تزقزق العصافير للدرجة التي كان التفاح فيها يهتز طربا. وعندما كانت تغرب الشمس، ويقترب الليل من ولوجه، كان يصغي إلى جميع الأصوات

التي كانت تصدرها القرية، من المؤكد أنه كان يفكر في أن القرية كلها كانت تعزف له. عندما بعثوا به بالمذراة لينشر بها روث الحيوانات فوق أرض الحقل، كانت الرياح تتخلل أسنان المذارة لتعزف له. لقبه الناس بـ«الموسيقي يانكو». في الربيع كان يهرب من البيت، ويعزف على الفلوت الخشبي. أما في المساء، فعندما كان يسمع نقيق الضفادع، فإنه لم يكن بمقدوره النعاس، فقط كان يصغى، وكان (الرب) هو الوحيد الذي كان يعرف ما الذي كان يصغي إليه هذا الصبي! لم تدفعه أمه إلى الذهاب معها إلى الكنيسة، فعندما كان الأرغن الكنسي يعزف ألحانه، والمصلون يرتلون صلواتهم، فإن الطفل كانت عيناه تكاد تخرج من محجريهما، وكأن عينيه تنظران إلى عالم آخر ليس بعالمنا.

أما الشرطيّ الذي كان يتجول في الليل، فلكي لا يغلبه النعاس، كان يعد ويحصي النجوم في السماء، أو كان يتكلم بصوت خافت مع الكلاب، أحيانا ما كان يرى قميص «يانكو» الأبيض، متسربًا متسللًا نحو المقهى الريفي. لم يكن المقهى الريفي الليلي هدف الصبي. هناك كان يتسلل نحو السور ليصغى لما هو بداخل المقهى، حيث كان الناس يرقصون، أو يستمع لصوت فتى يصرخ، أو لأصوات فتيات، فضلا عن أصوات دقات الأحذية وهي ترقص مع أصحابها.. أما «الكمنجة» الريفية، فكانت تعزف في خفوت: «سوف نأكل، سوف نشرب، سوف نلهو»، وتستجيب لها آلة «الكونترباص» لترد على (الكمنجة) بصوت غليظ جاد: (كما يشاء الرب، كما يشاء الرب). انغمرت النافذة بالضوء، وبدا كل قضبان خشبي في المقهى الريفي، وكأنه يرتعش، من تأثير الغناء

والعزف، وفي الوقت نفسه كان (يانكو) يصغي.

كان على أهبة الاستعداد أن يهب كل ما يملكه، من أجل أن يملك هذه (الكمنجة) ويستمع لعزفها الرفيع: (سوف نأكل، سوف نشرب، سوف نلهو). هكذا كان خشب (الكمنجة) يردد عزفها... ياه! من أين يمكن الحصول عليها؟ أين يقومون بصنعها؟ لو سمحوا له أن يضعها في يده ولو لمرة واحدة فقط!!.. ماذا تقول؟!.. من المسموح به فقط أن يستمع إليها، وهذا الاستماع مشروط بوجود الشرطي الذي يمكن أن يسمع صوته، ويكتشف وجوده في الظلمة التي يقبع فيها، صائحًا:

- هاي... أنت... ألا تعود إلى البيت؟

حينئذ سيهرب على الفور عائدًا إلى البيت، قبل أن يتسلل إليه صوت (الكمنجة)، مرددا: (سوف نأكل، سوف نشرب، سوف نلهو)، وسيجيبها صوت (الكونترباص) الوقور مرددًا: (كما يشاء الرب، كما يشاء الرب، كما يشاء الرب).

لو كان بمقدوره فقط أن يصغى طويلا إلى صوت (الكمنجة) دون إزعاج، في أي مكان، بل في أي حفلة زواج أيّا ما كان نوعه، سوف تصبح هذه اللحظة بالنسبة إليه عيدًا كبيرًا في ما بعد صنع «يانكو» بنفسه لنفسه (كمنجة) من الخشب، وريشة من شعر الخيل، لكن (الكمنجة) الخشبية لم ترد أن تعزف له، بقدر جمال صوت (الكمنجة) الذي استمع إليه في المقهى الريفي: كانت تلك (الكمنجة) التي صنعها تئن أنينًا غاية في الخفوت، تمامًا كالموسيقى التي تصدر عن البعوض، وعلى الرغم من ذلك كان يعزف عليها من الصباح حتى المساء.

في ذاك القصر الريفي الموجـــود في قريته، كان الخادم (الخصوصي) يملك (كمنجة)، وأحيانًا ما كان يعزف عليها لساعات متأخرة من الليل، كي يثير إعجاب الآنسة/الخادمة. أما (يانكو) فكان في بعض الأحيان يزحف على ركبتيه، دون أن يلحظه أحد أمام باب المطبخ المفتوح، ليكون بمقدوره أن يلقي نظرة عليها. كانت (الكمنجة) معلقة على الحائط في واجهة الباب. ولذلك أرسل الصبي - عبر عينيه - روحه كلها، لتتجه نحو (الكمنجة) ظنا منه، أنها شيء مقدس، ليس مصرحًا له بلمسها، إنها - بالنسبة له - أقرب ما تكون إلى أعزل معشوق إلى قلبه. وبالرغم من ذلك الشعور الجائع بعدم قدرته على لمسها، فإنه كان يرغب في أن يحنو عليها. أن يمسك بها في يده - ولو لمرة واحدة على الأقل - لينظر إليها عن قرب ... كان قلب المســكين يرتعش من الفرحة، عندما يفكر على هذا النحو.

في ليلة من الليالي، لم يكن ثمة أحـــد في المطبخ، كان أصحاب القصر الريفـــي موجودين خارج البلاد منذ فترة طويلة، كان البيت الكبير خاليًا، و(الخدم الخصوصي) في زيارة (خاصة) للخادمة (الخصوصية) داخل غرفتها. أما (يانكو) المتلصص، فكان ينظر إليها - منذ فترة طويلة - عبر باب المطبخ المفتوح باتساع. مصوبا عينيه نحو الهدف الذي تتمركز فيه جميع رغباته في الحياة. القمر في تلك اللحظة كان مكتملًا في سمائه، يسير في دورته مائلا نحو النافذة المطلة على المطبخ، حيث تبدو النافذة وكأنها مربع ناصع مستضاء كبير، حيث يسقط القمر ضوءه في بقعة مربعة مضادة فوق الحائط، لكن هذه البقعة المربعة كانت تقترب

رويدًا رويدًا نحو (الكمنجة)، وفي نهاية الأمر غطى القمر بضوئه (الكمنجة) كلها. بدا ضوؤه الفضي وكأنه قد تسلل إلى داخل (الكمنجة) في أعماق الظلام واستحال نغمات، وبدت بطن (الكمنجة) مضاءة بكثافة شديدة، للدرجة التي كان يتعذر فيها على (يانكو) النظر إليها. في هذا الضوء الساطع كان كل شيء يظهر بنسق محدد: دقة حوافي (الكمنجة)، أوتارها، قوسها المنحني، مفاتيح ضبط نغماتها، حيث يفترشها الضوء، وبطول (الكمنجة) كان القوس معلقًا كعمود حديدي فضي. كان كل شيء رائعًا، يبدو أقرب ما يكون إلى حكاية مسحورة.

بدت (الكمنجة) في ضوئها الناصع، وكأنها تقترب منه، كما لو أنها تسبح في الضوء، اقترابًا من الصبي، أحيانًا ما كان هذا الضوء ينطفئ، ليعود من جديد ليشع المكان بنوره الرمادي، الغارق في رماديته! بينما كانت الرياح تهز المكان بما فيه، ومن فيه، صفّرت الأشجار صفيرًا خافتًا، أما (يانكو) فبدا كما لو كان يستمع إلى صوت يخاطبه مباشرة:

- فلتذهب يا (يانكو)! لا يوجد أحد في المطبخ.... اذهب... يا (يانكو).

كان الصبي المسكين ذو الظهر المنحني، يتقدم بحذر إلى الأمام، وفي الوقت نفسه كان الكروان - بصوت خفيض - يصفر صفيره الخافت: (فلتذهب، فلترحل، خذ حذرك!) عند حافة المطبخ كانت تسمع أنفاس سريعة تنطلق خارجة من صدر الصبي المريض. وبعد لحظة أو تكاد، يختفي قميص الصبي الأبيض في الظلام. وبعد قليل يسمع فجأة نقيق ضفدع ضخم داخل بركة الحديقة، وكأنه يعبر عن

تخوفه مما سوف يحدث. ويتوقف الكروان عن صفيره. في الوقت نفسه، كان (يانكو) يزحف في صمت، وبحذر، لكن الخوف يسيطر عليه فجأة، في بيته في حشائش الغابة المحيطة به، كان يشعر وكأنه حيوان وحشي يسير حرًا في أدغال حشائش كثيفة، أما الآن، فيبدو كحيوان وحشي وقع في مصيدة. توقفت حركته فجأة، كانت أنفاسه قصيرة ومتحشرجة، فضلًا عن أن الظلام أحاط به من كل جانب، وسمع صوت صاعقة صيفية. طارت بين الشرق والغرب، لتضيء مرة أخرى ما بداخل المطبخ، أما (يانكو) فكان يركع على أربع أمام (الكمنجة)، ورأسه يميل مرتفعًا إلى أعلى نحوها. وتزول الصاعقة بعد قليل، ويغطي السحابة القمر، لم يعد ثمة ما يرى أو يسمع. بعد لحظات يخرج من الظلام صوت بكاء خافت، كما لو كان ثمة شخص لمس هذه الأدوات عن غير حذر، وفجأة يخرج من زاوية المطبخ رجل سمين مجهول، يغلب على صوته النعاس يسأل في غضب:

- من هناك؟

تتوقف أنفاس (يانكو) في صدره، لكن صوت الرجل السمين يسأل ثانية:

- مَن هناك؟

يرتعش عود الثقاب في يد الرجل فيمسح بضوئه الحائط باحثًا، ويضاء المكان قليلًا... بعد ذلك... آه!

يا إلهي! يسمع سباب، صفعات، بكاء صبي، صراخ: (يارب السموات! ماذا تفعل هنا؟!) نباح كلاب، الضوء يهرول خلف الزجاج، هرج ومرج في أنحاء القصر الريفي، في اليوم الثاني يقف المسكين (يانكو) بين يدي العمدة/القاضي في

محكمة القرية.

من المؤكد... كان عليهم أن يحاكموه باعتباره سارقًا؟ ينظر القاضي/العمدة إليه والمحلفون، وهو واقف بينهم، وإصبعه في فمه، وعيناه ترتعشان وتتألمان، نظروا إلى ذلك النحيف، الصغير، المتســـخ، ذلك الهزيل الذي لا يعرف أين هو، ولا يعرف ما يريدونه منه؟!... (....) كيف يمكن أن نحاكم هذا المسكين وهو لم يتجاوز عمره عشر سنوات، وتحمله قدماه بمشقة! أيرسلونه إلى الســـجن أم ماذا سيفعلون حياله؟! من الضروري أن يوضع في الاعتبار قدر من الرحمة تجاه الأطفال. فليأخذه الشرطي من هنا، وليضربه على ظهره بعصاه، حتى لا يسرق مرة أخرى.. هذا ما ينتهي إليه قاضي القرية من حكم. ينادي القاضي على الشرطي:

– خذه من هنا، وقم بالواجب، واجعله لا ينسى ما فعله!

أومأ رأس (ستاشا) – رأس الشرطي الحيوانية – تنفيذ ما طلب منه، حمل الشـــرطي الصبي (يانكو) تحت إبطه، كما لو كان يحمل قطيطة، ووصل به إلى الطاحونة، لم يفهم الطفل أي شيء، ولم يفزع، ولم ينبس ببنت شفة، كان ينظر إليه تمامًا كما ينظر الطائر الجريح. أكان يعرف ما الذي سيقوم به هذا الشرطي نحوه؟ لقد عرف فقط أين يوجد الآن في اللحظة التي أخذه (ستاشا) فيها إلى الطاحونة، مدده فوق الأرض، خلع قميصه من فوق جسده الهزيل، ورفع الشرطي يده حتى أذنه استعدادًا لفعل ما كان عليه القيام به، ثم هبط بقبضة يده – بكل ما أوتي من قوة – نحو جسد الصبي، عندئذ صرخ (يانكو):

– أمي – في اللحظة نفسها يصفع الشرطي وجه الصبي

صفعات قوية متتالية.

– أمي! أمي! – يبدأ صوته في الخفـوت، ويضعف مع توالي الصفعات،إلى أن يصمت الصبي، ولم يعد بمقدوره أن ينادي أمه.

مسكين، إنه يبدو مثل (كمنجته) وقد تفتت وانكسرت!... أنت يا (ستاشا) أيها الأحمق! من ذا الذي بمقدوره أن يضرب طفلا كهذا؟! إنه صغير وضعيف. جاءت الأم، وأخذت طفلها، كان عليها أن تحمله على كتفها حتى البيت. في اليوم التالي لم ينهض (يانكو)، وفي مساء اليوم الثالث تمدد جسده فوق (الكنبة) تحت (غطاء) من (كليم) متواضع.

كانت (عصافير الجنة) تزقزق في بستان الكرز، أما شعاع الشمس الوحيد فيخترق زجاج النافذة ليدخل الغرفة، ويغرق بلونه الذهبي الناصع رأس الطفل المكدود ووجهه. الذي خلا من الدماء. لم يكن هذا الشعاع هدية. فقد أتى خصيصًا ليشيع روح هذا الصغير، التي كان عليها أن تخرج إلى بارئها. لكنه كان بمنزلة طريق شمسي عريض ليرى الصبي من خلاله ما ينتظره، طريق مستنير يستعيض به – في لحظات موته – عن حياته التي اتسمت بشقائها، وزخرت بمشكلاتها وأشواكها. في الوقت نفســه، كان صدره الهزيل، لايزال يتنفس، أما وجه الطفل، فكان يبدو عليه، وكأنه يصغي لصدى أصوات القرية من حوله، وهي تأتي إليه متسربة من نافذة الغرفة المفتوحة. حدث هذا في نهاية النهار وحلول الليل، أي في الوقت الذي تعود فيه الفتيات إلى بيوتهن آتيات من الحقول، وهن يغنين أغنيتهن المفضلة: (أوي، أوي، نريد أن نفترش الأرض الخضراء...)، ومن النهير يتسرب عزف الفلوت. أما

(يانكو) فكان يصغى للمرة الأخيرة كيف تعزف القرية له. كانت ترقد بجواره فوق (الكليم) المتواضع (كمنجته) التي صنعها من الخشب، فجأة أنير الوجه الذي يموت، وتهمس الشفاه الشاحبة:

- أمي؟

- نعـــم يـــا ولـــدي؟ - أجابتـــه الأم وقد غـــرق وجهها بالدموع..

- أمي، هل يمنحني الرب في السماء (كمنجة) حقيقية؟

القطار الهائم

تأليف: ستيفان جرابينسكي
ترجمة: فهد حسين

سادت حركة ساخنة في محطة القطارات في (هورسك)، فالوقت وقت ما قبل العيد، وقت تتخلله بضعة أيام خالية من العمل، وقت مثالي بالفعل. عج رصيف المحطة بالقادمين والمغادرين، فأبرقت وجوه النساء المستثارة، وتلوثت شرائط القبعات، وازدهت شالات السفر بألوانها، انحشرت هنا في الزحام قبعة دقيقة لسيد مهذب، وخيّم هناك بسواده مسوح رجل دين، وفي مكان آخر تحت القناطر اخترقت الحشد بزات عسكرية رصاصية، وليس بعيدًا ظهرت بلوزات العمال الرمادية.

ضجت الحياة بالنشاط داخل أسوار المحطة الضيقة، وفاضت الهمهمات على جانبيها، وتشابكت فيها أحاديث المسافرين المختلطة، ونداءات الحمالين، وصوت الصفارات، وهدير البخار المنطلق، لتشكل سيمفونية متنافرة يفقد المرء فيها نفسه، ويسلم ذاته الصماء المتصاغرة للارتفاع والتأرجح

والدوار في حومة هذه الموجة الهائلة من الحيوية.

كان طاقم العمال منهمكًا في عمله، وبين لحظة وأخرى تبرز، هنا وهناك، خوذ موظفي الحركة الحمراء وهم يلقون بالأوامر، ويبعدون التائهين عن خط السكة، ويتابعون بعين حاذقة حساسة القطارات في لحظة انطلاقها، بينما المفتشون يستحثون الناس دون توقف، متنقلين بخطوات عصبية بين أول القطارات وآخرها، ومراقبو الحركة يصدرون أوامر، قصيرة، دقيقة، مثل الأبواق المؤذنة بالانطلاق. كان كل شيء يسير بإيقاع نشط وحذر، محسوب بالدقائق، بل بالثواني، بينما راحت كل العيون تراقب الوقت، على ميناء الساعة الأبيض في الأعلى.

على الرغم من كل هذه الإجراءات، فإن المراقب الواقف على الحياد كان يستطيع، بعد لحظة قصيرة من المراقبة، أن يخرج بانطباع مخالف لهذا النظام الظاهري، ويشعر كما لو أن شيئًا ما تسلل إلى سير العمل التقليدي، المضبوط باللوائح والتعليمات، وأن عقبة ما، غير محددة، ولكنها خطيرة، تقف في وجه انتظام الحركة.

كان ذلك باديًا في الحركات العصبية بشكل غير عادي، وفي نظرات العيون القلقة، وتعابير الوجوه المترقبة لشيء ما.

من الواضح أن شيئًا ما، كان معطلاً في الجهاز الذي بقي نموذجيًا إلى ذلك الحين، وأن تيارًا غير صحي، غير طبيعي، سرى في شرايينه المتفرعة لمئات الفروع، وظهر إلى السطح بمظاهر نصف مفهومة.

لم تكن حماسة طاقم السكة الحديد، إلا تعبيرًا عن

رغبتهم في قهر حيرة غامضة، تغلغلت متسللة إلى آلية العمل المضبوطة، كان كل واحد فيهم يبذل ضعفي أو ثلاثة أضعاف طاقته ليخنق، ولو بالقوة، ذلك الكابوس المزعج، ويستعيد سير العمل السابق، الرتيب، إنما الآمن، لأن ذلك العمل هو في النهاية مهنتهم التي مارسوها بدأب لسنوات عدة، وتلك المنطقة هي إقليمهم الذي آمنوا بأنهم يعرفون كل شبر فيه، وهم في النهاية ممثلو ذلك المجال من العمل الذي لا يفترض لأي شيء فيه أن يبقى غامضًا، ولا يستطيع بل يجب ألا يستطيع أي لغز فيه أن يفاجئ خبراءهم الذين يسيطرون على شبكة العمل المعقدة.

بالرغم من أن كل شيء كان منذ سنوات محسوبًا، وموزونًا، ومقاسًا بدقة (في حدود المخيلة البشرية) وبالرغم من أن الانضباط، ودون أي مفاجآت، كان يعم المكان، والعمل يتكرر بانتظام ودقة محسوبين سلفًا، فإن الموظفين كانوا يحسون بوجوب مضاعفة تضامنهم، فيما يخص مسئوليتهم عن هذا العدد من المسافرين الموجودين، والذين لا بد من توفير الطمأنينة والأمان لهم، في حين راحت حيرتهم الداخلية وموجة اضطرابهم تنتقل إلى الناس في المحطة.

كانت المسألة بالفعل غريبة وغامضة، فمنذ زمن ظهر على الخطوط الحديدية الوطنية قطار ما، غير مسجل في أي من السجلات المعروفة، ولا يدخل ضمن أي مجموعة من مجموعات العربات البخارية العاملة على الخطوط، وباختصار شديد، قطار متطفل، من دون رخصة أو موافقة

مسبقة، حتى أن الوقت لم يسعف أحدًا لتحديد النوع الذي ينتمي إليه، أو المعمل الذي خرج منه، إذ إن البرهة القصيرة من الزمن، التي كان يظهر فيها في كل مرة للعيان، لم تكن تدع مجالاً لأي معرفة من هذا القبيل، إنما على كل حال، كان من الممكن الاستنتاج من السرعة الخرافية التي كان ينزلق بها أمام أعين المراقبين المذهولين، أنه يحتل مرتبة عالية جدًا في سلم وسائل النقل، فسرعته كانت تضاهي، على الأقل، سرعة البرق.

أكثر ما كان يقلق في أمر هذا المتطفل، أنه كان عصيًا على التوقع، فمرة كان يظهر هنا ومرة هناك، يغير فجأة من مكان ما على امتداد الخطوط الحديدية، يمر بصفير شيطاني فوق السكة ويختفي في البعيد. شوهد في أحد الأيام بالقرب من محطة (م)، وفي اليوم التالي انبثق في مكان ما في حقل فارغ خارج مدينة (و)، بعد ذلك ببضعة أيام انزلق بوقاحة عمياء بالقرب من نقطة صيانة في محيط محطة (غ).

منذ سنوات عدة والقطارات تسير وفق خطة مرسومة سلفًا، نظمت في المديريات، صُدِّق عليها في الوزارات، ونفذت على شبكة الخطوط، منذ سنوات عدة وكل شيء محسوب ومتوقع - بدرجة أقل أو أكثر - وعندما كان يحدث خطأ أو سهو ما كان يتم إصلاحه أو تفسيره بشكل منطقي، إلى أن أخذ هذا الضيف الثقيل يتزحلق على السكك الحديدية، ويقلب النظم رأسًا على عقب، ويحقن في جسد هذا الجهاز

المتناسق جرثومة الفوضى والإرباك.

لم يتسبب ذلك المتطفل، لحسن الحظ، بأي كارثة إلى الآن، وهذه النقطة بالذات استرعت الانتباه منذ البداية، فالمكان الذي كان يظهر فيه كان دائما خاليًا بشكلٍ ما، في لحظة وجوده، لذلك لم يتسبب هذا المجنون بأي حادث بعد، ولكن ذلك كان ممكن الحصول بين ليلة وضحاها، ولاسيما أنه كان يبدي نزوعًا في هذا الاتجاه، حيث لوحظ في حركته، بعد فترة من الزمن، سعيٌ واضحٌ للدخول في تماس مباشر مع زملائه على الخط. كان في البداية يتحاشى الاقتراب من القطارات، موجودا على مسافة معقولة خلفها أو أمامها، ولكنه الآن راح يظهر في مسافات زمنية متقاربة ملاصقًا لظهر من يسبقه، ففي إحدى المرات، مرّ كالبرق قريبًا من قطار درجة أولى في الطريق إلى (و)، وقبل أسبوع بالكاد تحاشى قطارًا شعبيًا في المسافة بين (س) و(ف)، وقبل يومين، بأعجوبة، انتهى على خير تقاطعه مع قطار سريع قادم من (ش). ارتعد ناظرو المحطات عندما علموا بتلك التجاوزات غير العادية، التي انتهت على خير (برأيهم) بفضل سلسلة الخطوط الحديدية الثنائية ووعي السائقين فقط، وقد أصبحت مثل هذه المعجزات تتزايد أكثر فأكثر في الفترة الأخيرة، في حين أصبح احتمال النهايات السعيدة لها يتضاءل يومًا بعد يوم.

انتقل المتطفل من دور المطارَد إلى دور المطارِد، وكأنه كان مدفوعًا إلى ذلك بقوة مغناطيسية، ما شكل تهديدًا مباشرًا

بحدوث مأساة بين يوم وآخر.

كان مدير الحركة في (هورســك) يعيش منذ شهر حياة مؤسفة بشــكل يفوق التعبير، يحيا في خوف مستمر من الزيارة غير المستحبة، ويراقب باستمرار دون أن يغادر، ليلاً أو نهارًا، موقعه الذي لم يمض على تقلده إياه سنة واحدة، وذلك تقديرًا لطاقته ونشاطه الفائقين، أضف إلى ذلك أن المحطة مهمة جدًا، فـ (هورسك) تشكل نقطة تقاطع لعدة خطوط حديدية أساسية، وفيها تتركز الحركة على امتداد البلاد كلها.

كان العمل منهكًا جدًا في هذا اليوم، وخصوصًا في ظل هذا التدفق الاستثنائي للمسافرين، وهذه الحالة المتوترة.

حل المســاء ببطء، وتوهجت أنوار المصابيح الكهربائية، وألقت الكاشــفات أضواءها الهائلة، وتحت نيران مفاتيح التحويل الخضراء، راحت خطوط الســكة الحديد تلتمع ببريق معدني موحش، وتتلوى بسلاسلها الباردة مثل أفاع حديدية، وأخذ يومض في الظلمة، هنا وهناك، ضوء فانوس المفتش الخافت، ونور نقطة الحراسة البعيدة، خارج المحطة، وهناك حيث لا تصل أعين المنارات الفيروزية، راحت إشارة مرور القطارات ترسم رموزها.

ها هو الآن، قطار شعبي قادم من (يجيسك)، يظهر ثم يلتف بزاوية ٥٤ ويتوضع بخط مائل داخلا المحطة.

تطل من النوافذ المفتوحة، جدائل الأطفال الذهبية، ووجوه النساء الفضولية، وتلوح المناديل ملقية التحية، تتحرك بعنف

كتلة المنتظرين على الرصيف، باتجاه العربات، وتتجه الأذرع المفتوحة في كلا الاتجاهين نحو اللقاء.. ما هذه الضجة، القادمة من هناك، من اليمين؟!

يمزق صوت الصفارات المرعب الهواء، يصرخ مدير المحطة بصوت وحشي أجش:

«ابتعدوا، عودوا! اهربوا! اطلق السرعة العكسية! تراجعوا! ترجعوا!... مصيبة!!».

يرتمي الحشد، بتدافع كثيف، نحو أعمدة الدرابزين ويكسرها، تنظر العيون الهائجة بغريزية، نحو اليمين حيث يتجمع طاقم العمل، فترى أضواء المنارات وهي تترجرج بعشوائية وعصبية تشنجية، محاولة، بأي شكل، استغاثات الأبواق اليائسة وضجيج الناس الجهنمي بعاصفة الصفير... لا جدوى.

تقترب الآلة البخارية، غير المنتظرة بسرعة جنونية وتنحشر عيناها الخضراوان، الهائلتان في الظلمة بنظرات شبحية، فتتراجع الحشود بطاقة خرافية مسعورة، وتنطلق من آلاف الصدور صرخة مفزعة بلا قرار.

«إنه هو! القطار الممسوس! المجنون! انبطحوا! النجدة! انبطحوا! سنموت! النجدة! سنموت!».

تمر كتلة رمادية عملاقة فوق أجساد المنبطحين، كتلة ضبابية شائبة بنوافذ مشرعة تمامًا، فتهب عاصفة شيطانية منطلقة من تلك الجحور، وينفجر بجنون صوت رفرفة مصاريعها، وتظهر من خلالها وجوه مسافرين شبحية. يحدث فجأة شيء

عجيب، فبدلاً من أن يحطم القطار المسوس القطار الآخر الذي أصبح في متناول مخالبه، يمر من خلاله كالضباب، وللحظة يظهر للعيان كيف تتداخل ألسنة تعشيق القطارين، وتحتك جدران العربات دون أن تصدر أي صوت، وتتنافذ أسنان ومحاور العجلات، ثم بعد لحظة يعبر المتطفل، بضراوة كالبرق جسد القطار المتوقف، ويتبدد في الجهة الأخرى، في مكان ما وسط الحقول ثم يصمت. على السكة أمام المحطة يقف القطار الشعبي من (يجيسك) ساكنا، سليما، وفي المحيط يسود صمت، لا حدود ولا قرار له، لا يُسمع شيء سوى صوت حمحمة أحصنة قادم من ناحية المروج، وسوى وشوشة الأحاديث التلغرافية وهي تسبح عبر الأسلاك في الأعلى.

يفرك الناس على الرصيف، والعمال، والموظفون أعينهم وكأنهم يستيقظون من حلم، وينظرون إلى بعضهم البعض بذهول.

هل كانت هذه حقيقة أم هلوسة مزعجة؟

تتحول النظرات ببطء إلى قطار «يجيسك»، مدفوعة بالحافز نفسه، لايزال يقف أصم، أبكم، ولاتزال المصابيح في داخله تبعث نورها الهادئ الرتيب، بينما يعبث النسيم بهدوء بستائر نوافذه المشرعة. يخيم في العربات صمت كصمت القبور، لا أحد ينزل، ولا أحد يطل من الداخل، ومن خلال مربعات النوافذ المضاءة يبدو المسافرون رجالاً ونساءً وأطفالاً، سليمين معافين، لم يصبهم أدنى خدش،

إلا أن حالتهم غريبة، كلهم في وضعية الوقوف، وجوههم إلى الناحية التي اختفت فيها آلة البخار الشبحية، سمرتهم قوة ما في اتجاه واحد وأبقتهم في عجز أخرس، اخترق أرواحهم تيار قوي ما وأضفى عليها هيئة واحدة، أيديهم ممدودة إلى الأمام، في اتجاه واحدة، تشير إلى هدف ما، غير مرئي، هدف بعيد بالتأكيد، جذوعهم محنية إلى جهة بلاد ما، ضبابية، بعيدة، مجنونة، بينما عيونهم المتحجرة برعب شيطاني، تعوم بذهول في فراغ لانهائي. يقفون صامتين، لا تهتز لهم عضلة أو جفن، هكذا يقفون صامتين، لأن ريحا غريبة عبرتهم لأن لوثة ما أصابتهم، لأنهم كانوا قد أصبحوا ممسوسين.

تتعالى فجأة أصوات قوية مألوفة، أصوات من صميم الحياة اليومية الآمنة تطرق مثل قلب سليم قوي، أصوات رتيبة مُعتادة من سنوات.

بيمبام... بيمبام... بيمبام...

وتنطلق الإشارات.

المؤلف في سطور

ولد جرابينسكي في ٢٥ / ٥ / ١٨٨٧ في (كامينوكا سترومييووفا) على نهر بوغ لأب قاض وأم معلمة للعزف على البيانو. درس الأدب البولوني واللغات القديمة. تنقل بين بولونيا والنمسا وإيطاليا ورومانيا. توفي في ١٢ / ١١ / ١٩٣٦.

من مجموعاته القصصية (على قمم الورود (١٩١٨)، روح الحركة (١٩١٩)، الجمعة المجنونة (١٩٢٠)، قصة غير عادية (١٩٢٢)، كتاب النار (١٩٢٢).

من رواياته: السالاماندر (١٩٢٤)، الدير والبحر (١٩٢٨)، جزيرة ايتونغو (١٩٣٦).

الإمبراطور العجوز

تأليف: إسماعيل كاداريه
ترجمة: عبد اللطيف الأرناؤطي

كانت الزيارة الأولى التي يقوم بها الإمبراطور الإيطالي للأرض الألبانية، تلك الأرض لم تطأها قدمه من قبل، وقد ألحقت أخيرًا بإمبراطوريته الواسعة. لقد حدثوه عنها، إنها بلاد ساحرة، جبالها شامخة وأساطيرها عريقة، ورجالها أشداء، فلما شاهدها الإمبراطور أول مرة، تأكد في سره (أن ألبانيا ذات طبيعة ساحرة حقًا)، وارتاحت عيناه وهو يسرح نظره من سيارته المكشوفة في امتداد الجبال في الأفق.. فخاطب نفسه:

من حسن حظنا أن تغدو هذه الأرض تابعة لنا، ومن الأجدر بنا أن نستمتع بأرضنا لا بأرض غيرنا.

تمت الزيارة في الصباح، وكان النسيم يهبّ منعشًا، فالتفت الإمبراطور إلى رئيس وزراء ألبانيا مرافقه، والذي استقبله، وتبادلا بعض الجمل والكلمات الترحيبية، وضحك الإمبراطور، ثم أقلّتهما سيارة مكشوفة انطلقت بين الجماهير المحتشدة، تتقدمها وتتبعها سيارات الحرس. كان أفراد الحرس قساة

الملامح، وكانت الريح تعبث بريش خوذهم المتعالية بأبهة وكبرياء، وقد ألِفَ الإمبراطور لون بزّات جنوده الأخضر، وبريق خوذهم الذي يعكس ظلال الطبيعة كلها بما فيها من جبال وسحب متقطعة.

«الأرض كلها أصبحت أرضي..» قال الإمبراطور في سره «غير أنني الآن عجوز كهل، لا أتمتع بالرحلات، ولذة كشف المناطق المجهولة»، كان الإمبراطور يسرّح بصره بين حين وآخر، متفرسًا في السكان المحليين بأزيائهم القاتمة ورءوسهم المعصوبة بالمناديل وهم يسيرون على جانبي الطريق، فرادى أو جماعات أو وراء خيولهم، فيردد في سره معتزًا:

«هذه هي رعيتي الجديدة!».

ورفع رأسه وهو يستعرض ذرى الجبال السامقة، وأسرّ لرئيس الوزراء هامسًا:

طفت في دول قصية، وزرت بلدانًا مختلفة، لكني لا أشعر الآن بأي متعة، ربما لأنني طعنت في السن، أو لعل قلة اكتراثي بسبب شيخوختي.

وحاول بذاكرته المجهدة أن يتذكر البلدان التي زارها، كانت أكثر من أن تُحصى أو تبقى في الذاكرة، وقد سئم لكثرة تجواله، فاختلطت عليه الصور حتى بات يتحدث عن بلدان زارها، لكنه في الواقع لم يزرها قط.

تُرى.. هل زار إفريقيا حقًا؟ هل داست قدمه رمالها المحرقة؟ وهل مرّ ببلاد الحبشة القصية، التي كانت جزءًا من إمبراطوريته؟

إنه يؤكد ذلك بينما هو لم يزرها.

أهذه الأرض حقًا هي أرضنا؟

راوده السؤال لأنه لم يشعر وهو فوقها كأنه فوق تراب بلده:

يا لهذه الجبال التي تبدو عالية القمم.. يا لهذه الطبيعة الغريبة التي تمنح كلّ أرض ملامح مميزة حتى في وجوه الناس.

وقفزت إلى ذهنه صور بلدان أخرى تابعة له.. منها أجزاء من القارة الإفريقية، ورعيته فيها ذات البشرة السمراء.

وأردف في سره: ما أوسع إمبراطوريتي، لكن كهولتي وعجزي البالغ يحولان بيني وبين التمتع بما أرى، لقد شخت حقًا على ما يبدو.

كانت صور الجسور وشارات الطريق والسحب الراكضة في السماء تنعكس على خوذ حراسه، ثم لاحت طلائع المنازل ومراكز التفتيش، وفي مدخل المدينة ظهر الناس في حشود متزايدة.. فقال الإمبراطور في سره:

«لا بد أنهم خرجوا جميعا لاستقبالي والترحيب بي، فهؤلاء هم شعبي ورعيتي، ليتني كنت شابًا إذن لاستمتعت بما أراه».

وانساق الإمبراطور لخياله وتصوراته التي تكشف عن قلقه وعدم يقينه: «هل عشت حقًا في ليالي إفريقية، ربما حدث ذلك أم كان ذلك وهمًا، فالمسألة ليست لها علاقة بالشيخوخة!».

ولاحظ الإمبراطور أن موكب السيارات يبطئ في مسيره كلما ازدادت حشود الناس على جانبي الطريق، فانتابه القلق.. وقال في سره:

«لا داعي لتوقع خطر ما، فليست هي المرة الأولى التي أشقّ فيها حشود الجماهير، فلم يقع أي خطر مفاجئ حتى في أيام شبابي، وهذا الشعب هو شعبي.. وأنا اليوم طاعن في السن».

كانت الجموع تتزاحم على جانبي الطريق، وهم يرمون طاقات الزهور على السيارة، والإمبراطور يلوح بيده، وقد نسي قلقه وتأملاته المتعبة، وانتصب واقفًا في سيارته المكشوفة وبجانبه وقف رئيس الوزراء الألباني يبادل الناس التحية، ويشاهد مئات من الحرس الإيطالي بقمصانهم السود، ومفارز من رجال الشرطة الإيطالية يسعون بين الناس.. وكلما تقدم الموكب ازدادت الحشود عددًا، قال الإمبراطور: «ألم يكن بالإمكان توسيع هذه الطريق للحيلولة دون اقتراب هذه الحشود من السيارة»، ثم أضاف: «ربما كانوا مخلصين لإمبراطورهم، ويرغبون في رؤيته، لكن لا مسوّغ لهم في الاقتراب من السيارة».

وتعالت الهتافات: «عاش الإمبراطور».

كان رجال الشرطة الإيطالية بقمصانهم السود موزعين في كل مكان بين الحشود يهتفون، وقد بدوا كبقع قاتمة في جسد جمهور محتشد بألوان متعددة.. وعلّق الإمبراطور الذي بدأ يتفرس في ملامح وجوه الناس القريبة منه.. كانت وجوههم لا تُفصح عن أي شيء.

«الطريق طويلة، ولا أقوى على البقاء واقفًا كل هذه المدة».

والتفت إليه رئيس الـــوزراء، وهمس في أذنه بكلمات وهو يبتسم، لكن الإمبراطور المجهد من الوقوف لم يفهم منها شيئًا بسبب جلبة المشهد، ولم يكن يرغب إلا في قطع الطريق سريعًا ليجلس.

ومضى الموكب حتى كاد يبلغ مركز المدينة، وتضاعف عدد الحشـــود وشـــقّ الموكب صفوف التلاميذ، ولم يبق أمامه إلا جمهور من الرجال البالغين، وفوقهم أعلام ترفرف في النسيم المشبع بالرطوبة.

كانت قدما الإمبراطور محاطة بمئات من الأزهار المضمومة، فقال في سره:

«لمّا كان المشهد خاليًا من أي إزعاج حتى الآن، فمن المستبعد أن يحلّ مكروه وأنا في هذه السن، لكن مَنْ يدري ربما كان بين هذه الطاقات قنبلة»، وأخذ ينظر بفضول إلى أكوام الأزهار وهي تتنامى حول قدميه.

وفي الجهة اليمنى بدت ثلة من الراهبات يرفعن أيديهن محييات الإمبراطور، فردّ التحية وهو يردد في سره: «هذه زهرات شعبي حقًا».

وخيّل إليه أنه لم يبلغ بعدُ العمر المرذول من العجز والشيخوخة، وأنه يحتفظ ببعض ما يثير لديه البهجة والفرح لولا تلك الوجوه الجامدة التي تستقبله ولا تفصح عما في أعماقها، وكأنها صحراء قاحلة مجدبة.

وانقطعت سلسلة خواطره فجأة على صيحة امرأة من الجهة اليسرى أعقبها صوت طلقة من مسدس.

«احموني!».

صاح الإمبراطور، وما إن أتمّ استغاثته حتى تبعت الطلقة طلقتان متواليتان، وارتفعت صيحات الجماهير، وتوقفت السيارات، ووثب الحرس نحو الحشد، وهم يشهرون خناجرهم البراقة تحت أشعة الشمس، وطوّق حشد آخر من الحرس سيارة الإمبراطور مشكلين جدارًا من صدورهم.

«ستبدأ المجزرة الآن».

هكذا خُيّل للإمبراطور وأردف: «لكنني مازلت على قيد الحياة ومازلت الإمبراطور».

وفي ساحة المدينة، توقف موكب السيارات الفخمة، وسيارات

الحرس، وترجّل الإمبراطور ووراءه حاشـيته من الإيطاليين بملابسهم السود وقد أحاط به حرّاسه من كل اتجاه.

«هذا هو المعتدي».

قالوا للإمبراطور وهم يشيرون إلى مشنقة، فرفع الإمبراطور بصره ونظر بعينيه المكدودتين إلى الجسد المعلّق بحبل المشنقة، وقد لفّ بكفن أبيض، وكأنه شبح تهزه الرياح الرطبة، وتمعن الإمبراطور في وجه الرجل فبدا له شابًا في ريعان عمره، وسأل عنه فقيل له: هو في السابعة عشرة، ظل الجسد يتأرجح في الفضاء كأنه رقّاص ساعة يعدّ سني عمره.

وقال وزير الداخلية للإمبراطور: «كان مسدسه يا سيدي مخفيًا في طاقة زهر، كما تختفي الذبابة بين الأزهار، ولذلك صعب علينا العثور عليه.

ارتعدت فرائص الإمبراطور وقال: «على المرء أن يحترس حتى من الأزهار!».

ورفع الإمبراطور نظره المتعب إلى الجسد المعلّق، واستعرض رجال حاشيته الصامتين بملابسهم السود، ومن ورائه كانت السحب الرمادية تجري في السماء.

في تلك اللحظة خيّل للإمبراطور أنّ الفتى اليافع المعلّق، يعدّ سنوات عمره التي لا تنتهي.

الكلمة

تأليف: فلاديمير نابوكوف
ترجمة: كامل يوسف حسين

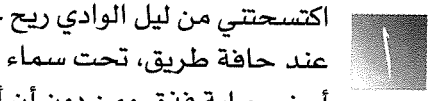

اكتسحتني من ليل الوادي ريح حلمية مستلهمة، فوقفت عند حافة طريق، تحت سماء ذهبية نقية صافية، في أرض جبلية فذة. ومن دون أن أنظر، أحسست بالبريق، الملائكة، نتوءات الصخور الفسيفسائية الهائلة، والهوات المتألقة، والوهج الشبيه بالمرآة للبحيرات المترامية الممتدة في مكان ما في الأسفل، خلفي. هيمن على روحي شعور بتقزح لوني سماوي، حرية، وسمو. عرفت أنني في الفردوس.

في قلب هذه الروح الأرضية انبعثت خاطرة أرضية واحدة مثل لهب يمضي مخترقًا، ويا للغيرة، يا للجهامة التي حرستها بها من هالة الجمال الشامخ التي أحاطت بي. هذه الخاطرة، لهب المعاناة العاري هذا، كانت خاطرة موطني الأرضي. عاريًا ومفلسًـــا، عند حافة طريق جبلي، انتظرت المقيمين اللطفاء المتألقين في عليين، فيما كانت رياح تشبه إرهاص معجزة تتلاعب بشعري، تملأ الممرات الضيقة بهمهمة بلورية، وتموج شواشي الأشجار الأسطورية التي تفتحت براعمها وسط الصخور التي

تحف بالطريق، لعقت أعشاب طويلة جذوع الأشجار كألسنة من نار، تداعت زهور كبيرة في نعومة من الغصون المتألقة، ومثل أقداح يحملها الهواء مترعة بسنا الشمس انزلقت عبر الهواء، ناثرة بتلاتها الشفافة المحدبة، فذكرني عبقها اللطيف الرطب بكل الأشياء الأكثر روعة التي عايشتها في حياتي.

فجأة، امتلأ الطريق الذي كنت أقف عليه، متقطع الأنفاس من الوميض، بعاصفة من الأجنحة، فقد أقبلت الملائكة محتشدة من الأعماق التي تخطف الأبصار. انتظرت، أجنحتها المطوية مندفعة بحدة إلى أعلى. كان خطوها أثيريًا، وكانت تشبه سحبًا ملونة تنطلق منداحة، وسيماها الشفافة ساكنة، باستثناء الارتجافة الجذابة لأهدابها المتألقة، وفيما بينها حلقت طيور لازوردية بكركرات من ضحك الصبايا المترع سعادة، وتبخترت حيوانات لدنة، برتقالية، رقشت على نحو رائع باللون الأسود. التفت المخلوقات عبر الهواء، دفعت في صمت مخالبها الحريرية لتمسك الزهور المتماوجة في الهواء، فيما هي تدوم وتعلو، متجاوزة إياي بعيون متألقة.

أجنحة، أجنحة، أجنحة! كيف يمكنني أن أصف التفافاتها ودرجات ألوانها؟ كانت جميعها قوية ولدنة سمراء مصفرة، أرجوانية، زرقاء قاتمة، سوداء قطيفية، مع غبار ناري على الأطراف المستديرة لريشها المحنى، مثل سحب غائرة استقامت، مشرعة على نحو جليل فوق أكتاف الملائكة المنيرة، بين الحين والآخر كان ملاك، في نوع من الانتقال المذهل، كأنما عجز عن كبح جماح بهائه، يطلق العنان لحسنه المجنح فجأة، للحظة واحدة، وكان ذلك مثل اندفاعة لسَنَا الشمس، مثل تألق مليون من العيون.

مرت في جموع محتشدة، محدقة باتجاه السماء، كانت عيونها مثل صدوع مترعة فرحًا، وفي تلك العيون رأيت ترخيم التحليق عاليًا. أقبلت بخطو منسل، والزهور تترامى عليها. نثرت الزهور بريقها الرطب في غمار التحليق، تلاعبت الحيوانات الرشيقة المتألقة، مدومة ومتسلقة، غردت الطيور مفعمة بالقداسة، وهي تحلق عاليًا، وتمضي خفيضة. وقفت، أنا الشحاذ المرتجف الذي خطف ناظراه، عند حافة الطريق، وفي أعماق روح الشحاذ الذي كنته، ترددت الخاطرة نفسها: اهتف بهم، حدثهم - أوه، حدثهم بأنه على أروع نجوم الرب هناك أرض - أرضي - التي تحتضر في ظلام معذب. ساورني الشعور بأنه إذا كان بمقدوري أن أمسك بيديّ ألقًا واحدًا مرتجفًا، فإنني سأجلب إلى بلدي بهجة غامرة للغاية بحيث إن الأرواح البشرية ستتألق في التو، وستدوّم تحت رذاذ وقعقعة الربيع الذي بعث من جديد، حيال الرعد الذهبي للمعابد التي أعيد إيقاظها.

مددت يدين مرتجفتين، مناضلًا لاعتراض طريق الملائكة، شرعت في التشبث بأطراف أرديتها الكهنوتية المتألقة، الأهداب الكثيفة المتماوجة لأجنحتها المحدبة، التي انزلقت من بين أصابعي كزهور ملساء. انبعث الأنين مني، واندفعت متخبطًا، ابتهلت مضطربًا من أجل انتباهها لي، ولكنها مضت قدمًا، غافلة عني، ووجوهها المنحوتة نحتًا متجهة إلى أعلى. تدفقت ذرافات إلى مأدبة سماوية، إلى فرجة في غابة لامعة على نحو لا سبيل إلى احتماله، حيث تكثفت وتنفست قداسة لست أجرؤ على التفكير فيها. رأيت بيت عنكبوت ناريًا، رذاذًا، أشكالًا على أجنحة عملاقة قرمزية، خمرية، أقحوانية، وفوقي مرّ حفيف أملس أمواجًا. مضت الطيور اللازوردية المتوجة بقوس قزح

تتقر، ونأت الزهور محلقة في ابتعادها عن الغصون المتألقة. «انتظر! اسمعني!» هكذا صحت، محاولاً معانقة ساقي ملاك متطايرتين، لكن القدمين اللتين لا سبيل إلى الإمساك بهما وتستعصيان على الإيقاف انزلقتا من بين يدي المتدتين، وأحرقت حواف الأجنحة العريضة شفتي فحسب فيما هي تجتازني. في البعيد، كان صفاء ذهبي بين الصخور المخضرة المترعة بالحياة يمتلئ بالعاصفة المندفعة، كانت الملائكة تتراجع، كفت الطيور عن ضحكها العالي المفعم بالنشاط، لم تعد الزهور تحلق فوق الأشجار، تزايد ضعفي، هيمن عليّ الصمت.

ثم حدثت معجزة، تريث أحد آخر الملائكة، التفت، ودنا مني في هدوء. لمحت عينيه الغائرتين، المحدقتين، الماسيتين، تحت قوسي حاجبيه البهيين. تألق على انحناءات أجنحته المفرودة ما بدا أنه صقيع. كانت الأجنحة ذاتها رمادية، درجة تفوق الوصف من اللون الرمادي، وانتهت كل ريشة بمنجل فضي. ذكرني مرآه، الخط الخارجي الباسم هونًا ما لشفتيه، وجبينه المستقيم الوضاء، بملامح كنت قد عرفتها على الأرض. الانعطافات، الألق، جاذبية كل الوجوه التي كنت قد أحببتها - ملامح أناس كانوا قد رحلوا منذ زمن بعيد عني - كل ذلك بدا أنه يبرز في سيماء واحدة رائعة. كل الأصوات المألوفة التي احتكت على نحو منفصل بسمعي بدا الآن أنها تندمج في نغمة واحدة كاملة.

أقبل عليّ، ابتسم. لم أستطع النظر إليه، لكنني ألقيت نظرة على ساقيه، فلاحظت شبكة من عروق لازوردية على قدميه ووحمة شاحبة. من هذه العروق، ومن تلك البقعة الصغيرة فهمت أنه لم يتخل بعدُ عن الأرض كُليَّة، وأنه قد يتفهم ابتهالي.

عندئذ أحنيت رأسي، ضغطت راحتي يدي المسفوعتين،

المكسوتين بصلصال متألق، إلى عيني اللتين أوشك العمى أن ينال منهما، وبدأت في سرد أحزاني. أردت أن أوضح كم هي رائعة أرضي، وكم هو مروع ترديها الأسود، لكنني لم أعثر على الكلمات التي احتجتها. مضيت أهذي، مسرعًا، مكررًا قولي، عن توافه الأمور، عن دار محترقة، حيث كان ألق الأرضية الخشبية ينعكس يومًا في مرآة مائلة. دمدمت متحدثًا عن كتب عتيقة وأشجار زيزفون بعد بها العهد، عن حلي صغيرة تافهة، عن قصائدي الأولى في كراسة صبي فضية البياض، عن جلمود رمادي كَسَتهُ أشجار توت العليق، وسط حقل مليء بزهور الجرب وزهور اللؤلؤية الصغرى، لكنني لم أستطع التعبير عن الأمر الأكثر أهمية. تفاقمت حيرتي، توقفت عن الحديث، بدأت مجددًا، ومن جديد، في غمار حديثي اللاهث العاجز تكلمت عن غرف في دار ريفية بديعة، حافلة برجع الأصداء، عن أشجار زيزفون، عن حبي الأول، عن نحلات طنانة غافية على زهور الجرب. بدا لي أنه في أي لحظة – سأصل إلى ما كان أكثر أهمية، سافر حزن موطني بأسره.

ولكن لسبب ما لم أستطع أن أتذكر إلا أمورًا تافهة، دنيوية، تمامًا، عجزت عن الحديث، عن سفح تلك الدموع الغزيرة المتقدة، التي أردت الحديث عنها، لكنني لم أملك إلى ذلك سبيلًا.

لزمت الصمت، رفعت رأسي. ابتسم الملاك ابتسامة هادئة، حانية، حدّق في بعينيه النجلاوين، فأحسست بأنه فهمني.

«اغفر لي!» هتفت مستخزيًا، مقبلًا الوحمة التي تعلو قدمه المتألقة. «اغفر لي أنني لست قادرًا إلا على الحديث عن الأمور سريعة الزوال، محدودة الأهمية. وعلى الرغم من ذلك فإنك يا ملاكي الرمادي العطوف تتفهم جلية الأمر. أجبني، ساعدني،

حدثني، ما الذي يمكن أن ينقذ أرضي؟».

احتضن الملاك للحظة كتفيّ بأجنحته التي تحاكي الحمام، نطق كلمة واحدة، وفي صوتــه تعرفت إلى كل تلك الأصوات الحبيبة التي نال منها الصمــت. كانت الكلمة التي ندت عنه بالغة الروعة إلى حد أنني أغمضــت عينيَّ متنهدًا، وأحنيت رأسي أكثر. ســرى عبق الكلمة ونغمها في شراييني، وأشرق مثلما شمس داخل دماغي، التقطت التجاويف التي لا حصر لها في وعي أنشودتها الفردوسية المتألقة وكررتها. أفعمتني. وشأن أنشودة محكمة نبضت داخل صدغي، ارتجفت نداوتها على أهدابي، انتشرت برودتها العطرة في شعري، وانهلت دفئا سماويًا على قلبي.

هتفت بها، انتشــيت بكل مقطع من مقاطعها، رفعت على نحو عنيف عينيّ اللتين ملأتهما أقواس قزح متألقة من دموع مترعة بالبهجة.

أوه، يا إلهي! الفجر الشــتوي يتوهج ضاربًا إلى الخضرة في النافذة. ولست أذكر أي كلمة كانت تلك التي صِحْت بها عاليًا.

مونولوج المرأة التي اكتشفت الأناناس

تأليف: بارزو عبدوالرزوقوف
ترجمة: عبد الله كرمون

من كان يتوقع أن تصل بي الأمور إلى هذا الحد؟ لأنه من الغباء أن يُتخلى عني أليس كذلك؟ مع ابن في العشرين من عمره، وهو مقبل على الزواج، ومع بنت في عامها السادس بعد العشرة، يلزم تزويجها هي الأخرى عما قليل.. لنقل إنه لا يفصلني سوى زمن قصير عن أن أصير جدة! جدة! ولم أبلغ الأربعين بعد.. لكنه لم تظهر بعد في رأسي أي شعرة بيضاء! يمكنكم المجيء، بكل تأكيد، من أجل التحقق بأنفسكم من ذلك: إنني لا أصبغ شعري، وهذا هو لونه الطبيعي وليس صباغة. لا تظهر على وجهي أي تجاعيد فوق كل ذلك.

قد تكون ثمة واحدة أو اثنتان فقط جنبي العينين. لكن الحياة هي التي أرادت ذلك. طالما حرصنا على مظهرنا، وبذرنا المال حد الإفلاس، في شـــراء الدهون والمراهم.. ثم قِطع الخيار الدائرية أثناء الصيف، والمخمر بالحامض خلال الشتاء، كل هذا ينعش قليلا، على كل حال. ثم إن ذلك يحدث أثرا حسنا وبالغا، لكن ليس كل يوم، بطبيعة الحـــال، لكنكم لن تزعموا

العكس، فذلك يحدث أثرا طيبا وعظيما عندما يكون بوسعنا القول بأنه خلال ساعة أو ساعتين فقط، في خضم ساعة أو ساعتين لا تكادان تذكران، سيكون بمقدورنا معاودة الأمر من جديد، أي كل شيء، انطلاقا من الصفر: الحب، الزواج، بما فيه شهر العسل كل هذا لا يعني أي شيء بالنسبة إليكم، أليس كذلك؟

آه، كل أحاسيس الحمل الأولى كلها، أظن أنني لن أنساها أبدا! شرع قلبي يخفق خفقانا شديدا، بومْ.. بوم.. بوم.. بوم، خيل إلي أنه سوف يقفز خارج صدري. أما أنا فقد نسيت نفسي، وكاد يغشى علي.. من شدة الفرح.. ومن الهلع أيضا. ثم، تساءلت بيني وبين نفسي، في اللحظة ذاتها، أيّ اسم سنمنح له. لأنني علمت في الحين بأنه طفل. كما لمحت في لحظة خاطفة، وجهه الصغير، شفتيه الصغيرتين، ذقنه الصغير وأصابعه الصغيرة والرفيعة جدا. أنظر إليه وهو ملتصق بي، متعلق بصدري ومنشغل بالرضاعة بشراهة.. حتى أنني أستطيع أن أشم، في هذه اللحظة، رائحته، رائحته الخاصة به، رائحته التي سوف أستطيع أن أستنشقها يوما ما كما هي. فاللائي خبرن هذا الأمر سوف يفهمنني. لم يكن حملي، مع ذلك، سهلا، فقد كنت أُصاب بالغثيان طيلة الوقت، ليل نهار. كنت شرسة مع الجميع. كنت أقول في نفسي إن الأمر سوف ينتهي بزوجي إلى ألا يطيقني، وإنه سوف يتركني ويغادر، طالما كنت غير محتَملة. لست أدري لماذا كنت هكذا، ولا أستطيع حتى تفسير ذلك. أما هو، فقد بات يمقتني بغتة. وأنا، كبلهاء، كنت عاجزة عن أن أقول له أي شيء ولو حتى أنني أحبه، كي أهدئ من روعه قليلا. فيما يخص هذا الأمر فقد أحببته! أحببته،

إلى درجة أنه لو جعل سوءُ الحظ ابنَه لا يشبهه لعمدت إلى قتله! هل تتصورون ذلك؟ أن تقتل امرأة ابنها لو جعله سوء الحظ مختلفا عن أبيه! لكن ذلك كان عهدي الأول بالحب، كنت غريرة، غير كيسة بعد كما ينبغي. إذ كنت، ببساطة، مبتهجة بكوني محبوبة.

شاهدت ذات يوم على التلفاز إشهارا لعصير فاكهة فاكهة غريبة، ضخمة، صفراء، وأوراقها مرتفعة إلى أعلى، واشتهيتها هكذا، بشكل جنوني، دون أن أعرف حتى بماذا نسمي هذه الفاكهة، ودون أن أدرك أيضا أين تنبت. كان ذلك أقوى مني: يجب أن يؤتى لي بها أو سوف أُصاب بشيء! تلفنت إلى زوجي في مقر عمله، العمل الذي حصل عليه المسكين بعد دفعه لرشوة هائلة، وحيث لا يتقاضى، في الواقع، راتبا مهما، ولكنهم يقولون له إن آفاقا مستقبلية سوف تفتح له. فإذا بي أعمد إلى الانتحاب عبر الهاتف، وألح عليه أن يعثر لي على تلك الفاكهة؛ يسألني: أي فاكهة؛ وأشرح له: التي تتخطى أوراقها إلى أعلى، مثل سلحفاة مقلوبة. فإذا به يتضايق، ويعدد لي كل فواكه الأرض. لا، أردد له، ليس هذا، ليس ذاك، وأجهش بالبكاء: لا، لا، ولا! وأنبح في العمارة مثل كلبة جائعة. أما هو فقد أقفل الخط، وهرول إلى السوق، وتفقد بَسطات الفواكه كلها، وهو يفتش عن «سلحفاة مقلوبة». لم يعثر عليها وأسرع إلى البيت لكي يرافقني إلى السوق حيث اكتشفت بنفسي، مثل بلهاء تعسة، أن هذه الفاكهة المنحوسة غير موجودة. لكنني ظللت أزعق، وبصوت مرتفع: «ولكن لا بد أن توجد هذه الفاكهة في مكان ما كي تظهر على التلفاز!»، لقد قضى المسكين الأمسية كلها متذمرا أمام التلفاز، شاحبا مثل ميت. لم يعرضوا مع الأسف

فاكهتي، هذا المساء، في قائمة الإشهار. لم يعيدوا عرضها إلا في صباح اليوم التالي وسط شريط سينمائي. فقفزت وتلفنت له في مكتبه مخاطبة إياه:

شـــغّل التلفاز فهو يعرض الفاكهة التي أريدها! ثم يشغله المسكين (صحيح أنني كنت مغرمة جدًا به حينها!)، لكنه أثناء بحثه عن القناة المعنية، انقضى الإشـــهار، غير أنني تمكنت هذه المرة من ضبط اسم تلك الفاكهة، اسم غريب: أناناس. لن أنسى أبدا اسما مماثلا، بقدر ما هو ملتو فهو ممتع في الآن نفسه: أ.. نا..ناس. لقد تمكنَ من أن يحصل، بفضل أصدقاء له، بطبيعة الحال، على علبة من ذلك العصير الذي أعلنوا عنه في التلفاز، وحتى على أناناس حقيقي. لكنه بدا لي بلا طعم بالمقارنة مع فكرتي التي نسجتها عنه في ذهني.

أحببته مع ذلك، هذا صحيح لقد أحببته.. أتعلمون ما تعنيه.. حفاظات الرضع، الكلمات الأولى.. أما هو فقد كان نشوان، وحصل له انطباع بأنه يملك أجمل أسرة في الكون: طفل يثغثغ، «أررره أررره»، ثم دار الحضانة، المدرسة، طفل ثان، وهذه المرة بنت.. بنت أبيها. سررت بكوني ولدتها، لأنه قبيل ولادتها، بدأ يتزعزع شيء في عشنا الصغير. لا أستطيع أن أقول لكم بماذا يتعلق الأمر تحديدا، لكن.. ذلك النوع من البرود، تعلمون، هذا البرود الذي نحس به بالكاد، ولكنه يعتصر قلوبنا مثل تيار هواء ينتهي به المطاف إلى أن يجمد دماءنا. هذا البرود الذي نستشعره بالكاد في البداية، يعمد إلى التضييق على وجودنا الذي كان من قبل هشا. إلى حين ظهور «تيار الهواء» ذاك، كان لدي انطباع برغبتي في أن أكون سعيدة أيضا قدر الإمكان، لم أستطع أن أفهم لماذا تبكي صديقاتي طوال الوقت، كنت في ذلك العهد

أظن أن بمقدورنا أن نحل كل المشكلات، وأنه يكفي من أجل ذلك أن نتحاب كثيرا، مثلما كان ذلك حالنا نحن الاثنين. أليس ذلك مضحكا، ليس صحيحـــا؟ «يكفي أن نتحاب..» كم نكون سذجا بقدر كبير عندما نكون سعداء، ونظن أن كل مشكلات العالم سهلة الحل. أما اليوم فالأمر صعب جدًا، صار كل شيء معقدا بشكل رهيب، وصرت غالبا أتذكر أكثر فأكثر صديقاتي اللائي يبكين كما كان يخيل إلي بسبب ترهات.

وُلدت ابنتنا أخيرا، كمـــا قلت لكم. لقد تطلب منا أن نجد اسما لها زمنا طويلا. أراد زوجي أن نسميها باسم مجهول هنا. لا يزال صوته يتناهى إلي وهو يعلن اسمين دخيلين، أجنبيين ولكنهما جميلان: لورا وجيوليتا، فكرت في الثاني. كان أبوا كل واحد منا وأخواته وإخوانه بالمرصاد جميعهم لنا. وتبادر إلينا أنه سيكون للآخرين كلهم الموقف نفسه منا: تعرفون أن الأهالي يرفضون أي نوع من التجديد. هذان الاسمان يروقان لي مع ذلك، غير أنني لست قادرة على التأثير في أحد، ولم يستطع زوجي هو أيضا أن يعترض على والدينا، لذلك خلصنا إلى تسمية ابنتنا «مدينة» بكل بساطة ومدينة اسم منتشر جدًا في بلدتنا.

تحل المصيبة دائما حيثما لا نتوقعها. مثل لص متربص في زاوية من الحي وعلى كتفه هراوة، في المساء الذي تعود فيه إلى بيتك بيدين محملتين بالهدايا. الشيء نفسه بالنسبة لتيار الهواء. ماذا قلت؟ تيار هواء، إعصـــار، نعم! أو بالأحرى، لا، قولوا لي شيئا آخر أكثر تدميرا: تسونامي هائل! زلزال بقوة ١٢ درجة على سلم ريختر! لا شيء أقوى، وأكثر إتلافا، أليس كذلك؟ لا شيء، لا. إذن نعم، تصوروا! شـــابة، شابة صغيرة

جدًا، تلميذة شاحبة في الصف النهائي، بوجه إنجليزية ناعم، قادرة على أن تجن أي رجل من كل فئات الأعمار. بعدما هدأت العاصفة، وحُطم كل شيء رأسا على عقب، علمت حينها فقط أين التقيا، من تكون هي. ولماذا فعلت هذا. في الواقع، أتعلمون؟ لن تحزروا أبدا. «فقط لكي أجرب!» بهذا أجابتني، في اليوم الذي طرحت فيه عليها السؤال.

جعل منـــي زوجي امرأة محطمة، قبـــل أن يختفي دون أن يخلف أثرا، ترك عمله، وأبدى كرها تجاه ابنيه، وألقى بأسرته في البؤس والإحراج.. لن أقول شيئا عن سكره فهُم، فوق كل هذا، يشربون جميعهم، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يغرق في الديون، قبل أن يختفي دون سابق إعلام. اختفى أب عائلة في الدنيا، وأهمل أهله، فقط وببساطة، لأن ذلك يهم أحدا، هكذا «فقط لكي أجرب!».

رأيت هذه البنت من جديـــد بعد مدة، لقد عرفتني ولكنها تظاهرت بأنها لم تعد تذكرني. عندما سألتها أين هو، أجابتني دون أن تتململ، وقد مررتْ أصبعا على جبهتها: «لم يُكتب هنا استعلامات!» انفجر الأشخاص الذين كانوا بمعيتها ضحكا، قلت في نفسي إن هذه الغبية لم تستطع حتى أن تستبقيه لها. قلت ذلك لنفسي، لم تكن لتفهم على كل حال. أي إشفاق هذا بالرغم من ذلك؟!

«العناكب الملعونة»

كتبها بالفارسية: محمد محمدي
ترجمتها: زبيدة علي أشكناني

لم نكن قد رأينا العنكبوت أبدا. فلقد كانت المرحومة أمي تقول إن وجود العنكبوت في المنزل غير مستحب. فهو يجلب الفقر والتعاسة. كنا خمس شقيقات، حيث إن كل أنواع السحر الذي استعملته أمنا- أثناء حملها من أجل أن تلد صبيا وتجعل أبي يكف عن انتقاداته- لم تجد نفعا. لقد كان أبي يتذمر دائما ويؤنب أمي قائلا: «لا أريد أن أترك أمر تجارتي في يد الغرباء».

لقد كرر هذا الكلام مرارا حتى أنه في النهاية ذهب وتزوج بامرأة أخرى. ومنذ أن عرفت أمي بزواجه مرضت من شدة الحزن وانتفخت حنجرتها وساء حالها يوما بعد يوم.

في الأيام الأولى لمرضها، حيث كانت لا تزال تملك بعضا من نشاطها، كانت تحاول بكل وسيلة ألا تدع مرضها يؤثر في سير الأمور المنزلية، فتجبرنا على كنس البيت مرتين يوميا وعندما يحل الربيع كانت تقوم هي بزرع أزهار البنفسج. وكان ورد الجيرانيوم في حديقتها موضوع حديث للجارات. كانت قد زينت الفناء كله بمزهرياتها وصنعت ممرا ضيقا بواسطة هذه المزهريات للوصول إلى أي نقطة في المنزل فكل

من يجتاز سلالم غرفة انتظار الضيوف ويدخل الفناء يصل عبر هذا الممر إلى الحوض أو غرفة الضيوف أو غرفة الجلوس.

في الأشهر الأخيرة التي سبقت زواجه، كان أبي يستعمل الممر الذي يؤدي إلى جناح الضيوف، حيث كان يتناول غداءه ويقضي الليل أيضًا هناك. كنت أنا -ابنته الكبرى- أضع غداءه أو عشـــاءه في صينية وآخذها له. لم يكن لوالدتي الحق في الذهاب إلى هناك. وبعد أن تزوج أبي لم يعد يأتي إلى المنزل ليلا، وكل بضعة أيام يدير المفتاح في الباب ويدخل غرفة انتظار الضيـــوف. حتى أنه لم يكن يدخل الفناء. ومن هناك يناديني:

أينقصكن شيء يا بنية؟

وكنت أخبره بكل ما نحتاج إليه. وفي نفس اليوم أو اليوم الذي يليه كان يأتي لنا الحمال بالحاجيات.

كان أبي يغلق الباب دائما ويذهب. لم يكن أحد يستطيع أن يأتي إلى بيتنا ولم يكن بإمكاننا مغادرة المنـــزل. وإن اضطرت أمي إلى الخروج لأداء عمل مهم، كانت تذهب عن طريق الســـطح إلى بيت الجيران، ثم تخرج من هناك مصطحبة أحيانا واحدة منا. ولكن لم تقم أي منا بهذا العمل دون والدتي، حيث إنها - مثل والدي - كانت محافظة جدا وكانت تقول دائما: «ليس من اللائق أن تخرج الفتاة إلى الطرقات والأسواق وحدها»، وكنا نحن نطيعها بسبب حبنا الشديد لها ولا نخرج من المنزل.

وفي يوم شتائي بارد تشـــتم منه رائحة الثلج ماتت أمي من شدة الكمد.

كانت هذه هي المرة الأولى التي نشاهد فيها عن قرب نحن الشقيقات الخمس موت شخص مذ التففنا حول أمي وبكينا نحن الخمس. كان الخوف قد استبد بنا، ليس من الموت، حيث إننا لم نجد فيه ما يدعو

إلى الاستغراب وإنما من عدم وجود أمنا. لقد كان فراقها غير ممكن بالنسبة لنا فلقد كان تعلقنا بها شديدًا.

كانت شقيقاتي ينتظرن أن أقول شيئا. وأنا لم يكن لدي ما أقوله. انقضت تلك الليلـــة. أتى أبي في الصباح الباكـــر وكالعادة لم يتعد غرفة انتظار الضيوف:

- أتحتجن إلى شيء يا بنية؟

لقـــد أردت أن أخبره بأن أمنا قد ماتت ولكننـــي على الرغم من محاولاتي لم أتمكن من ذلك.

- لا!

وذهب أبي وأغلق الباب. لم نبتعد عن جسد أمي. في الليل قطعت صمتي وقلت لشقيقاتي:

«سندفن أمي في الحديقة».

وجدنا المعول والمجرفة في القبو. أطفأنا النور في الفناء ولحسن الحظ كانت المدينة تغط في صمت عميق وتناوبنا على الحفر في الحديقة بواســـطة المعول أو المجرفة، وعندما أصبح القبر جاهزا وضعنا أمنا فيه وألقينا عليها التراب. وعدنا إلى الدار. إن شقيقاتي كن يرتعدن من الخوف. قلت «لم ترتعدن؟».

- إذا عرف والدنا فإنه سيهلكنا ضربا!

حاولـــت أن أطمئنهن قائلـــة: «لا تخفـــن لن يعرف شـــيئا على الإطلاق».

ولكن لم يصدقن، وقالت أختي الصغيرة، التي كانت أكثرهن خوفا: «عندما يأتي أبي في الغد سأخبره. يجب أن يعرف أي مصيبة حلت بنا».

كان أبي عندما يريد أن يضربنا يخرج سوطًا من صندوق يحتفظ بمفتاحه. في أحد الأيام عندما أتى إلى غرفة انتظار الضيوف أعطاني

مفتاح الصندوق وقال لي: «إن أرادت أمكن أن تعاقبكن فهذا هو مفتاح الصندوق»، لم أعط المفتاح لأمي أبدا. لقد خبأته في مكان ما.

ذهبت وأتيت بالمفتاح. فتحت الصندوق وأخرجت السوط وانهلت به على جسد أختي.

ضربتها بالسوط على ظهرها حتى فقدت الوعي. أما بقية شقيقاتي فقد استوعبن الدرس جيدا.

تساقط الثلج بشدة في تلك الليلة وغطى أرض الحديقة. لم يأت أبي لمنزلنا لمدة أسبوع وعندما أتى- كالعادة- لم يتعد غرفة انتظار الضيوف ولم يضف شيئًا لما كان يقوله في الماضي:

- أتحتجن إلى شيء يا بنية؟

- ليس لدينا زيت للوقود ولا بقول.

كنت أرتعد من الخوف. ولكن أبي الذي كان يقف في ظلمة غرفة انتظار الضيوف لم يلحظ ذلك.

وهكذا، اعتدنا أنا وشقيقاتي هذا الوضع. كنت أنا كبيرة المنزل ولم تكن لدى شقيقاتي الجرأة على القيام بأي عمل دون موافقتي. كنت في كل يوم أجد مبررًا لضرب واحدة منهن. لا أحد يعلم إلى أي حد كنت أتلذذ من عملي هذا. كنت أشعر بالارتياح. لقد كنت أنتقم. كنت أقوم بما كان يفعله أبي بي في الماضي.

لقد أصبحت شقيقاتي مطيعات. لقد اختلفن عما كن عليه في الماضي في شيء واحد وهو أنهن لم يعدن يتحدثن معي. كن يجبن على ما أقوله بلا أو نعم فقط. لقد أصبحت أبا بالنسبة لهن، حيث إنني كنت أنام ليلا في حجرة أبي.

انتهى الشتاء وفي رأس السنة (٣) أتى أبي إلى منزلنا. لقد اجتاز غرفة انتظار الضيوف ودخل الفناء، كانت كل المزهريات قد جفت وذبلت.

- لم جفت المزهريات يا بنية؟
- لَقد أيبسها البرد!
- لم لم تضعها أمكن في غرفة الزهور؟
- لم تستطع. لقد كانت مريضة.
- كان من المفروض أن تقمن بمساعدتها وتأخذن الورد إلى غرفة الزهور.
- لم تطلب منا ذلك.

صعد السلالم ودخل غرفة أمي، كانت شقيقاتي الأربع في الحجرة.

- أين أمكن إذن؟
- لم تجب شقيقاتي فرجع أبي ونظر إلي.
- لقد ذهبت أمنا.

قلت ذلك بصوت خفيض وأدركت أنه لم يسمعني.

- قال إلى أي مقبرة ذهبت هذه المرأة؟

هذه المرة أجبت بصوت عال:

- «لقد أتى خالي وأخذها».
- متى؟
- قبل عدة أيام.

بدأ يسب أمي ويلعنها. وطبعا لم يستغرب أنها خرجت، حيث إنه كان يعلم أنها تخرج أحيانا من منزل الجيران.

- إلى الجحيم. فلتلاقي الموت حيثما ذهبت. إن المرأة التي تخطو خارج البيت دون إذن زوجها لا تعد امرأة، ويجب أن تموت.

عندما هدأ قليلا قال: «ألم تأخذ معها شيئا؟».

- لا!
- أمتأكدة أنت؟

– نعم.

لم يصدق ما قلت، وفتش المنزل بنفسه وعندما تأكد أن أمي لم تأخذ شيئا معها قال:

– قد ترجع، في هذه الحالة لن تسمحوا لها بالدخول حتى أقوم بتصفية حسابي معها! لم أجبه. عندما أراد أن يترك المنزل قال:

– انتبهي لشقيقاتك. إن السوط الذي في الصندوق هو ملكك إذا عصين أوامرك فاحرقيهن به.

لم يكن يعلم أنني كنت أقوم بهـذا العمل منذ زمن طويل. ولكنني أصبحت أكثر استعمالا للسوط منذ تلك الليلة التي تحملت فيها هذا العمل بشكل رسمي.

لم أسمح لشقيقاتي أبدا بأن يقمن بتنظيف المنزل أو أن يسقين الحديقة. لقد أحرقت المكانس ورميت رمادها في البئر. تغير وضع بيتنا تدريجيا. لقد ظهرت العناكب واحدة تلو الأخرى، وهي التي لم يكن لها أي وجود في منزلنا على الإطلاق. لقد امتلأ المكان بها: في المطبخ الذي كان ملاصقا للقبو.. في مخزن المؤن الذي كان ملاصقا لغرفة أمي، كانت العناكب تحيك خيوطها وتتكاثر. لم يكن لشقيقاتي أي عمل سوى النظر إلى العناكب. لقد كان هذا شغلهن الشاغل من الصباح حتى غروب الشمس. كنت أراهن يتهامسن ولكن بمجرد رؤيتي كن يلزمن الصمت. ولم أعرف عمـا يتحدثن واعتقدت أنهن يقمن بنميمتي. ولذلك منعتهن من الحديث وهن لم يجرؤن عليه بعد ذلك، كان المنزل يغط في الصمت، حتى أنه لم يكن يختلف عن أي مقبرة، عدا أنه عندما كنت أرفع سوطي وأنهال به ضربا على أجسادهن كان يسمع لوقت قصير، صوت لسعات الصوت وصراخهن.

إلى أن كان يوم لاحظت فيه غياب أختـي الصغيرة أثناء تناولنا الفطور.

- أين هي؟

لم تجب أي واحدة من شقيقاتي الثلاث. أخذت السوط وانهلت به ضربا. ضربتهن لأكثر من نصف ساعة حتى قامت في النهاية إحداهن بالإشارة صوب المخزن. ذهبت إلى هناك ولكني لم أجد أختي الصغيرة. غير أنه كانت هناك عنكبوت سمينة معلقة في السقف وفي فمها قطعة من رداء أختي الصغيرة تقوم بابتلاعها على عجل. أردت أن أضرب العنكبوت بسوطي، ولكن لم يهن علي ذلك: لا أدري لمَ.

رجعت إلى حجرة أبي. ارتديت ملابسه ووضعت قلنسوته على رأسي ورميت ملابسي في الموقد. أحرقتها ودفنت رمادها تحت التراب.

في اليوم التالي اختفت واحدة أخرى من شقيقاتي. لم أضرب الاثنتين الباقيتين. ذهبت مباشرة إلى المخزن لقد كانت هناك عنكبوت أخرى بجانب العنكبوت السابقة. كانت هي الأخرى تبتلع القطعة الأخيرة من ملابسها.

في اليوم الرابع اختفت أختي الرابعة. لقد أصبح هناك أربع عناكب كبيرة تحيك خيوطها في المخزن.

انقضت سنة لم يأت فيها أبي للسؤال عنا. غير أن عامله العجوز كان يأتي إلى البيت مرة في الأسبوع. كان يقف في غرفة انتظار الضيوف ويجلب كل ما نحتاج إليه مع الحمال ويضعه هناك ويرحل.

لقد ظهر أبي في يوم رأس السنة. اجتاز غرفة انتظار الضيوف وتقدم إلى الفناء. لقد غضب كثيرًا عندما وجدني مرتدية ملابسه.

- لماذ ترتدين ملابسي يا بنية؟

- لم يكن لدي ما ألبسه.

- حسنا! كان يجب أن تخبريني حتى أشتري قماشا وأبعث به إليكن.

صعد الدرج، فتح باب الغرفة، لم ير شقيقاتي.

- أين، إذن شقيقاتك؟

- في المخزن!

ذهب أبي للبحث عن شقيقاتي فى المخزن. أريته العناكب الأربعة، ازرق وجهه من شدة الضيق.

- أهكذا تكون المحافظة على شقيقاتك؟

-هن اللواتي أردن أن يصبحن عناكب.

- لم يكن من المفروض أن تتركيهم. يفعلـــن ذلك. لقد كنت أنت المسئولة عنهن، اذهبي الآن وأحضري سوطي.

ذهبت إلى حجرته وأحضرت السوط وألقيت به عند قدميه.

أخذ السوط وقام بضربي إلى أن تمزقت ملابسي على جسدي، عندما انتهى من عمله طوى السوط ووضعه في جيبه ثم ترك المنزل، قمت بلف قطعة قماش حول جسدي وذهبت إلى المخزن، كنت أبتلع القماش رويدا رويدًا حتى أصبح مثلهن، كن يلعن أنفسهن لأنهن جعلن بناتا ويلعنني لأنني جعلتهن عناكب. وأنا أيضا كنت ألعنهن لأنني كنت أختهن الكبرى.

مُرَبِّي البطّ

تأليف: مويان
ترجمة: يارا المصري

بحيرة تشين تساو في داخلها كثيرٌ من السمك والجمبري، ويحيطها العديد من النباتات الخضراء المزدهرة الوارفة. وللسكان الذين يعيشون حول هذه البحيرة منذ أقدم العصور، عادةُ تربيةِ البطّ. كما أن هذا المكان مشهورٌ بمنتجاته من بيض البطِّ الجيد. وكان ثمة زمن، وقع فيه السكان تحت قوانين (قطعُ ذيل الرأسمالية)، وتلاشت تلك العادة. لكن القوانين أصبحت جيدة منذ سنوات عدة، ومن حينها تأتي أسرابُ البطِّ كالسحاب الأبيض الذي يتحرك بهدوء.

لي لاو جوانغ متخصص في تربية البطِّ. كل يوم يدفع القارب بالزانة ويتبع سرب البطِّ الذي يسبح أمامه في رشاقة. ويحيط بالبحيرة ثماني عشرة قرية، وفي كل قرية شخصٌ يُطلِقُ مجموعات البطِّ في الماء. يوجد (لاو خان)، وفتاة، ولأنهما يلتقيان دائمًا في البحيرة، فهما منسجمان في ما بينهما.

في الربيع، تظهر براعم أشجار الصفصاف، وتتفتح أزهار الدرّاق، أما أزهار المشمش فتكون في عنفوان تفتحها، وينمو

عشـــبٌ طريٌ ندي، حينها يبدأ مُرَبُّو البط بالنزول بقواربهم الصغيرة إلى البحيرة ويطلقون أسراب البطِّ.

ماءُ البحيرة له لون اليشم الأخضر، وتطفو زهور اللوتس على سطحها. والضفادع تتحرك زوجًا زوجًا وتصدرُ نقيقًا. إنها مفاتنُ ربيعية حقيقية، منظـــرٌ جميل للطيور والضفادع. وحينما نزل لاو جوانغ بقاربه، تذكر أنه يريد أن يلتقي لاو وانغ تاو مُرَبِّي البط من القرية المقابلة (قرية وانغ)، إلا أن لاو وانغ تاو لم يظهر منذ عدة أيام.

في هذا اليوم، جاءت فتاة من القرية المقابلة، تتبع ســـرب البطِّ. فتاة بوجه بيضاوي جميـــل كبيضة البطِّ، وعينين بلون أسود عنابي، تغني أغاني الصيادين بصوتٍ عذبٍ رنان، كأنها تنثرُ لؤلؤًا على البحيرة.

كان سربا البطِّ يتقدمان جنبًا إلى جنب، فقالت الفتاة:

يا عم، من أي قرية أنت؟

من قرية (لي) شرق البحيرة، قال لاو جوانغ بصوت مبحوح، وأنتِ أيتها الفتاة؟

من قرية (وانغ) غرب البحيرة.

أين لاو وانغ؟

لقد كَبُرَ في الســـن، فقرر الاعتـــزال. وجدّفت بكل قوتها واستدارت بالقارب، واستدار معها سربُ البطِّ.

مع السلامة يا عم.

وبهذه الطريقة تعرف كلٌّ منهما على الآخر.

في أحد الأيام، تقابل لاو جوانغ والفتاة في البحيرة، وبعد تبادل الحديث، سألت الفتاة بجدية:

يا عم، هل في قريتكم شخصٌ يُدعى لاو جوانغ؟

ارتبك لاو جوانغ ثم أجاب:
نعم يوجد، لماذا تسألين؟
احمر وجه الفتاة، وعضَّت شفتيها، ثم قالت:
لا شيء، أسألُ فقط.
لا أعتقد أنه كان سؤالًا عابرًا، قال لاو جوانغ وقد تهدّل جفناه.
كيف هي أحوال عائلته؟
يصعبُ التكهنُ بها.
سمعتُ أن لاو جوانغ متورط، وله تاريخ، سمعتُ أنه منذ سنوات عديدة سرق عدة بطّات من بطِّ الفريق، وقُبِضَ عليه، هل صحيحٌ أنهم جعلوه يجوب ثماني قرى في شرق البحيرة؟
نعم، أدار لاو جوانغ قاربه، وأبعد البطَّ مُنزعجًا.
حديث الفتاة عن هذا الأمر كان كسكين اخترقت جرحًا قديمًا في قلب لاو جوانغ. فحينما كانت (عصابة الأربعة) تحكم الصين، أصدرت السلطات العليا قانونًا بعدم السماح لأي شخص بتربية البطِّ، وباسم الاشتراكية شُكِّلَتْ فِرقٌ منها فريقٌ قام بالاستيلاء على بطّات (لاو جوانغ) والتي كانت تتعدى عشر بطّات، ولا يمكن أن نتصور كَمَّ الألم الذي سببه ذلك لـ (لاو جوانغ)، فجميع احتياجات عائلته من زيت وملح ومال تعتمد على النكش تحت مؤخرات هذه البطّات! في ذلك الوقت، كان المسئول عن الشئون المهمة للقرية شخصًا كسولًا يحب الأكل، وكان يأكل البطّات التي يأتي بها (فريقُ الاشتراكية) بمشاركة أصدقائه رفقاء السلاح من تيار المعارضة الذي أسسه، وكانوا لا يُبقون شيئًا منها.
لاو جوانغ شخصٌ معروفٌ بصدقه ونزاهته في القرية، إلا

أنك يجب أن تحذر شر الحليم إذا غضب، وإذا غضب غضبًا شديدًا فسيُقدمُ على فعل شيءٍ سخيف. تسلل لاو جوانغ في ساعة متأخرة من الليل، ووصلَ إلى السياج الذي يقبع وراءه البطّ، وقام بالاستيلاء على بطّتين، إلا أن حظه كان سيئًا للغاية، فقد قبض عليه عساكرُ الحراسة الليلية.

لم يضربه المسئول، ولم يشتمه أيضًا، بل قام بربط البطّتين وعلّقهما على عنقه، وجعله يجوب ثماني قرى في شرق البحيرة. ورافق المسئولَ الفريقُ، وجنديٌّ يدق على طبلة، وجنديان يحملان بندقيتين. وأشار المسئولُ إلى جميع الناس، كمَنْ يقدم عرضًا لترويض القرود. وبسبب ذلك كاد لاو جوانغ يشنقَ نفسَه.

وعندما ذكرت الفتاة ذلك الأمر، جاش الغضبُ في صدره ولكنه تمالك نفسه. ومنذ ذلك الوقت، أصبح يعاملها باستهجان، ويحاول قدر الإمكان تجنبَ مقابلتهـــا، إلا أنه لم ينجح، كان يعاملها ببرودٍ واضح وعدم اهتمام. بينما الفتاة تعامله بحفاوةٍ وود. كان لاو جوانغ يبدي استجابة لهذه الحفاوة على وجهه، أما في قلبه فكان يشـــتمها قائلًا: انظري إليكِ، يا مسحوق الشبوط، تبتسمين وتتحدثين وكأن شيئًا لم يكن!

وفي غمضة عين، جاء فصل الصيف، وغيَّرت البحيرة مظهرها إلى منظر آخر جميل. تفتحت زهور اللوتس، وغمرت البحيرة بأريج هادئ طوال اليوم. وفي أحد الأيام، تغير الجو الصحو المشمس، وامتلأت السماء بالغيوم السوداء، ودوَّى البرق مصحوبًا بأمطار غزيرة ورياح شديدة. وصل لاو جوانغ بصعوبة إلى سرب البطِّ، وكان مبتلًا كدجاجة في صحن حساء. بعد هذه الأمطار والجو المتقلب، أصبح الطقس في غاية الصفاء والإشـــراق، واخضرت الأعشاب المائية على سطح البحيرة مصحوبة بلون

أزرق، أما أوراق اللوتس والقصب، فكانت تحمل قطرات ماء صافية كحبات اللؤلؤ. وإلى جانب نباتات القصب، وجد لاو جوانغ ما يزيد على عشر بطّات، وكان يعلم أن هذه البطّات قد شردت عن صاحبها وقتَ تقلبِ الطقس. يا له من بطٍّ جميل! قال وهو يُبدي إعجابه بالبطّات البيضاء.

إن رؤية هذه البطّات البيضاء كالثلج، وأجسامها الكبيرة اليافعة، تبعث الإعجاب في النفس. وتذكر لاو جوانغ فجأة حديث ابنه الذي يعمل في محطة التقنية الزراعية لكومونة قرية (وانغ) شرق البحيرة، أنهم قد استوردوا بطّات أصيلة من ضواحي بكين، هل يُعقل أن تكون هي؟ هكذا كان لاو جوانغ يفكر وهو يضم هذه البطّات إلى سربه.

في اليوم التالي، حينما نزل البحيرة، صادف الفتاة.

يا عم، هل صادفت عدة بطّات في طريقك؟ لقد شردت أمس بسبب الطقس السيئ، عندما عدت إلى المنزل وعددتها، وجدتها تنقص أربع عشرة بطّة، لقد اشتريتها أخيرًا من محطة التقنية الزراعية، لم أستطع النوم البارحة بسبب القلق.

أيتها الفتاة، أنت تسألين الرجل المناسب.

عندما رأى لاو جوانغ قلق الفتاة، نسي ما حدث في الأيام السابقة، وأشار إلى سربه قائلًا: «لا تقلقي، لم تنقص بطّة، إنها هنا».

شكرًا جزيلًا يا عم، سآتي لأخذها.

سآتي أنا، أدار لاو جوانغ القارب، وساق الأربع عشرة بطّة ناحية الفتاة، وصاحت الفتاة من الفرحة، وعادت البطّات إلى سربها.

يا عم، نحن نرى بعضنا البعض ونرعى البطّ منذ ستة شهور،

ولم أعرف اسمك حتى الآن. هكذا قالت وهي تجدف ناحية قاربه، وتسأل بصوتٍ كمَنْ يغني.

لقبي (لي)، واسمي (لاو جوانغ).

آه! أنـــت تكـــون... وي لـــين... لـــي وي لـــين، لا، التقني لي.....

نعم، أنا والد لي وي لين، رفع لـــي لاو جوانغ لحيته وكأنه يريد أن يشاكس الفتاة وقال: أنا هو لي لاو جوانغ الذي سرق البطّتين وجاب القرى.

صرخت الفتاة من المفاجأة، وجحظت عيناها كحبتي مشمش، واكتسى وجهها بحمرة كزهرة لوتس.

يا عم، شكرًا جزيلًا لك...، انحنت مُحيِّية على عجل، واستدارت بالقارب، ولحقت البطّ، وفرت يائسة.

أيتها الفتاة، أنت تعرفين ولدي وي لين، ابعثي له بهذه الرسالة، أخبريه أن يحضر معه عدة بطّات أصيلة!، قال بصوتٍ عال.

واعترض القصبُ طريقَ الفتاة والبطّ.

أخذ لي لاو جوانغ نفسًا عميقًا، وشَعُرَ بالسرور والراحة، وراح يحدث نفسه قائلًا: هذه الفتاة، ملامحها جميلة، وأخلاقها جيدة، لا عجب أن أشخاصًا في هذه البحيرة يتمتعون بجمالٍ كجمالِ هذه الفتاة.

نوافير في المطر

تأليف: يوكيو ميشيما
ترجمة: كامل يوسف حسين

غمر التعب الفتى من جراء التجوال تحت المطر، مصطحبا معه هذه الفتاة، التي ما كانت لتكف عن البكاء، والتي أثقلته كأنها شيكارة رمل.

كان قد أبلغها قبل لحظات، في مقهى بمبنى مارونوتشي، بأن كل شيء قد انتهى بينهما. وكانت تلك هي المرة الأولى في حياته التي أبلغ فيها فتاة بإنهاء صلته بها. وقد كان هذا شيئا طالما داعب خياله، والآن ها هو ذا قد أصبح واقعا.

لذلك السبب وحده كان قد أحب الفتاة، أو تظاهر بأنه يحبها، ولذلك السبب وحده لاحقها بدأب، وسعى يائسا إلى فرصة الانفراد بها. وأخيرا تمكن اليوم، بعد إكمال كل الاستعدادات، وبعد أن أصبح هو نفسه مؤهلا الآن لذلك، من التفوه بتلك الكلمات: «كل شيء قد انتهى»، الكلمات التي تطلع إليها طويلا وبشغف، لينطقها بشفتيه، مثلما يصدر

ملك أمرا، كلمات يمكن بمقتضى نطقها وبأسها أن تشق السماء شقا، كلمات احتفظ في شغف من خلالها بحلمه بأنه سيفعل ذلك حيا، ومع ذلك فإنه طوال الوقت ركن على وجه التقريب إلى أن هذا، في واقع الأمر، لا يمكن له أن يحدث، إنها أكثر الكلمات بطولة، أكثرها تألقا في الدنيا، والتي تحلق إلى عليين مثلما سهام انطلقت من قوس، ساعية إلى هدفها مباشرة وبلا التواء، كلمات طلسمية لا يسمح بنطقها إلا لرجل معدود بين الرجال، لأفضل أنواع الأشخاص: «كل شيء قد انتهى».

غير أن أكيو لم يستطع الحيلولة دون شعوره بالأسف على أنه قد جعل عبارته أبعد ما تكون عن الوضوح، بحشرجة مخنوقة صادرة من جوفه، كأنما هو مصاب بالربو علق البلغم بزوره، فلم يؤت ثمرته المرجوة ماء الصودا الذي نهل منه ليجعل زوره سالكا.

خشي أكيو في ذلك الوقت أكثر من أي شيء آخر ألا تدرك الفتاة ما قاله، لسوف يكون الموت خيرا من أن تطلب منه أن يكرر ما قاله، عندما تنجح الإوزة، التي أصابها الهوس على امتداد سنوات بأن تضع بيضة ذهبية، في القيام بذلك في نهاية المطاف، لا لشيء إلا لتتكسر منها قبل أن يتمكن رفيقها من رؤية تلك البيضة، فليس بمقدورك أن تتوقع أن تضع بيضة أخرى بعد ذلك بدقيقة.

غير أنه من حسن الحظ أنها كانت قد سمعته. ولأنها قد سمعت ما قاله على وجه الدقة، الأمر الذي يجعل التكرار

غير ضروري، ما كان يمكن إلا أن يعتبر حظا طيبا على نحو بالغ الوضوح، فها هو أكيو أخيرا يمضي قدما على قدميه مجتازًا المضيق الواقع عند قمة الجبل التي طالما حدق فيها من بعيد.

قُدم له برهان جلي على أنها قد سمعته في اللحظة التالية، مثل علكة تطير خارجة من ماكينة للبيع.

كانت النوافذ قد أُغلقت بإحكام في مواجهة المطر، وترددت في أرجاء القاعة كلها أصداء أصوات الزبائن الآخرين حولهما وقرقعة الأطباق وجرس صندوق النقود، وإذ احتجزت داخل القاعة فقد ترددت برهة مع صوت قطرات الماء الرطبة على ألواح النوافذ الداخلية، فتعالت ضجة أحاطت الذهن بالضباب. في اللحظة التي بلغت كلمات أكيو الملتبسة مسامع ماساكو عبر هذه الضجة، اتسعت عيناها النجلاوان، اللتان بدا أنهما تتجاوزان بقوة أي قسمة أخرى من قسمات وجهها الناحل، المكتئب. لسوف يكون أفضل أن نصفهما بأنهما نوع من الإخفاق، الإخفاق في التحكم، مقارنة بالقول إنهما عينان. فجأة تدفقت الدموع منهما.

ليس معنى هذا القول أن ماساكو قد أظهرت أي مؤشر دال على أنها توشك على البدء في النشيج، كما أنها لم تنخرط في الشكوى أو التذمر. وكل ما حدث هو أن الدموع قد انبثقت تحت ضغط مائي، وبدا محياها مجردا من أي تعبير.

لم يقدر أكيو، بالطبع، خطورة الموقف حق قدرها، وافترض أنه بمثل هذا القدر والضغط الكبيرين، فإن الدموع سرعان ما ستتوقف. ومضى يرقبها عن كثب، فألفى نفسه مفتونا ببرودة مشاعره التي تشبه النعناع. لم يكن هناك شك في أن هذا هو ما كان قد خطط له من قبل، وأوجده، وجلبه إلى أرض الواقع، وأنه كان يوحي بقليل من النزعة الآلية، لكن النتيجة النهائية كانت رائعة.

حدّث الفتى نفسه مجددا بأنه اختلى بها ليرى هذا على وجه الدقة.

«لقد ظللت متحررا من ربقة الرغبة طوال الوقت».

الآن كان محيا هذه الفتاة الذي غمرته الدموع أمامه واقعا! ها هنا «امرأة مهجورة» أصلية، حقيقية، امرأة نبذها وتخلى عنها.

مع ذلك كان دفق الدموع لا يزال يتدافع وقتا أطول مما ينبغي، من دون أدنى مؤشر للتوقف. فبدأ الفتى يشعر بعدم الارتياح في هذا المكان العام.

كانت ماساكو، وهي لا تزال مرتدية معطفها الواقي من المطر، ذا اللون الفاتح، قد جلست مستقيمة الظهر في مقعدها. وكان بوسعه أن يرى ياقة قميصها الخارجي الفضفاض الأحمر ذي النقش المربع تحت طيات صدر المعطف. وبدت يداها اللتان استندتا إلى حافة المائدة متوترتين قبالتها، ولاحت جلستها متصلبة وبلا حراك.

كانت في غمار تحديقها للأمام مباشرة قد تركت دموعها تتدفق، فانهالت بلا توقف. ولم تند عنها حركة لالتقاط منديلها وتجفيفها. ومضت تلتقط أنفاسها بصعوبة، محدثة صوتا منتظما يشبه صرير حذاء جديد. وعلت شفتها السفلى، التي لم تجملها بأحمر الشفاه بطريقة طلابية غير مألوفة، شفتها العليا بصورة فجة، وارتعشت.

مضى رواد المطعم الأكبر سنا يرمقونهما ببعض الاهتمام. وساور أكيو أخيرا وبعد طول انتظار شعور بأنه قد انضم إلى صفوف مجتمع الكبار، ومع ذلك فقد كانت عيون الكبار هذه هي نفسها التي مضت الآن تهدد ذلك الشعور.

لم يستطع أكيو حقا منع نفسه من الشعور بالانزعاج حيال هذا التدفق الهائل للدموع، حيث لم يقل لحظة واحدة ضغط الدمع ولا انهماره. وإذ استبد به التعب، فقد انتقل بنظرته المحدقة إلى أسفل، ولاحظ طرف مظلته التي استندت إلى مقعد. وأحدث ماء المطر المتقاطر منها بُريكة سوداء على القرميد عتيق الطراز الذي تألفت منه الأرضية الفسيفسائية. وبدا له أن هذه هي دموع ماساكو أيضا.

أمسك فجأة بفاتورة طعامهما، ونهض واقفا.

كانت أمطار يونيو قد همت على مدى ثلاثة أيام في طوكيو. وعندما غادر مبنى مارونوتشي وفتح مظلته، تبعته الفتاة من دون أن تنطق ببنت شفة، ولم تكن لديها مظلة، فلم يجد مناصا من أن يشركها معه في مظلته. وعند هذا المنعطف اكتشف من دون أن تتقلص برودة قلبه الممارسة

التي درج عليها الكبار والمتعلقة باهتمام المرء بالمظاهر، وبدا الآن أن هذه الممارسة قد أصبحت بصورة كاملة جزءا لا يتجزأ منه. وبعد أن طرق موضوع افتراقهما، اعتبر المشاركة الرومانسية تقليديا في مظلة واحدة مجرد تنازل شكلي، فهو لم يترك أي شك فيما يتعلق بموقفه، وكان عدم ترك أي شك في هذا الصدد أمرا يلائم طبيعته، أيا كان الشكل المراوغ الذي اتخذه ذلك.

تمثل الشـــيء الوحيد الذي راح الفتى يفكر فيه، وهو يمشي على الرصيف العريض نحو القصر، في المكان الذي يمكنه فيه التخلص من هذا العبء الصارخ.

«أتساءل عما إذا كانوا يطلقون العنان لمياه النوافير في الأيام المطيرة».

راح يفكر في السر في أن النوافير خطرت بباله. وقبل أن يخطو خطوة أو خطوتين أخريين أو ثلاث خطوات أدهشته الطرافة العفوية لما كان يفكر فيه.

فيما هو يحتمل الملمس الموحي بملمس الزواحف لمعطفها الذي بلله المطر، عندما احتك بها بخشونة وبرود، مضى ذهنه يلاحق على نحو مرح كما يمكنك القول تقريبا هذا الرمز المضحك.

تلك هي المسألة! نوافير في المطر! لسوف أراهن عليها في مواجهة دموع ماساكو. بل إن ماساكو يتعين أن تأتي في المرتبة الثانية بعدها. أولا وقبل كل شيء فإن مياهها

يجري تدويرها، ولذا فإن ماســـاكو لا يمكن أن تنافسها، حيث إن الدموع التي تذرفها تفقد، ومن المؤكد أنها ليست ندى لنافورة يجري تدوير مياهها، ما من سبيل إلى ذلك. وهذه اللوّامة الصغيرة سوف تستسلم وتكف عن البكاء. يمكنك أن تراهن على ذلك. ولسوف أتخلص من هذا العبء بشكل من الأشكال. والسؤال الوحيد هو: هل يبقون على مياه النوافير متدفقة حتى عندما ينهمر المطر؟

واصل السير صامتا، وصاحبته ماساكو مذعنة، وقاسمته المظلة وهي لا تزال عاكفة على البكاء. لسوف يكون التخلص منها صعبا، ولكن اصطحابها حيثما يريد سيكون على قدر كاف من السهولة واليسر.

ساوره الشعور بأن جسمه بأسره مبلل من جراء المطر والدموع. كانت ماســـاكو بعيدة عن الابتلال، وهي تنتعل حذاءها الأبيض طويل العنق. أما بالنســـبة له هو الذي يرتدي حذاء شبيها بالموكاسان فإن جوربيه كانا يشبهان عشب البحر المبتل.

كان لا يزال هناك بعض الوقت قبل أن توصد كل المكاتب أبوابها. وكانت حركة المارة على الرصيف عشـــوائية ولا يشوبها التعجل. عبرا الشارع عند أحد التقاطعات، وسارا نحو جسر واداكورا المفضي إلى القصر. وقف عند طرف الجسر بحواجزه وقوائم سياجه الزخرفية عتيقة الطراز، فاستطاع أن يرى عبر المطر طيور التم وهي تنزلق في مياه

خندق القصر إلى يساره، وإلى اليمين عبر الخندق صفوف المقاعد الحمراء ومفارش الموائد البيضاء الخاصة بقاعة طعام فندق القصر عبر زجاج النوافذ التي غبّشها المطر. اجتازا الجســـر، ومرا بين أسوار حجرية سامقة، انعطفا يسارا، فأقبلا على حديقة ذات نوافير.

لم تنبس ماساكو ببنت شـــفة، وواصلت الانخراط في البكاء.

كانت هناك تعريشة كبيرة في مدخل الحديقة ذات سقف من البوص تتدلى من ســـقفها، وقدمت المقاعد الخشبية المنتشرة تحتها بعض الحماية من المطر. وهكذا جلس أكيو ومظلته لا تزال مرفوعة. جلست ماساكو مشيحة عنه إلى حد ما، وهي لا تزال تبكي، بحيث إن كل ما كان بوســـعه رؤيته كان كتف معطفها الواقي من المطر ذي اللون الأبيض تحت أنفها وشعرها المبتل. تناثرت قطيرات رقيقة بيضاء يقاومها مرهم عطري على شعرها. وبدا لأكيو أن ماساكو الباكية قد تهاوت، بعينين ذاهلتين، في غمار نوع من الغيبوبة، وأحس فجأة بدافع قوي يحدوه إلى أن يجتذب ذلك الشعر وأن يعيدها إلى رشدها.

استمر نشيج ماساكو. وبدا جليا له أنها تنتظر منه أن يقول لها شـــيئا ما. وقد كانت هذه المعرفة هي على وجه الدقة التي أثارت غيظه، وحالت بينه وبين الحديث. وخطرت له خاطرة قوامها أنه لم يقل شيئا على الإطلاق منذ أن

تفوه بإعلانه الموجز.

في البعيد، مضت النوافير تنثر المياه بقوة في الهواء، لكن ماساكو لم تلحظها.

من حيث جلس هذا الثنائي بدت ثلاث نوافير مختلفة الأحجام كأنما كل منها تعلو الأخرى. كان خرير الماء الذي أغرقه انهمار المطر خافتا وبعيدا. انطلقت دفقات من الماء في كل الاتجاهات، فبدت للدنيا بأسرها مثل أنابيب زجاجية ملتوية، فيما الرذاذ يفقد تحدده لدى النظر إليه من بعيد. لم تكن العين لتقع على أحـد في أي اتجاه. بدت خضرة العشب على هذا الجانب من النوافير والسياج المتخذ من قضبان مضفرة مع الأغصان والقصب، والذي يعلوه نبات الأزاليا مثقلا بالمطر ومتوهجا بالحيوية.

غير أنه على الجانب الآخر من الحديقة كانت أوعية الشاحنات وأسقف الحافلات حمراء، بيضاء، صفراء، تنطلق جيئة وذهابا بلا انتهاء. وكان بمقـدوره أن يرى بوضوح الضوء الأحمر عند تقاطع الطرق، ولكن عندما التمع الضوء الأخضر تحته اختفى مباشرة وراء رذاذ ناثرات الماء في النوافير.

جلس الفتى هناك، موغلا في الصمت، وقد دهمه حنق يفوق الوصف، فالطرفة التي كانت مسلية بالنسبة له قبل لحظات تبددت.

لم يكن على يقين من طبيعة مـا ينصب عليه غضبه، فقبل وقت قصير جدًا كان يسـتمتع بشعور محلق عاليا

بأنه لا يقهر. أما الآن فإنه يستهجن فشلا يستعصي على التحديد. ولم يكن عدم التخلص من ماساكو التي لا تكف عن البكاء يشكل فشله بأسره.

كانت خواطره التي تدور حولها متعالية كعهدها.

«لو أنني كانت لي رغبة في ذلك لدفعتها إلى بركة النافورة، وتراجعت مسرعا، ولانتهى الأمر عند هذا الحد».

غير أنه إذ ووجه بهذا المطر الذي لف نفسه حوله، بهذه الدموع، وبهذه السماء التي ملأها المطر حتى غدت شبيهة بسور، فإن إحساسه بالفشل كان مطلقا، فأطبق عليه بعشرة أمثال قوته، وحول حريته إلى شيء بلا جدوى على الإطلاق.

غدا الشاب الغاضب الآن شكسا ومتذمرا فحسب إلى أبعد الحدود، ولن يساوره الشعور بالرضا إلا بعد أن يجعل ماساكو تتبلل في المطر ويملأ عينيها بمرأى النوافير.

نهض واقفا فجأة، وانطلق يعدو من دون أن يلقي نظرة إلى الوراء، وراح يجري مسرعا على امتداد الممر الحصبائي المرتفع الذي يحيط بالمشى الملتف حول النوافير، وتوقف عند الموضع الذي يمكنه منه أن يشاهد النوافير بكاملها.

أقبلت الفتاة تعدو عبر المطر. ولم يكن بمقدورها إلا بالكاد أن تتوقف من دون أن ترتطم به، وتشبثت بمقبض المظلة التي كان يرفعها عاليا. وبدا محياها الذي بلله المطر والدموع في بياض الطباشير، وتلاحقت أنفاسها.

إلى أين تمضي؟

ربما لم يكن مـــن المتوقع أن يرد عليهـــا، لكن الكلمات صدرت عنه متدافعة، كأنما كان ينتظر في شـــغف هذا السؤال منها.

لسوف تنظرين إلى النوافير. انظري إليها، إنك لست ندى لها مهما حاولت!

عندئذ راحا، وقد مالت المظلة جانبا وغمرهما السلام الذهني النابع من عدم اضطرار أحدهما للنظر في عيني الآخر، يحدقان في النوافير الثلاث، وقد بدت الوسطى أكبر على نحو ملحوظ من الاثنتين المحيطتين بها، اللتين كانتا أصغر إلى حد ما، مثل تمثالين للبوذيساتفا يحيطان بتمثال لبوذا.

لأن النوافير والبركة كانت في اضطرام مستمر، فقد كان من المستحيل على وجه التقريب رؤية المطر المنهمر وهو يتساقط بالفعل في الماء. وكان كل ما بمقدورهما سماعه وهما واقفان هناك، وعلى نحو ملغز، هدير السيارات البعيد بين الفينة والأخرى الذي ينطلق في نوبات متباعدة، ولأن خرير الماء في النوافير كان متداخلا على نحو بالغ الرهافة في الهواء، فقد بدا الأمر على وجـــه التقريب كما لو أنه محبوس بإحكام في تضاعيف صمت تام، على الرغم من أنك يمكنك سماعه إذا أصخت السمع.

انبثق الماء أولا خفيفـــا، وتناثر في الحوض الجرانيتي الأسود الهائل، وإذ يتجاوز الحافة السوداء، فإنه يتساقط

في نمط نثاري متباعد.

انبثق نبع عملاق من الماء مندفعا عاليا من وسط الحوض في حماية ست انبجاسات طويلة مقوسة من الماء المتدفق على نحو متألق.

وإذ راح الفتى يرقب المشهد بعناية، فقد كان بمقدوره أن يرى أن انبثاق الماء لم يحتفظ بارتفاع مستمر وثابت. لم تكن هناك رياح بصورة عملية، ولـــذا فقد اندفع الماء عاليا ومباشـــرة من دون أن يؤثر عليه شيء نحو السماء الرمادية المتخمة بالمطر. غير أن ذلك لم يعن أن قمة الماء كانت على الارتفاع نفسه على الدوام، ففي بعض الأحيان كانت اندفاعة من الماء تنطلق عاليا من دون توقع، متناثرة إلى قطيرات عند ذروتها ومتهاوية إلى البركة.

حجب الماء قرب القمة السماء المتخمة بالمطر والمحتجبة هونا وراءه، وإذ بدت المياه حبلى بالانعكاس، فقد اتخذت مسحة رمادية مبيضة، جعلتها أقرب إلى الذرور منها إلى المياه عند هامشـــها. وحوالي رذاذ الماء المندفع تراقصت جزيئات في حجم ندف الثلج البيضاء متألقة، وبدت أمام الدنيا بأسرها شبيهة بعاصفة من الثلج والمطر.

غير أن أكيو لم تفتنه الانبجاسات الرئيسة الصادرة عن النوافير بقدر ما فتنه مشهد الماء حولها وهو يرسم أقواسا فيما هو يندفع في أنصاف أقطار تشبه الشعاع.

هزت تلك الأقواس المنبعثة بصفة خاصة من النافورة

الكبرى في الوسط معرفتها البيضاء المائية في كل الاتجاهات، وتقافزت عاليا عبر الحافة الجرانيتية السوداء، رافعة نفسها على نحو بطولي وبلا هوادة فوق سطح البركة.

مضى يرقب اندفاع الماء المختلط الذي لا يتوقف، وقد أوشـــك فؤاده على الضياع في هذا الاندفاع. هذا القلب الذي كان مستقرا في أمان بين ضلوعه فتته الماء قبل أن يحيط بذلك علما، واعتلى تلك الاندفاعات المائية، وأرسل محلقا عبر الهواء.

كانت اســـتجابته هي ذاتها عندما تطلـــع إلى أعمدة الماء.

عند النظرة الأولى، بدت كل انبجاسة كبيرة ساكنة على وجه التقريب كنموذج صلصالي صيـــغ من ماء، ولم تكن هناك ذرة واحدة في غير موضعها، غير أن نظرة فاحصة كشفت روح الحركة النقية المندفعة عاليا بلا انتهاء في داخل العمود، وقد ملأت الفراغ الأسطواني بسرعة محمومة، حيث تبدأ من القاعدة وتعوض في التو أي نقص، وتحافظ بصورة مستمرة على هذا الإشباع. وكان يعرف أن سموق السماء سيحبطها، ولكن كم هو رائع دأب القوة التي تبقي على هذا الإحباط المستمر!

لقد أحضر الفتى الفتاة إلى هنا ليريها النوافير، ولكنه هو الذي ســـمره الصوت في موضعه تماما ووجده رائعا للغاية، وفيما ذلك يحدث اجتذبت عيناه إلى مستوى أعلى، إلى السماء التي كان المطر يهمي منها.

ابتلت جفونه بالمطر.

حجبت سحب كثيفة فوقه مباشرة السماء عن عينيه، وتواصل انهمار المطر الغزير بلا توقف. كان المطر في كل مكان، وبعيدا إلى أقصى ما يمكن للبصر أن يبلغه. وكان المطر على وجهه هو نفسه تماما المطر على أسطح البنايات القرميدية والفندق البعيد. وكان وجهه المتألق الذي كانت لحيته لا تزال خفيفة بعد والأرضيات الأسمنتية الخشنة التي تعلو الأسقف المهجورة للبنايات في كل مكان ما بعيدا، كل ذلك لا يعدو أن يكون سطوحا لا تبدي مقاومة تعرضت للمطر نفسه. وتحت المطر، على الأقل، كانت وجناه والأرضيات المتسخة للأسطح تبدو كما لو كانت قطعة واحدة.

اكتسحت صورة النوافير الماثلة أمام أكيو وعيه بقوة. ولم يعد بمقدوره الآن إلا التفكير في نوافير المطر باعتبارها تكرر مرارا وتكرارا نوعا من اللاجدوى التافهة.

عندما طرأت هذه الخاطرة على باله، نسي الطرفة السابقة والغضب الذي أعقبها، وأحس بأن فؤاده يفرغ مما فيه على نحو سريع.

وحده المطر تساقط على فؤاده الخاوي.

شرع الفتى في السير، ضائعا في أفكاره.

إلى أين تمضي؟

قالتها الفتاة متسائلة، وحذت حذوه بقدميها اللتين تنتعلان الحذاء الأبيض طويل العنق، وفي هذه المرة تشبثت

في إحكام بمقبض الشمسية.

إلى أين أمضي هو شأن يخصني وحدي. لقد أوضحت ذلك في وقت سابق. أليس كذلك؟

تساءلت.

ماذا تعني؟

تطلع الفتى إلى محيا من تشاركه الحديث، وقد سيطرت جفوة على فؤاده. كان محياها غارقا بالماء، لكن المطر غسل دموعها، وعلى الرغم من أن آثار الدموع بقيت في عينيها المحمرتين، المبتلتين، فإن الصوت لم يعد يرتجف.

ما الذي أعنيه؟ لقد أوضحت ذلك في وقت سابق. أليس كذلك؟ قلت لك إن الأمر انتهى.

فيما وراء الملمح الجانبي لوجهها وهو يتحرك عبر المطر، أصبح بمقدور الفتى الآن أن يشاهد الأزاليا القرمزية الصغيرة وهي تزدهر بعنفوان هنا وهناك على العشب.

حقا؟ هل قلت ذلك؟ لم أسمعك.

انطلق حديثها بلهجة عادية.

أوشكت الصدمة أن تلقي بالفتى أرضا. وبعد أن خطا خطوات عديدة متعثرة، واتاه الاحتجاج أخيرا.

قال متلعثما: «ولكن... عندئذ.. لم كنت تبكين؟ كيف تفسرين ذلك؟».

لزمت الفتاة الصمت برهة، ويدها الصغيرة المبتلة لا تزال على تشبثها بمقبض المظلة.

تدفقت الدموع فحسب. لم يكن هناك سبب.

استبد الحنق بالفتى، وأوشك أن يصرخ بها معبرا عن شيء ما عندما أفسح الصوت المجال لعطسة هائلة مفاجئة. وخطر بباله أنه سيصاب بالبرد إن لم يخرج من هذا المطر.

يدان

تأليف: رانكو مارينكوفيتش
ترجمة: طالب عبد الأمير

نظرت إليهما مسترخيتين فوق المؤخرة، تغفو الواحدة في حضن الأخرى. كانت اليسرى تداعب اليمنى وهي ترقد في حضنها بأكثر مهارة وقوة وذكاء وجدية. ولو لم أكن أعلم بأنهما ولدتا من ذات الأم وبالتأكيد من ذات الأب، والأكثر من ذلك أنهما من نطفة واحدة، خلقتا بناء على رغبة الوالدين كي تستمدا قوتهما من الأرض، لقلت إن اليسرى أكبر سنًا.

جاءتا الى الدنيا نتيجة تجامع الأبوين ولحظات الانتشاء بينهما في ليلة ما. الآن هما تجوبان العالم، متجانستين متعانقتين أبدًا. عانقت اليد اليمنى اليد اليسرى بأصبعها، حملتها بعناية ورقّة مثلما تحمل الكلبة جروها، واليسرى تغدو كطفلة في المهد، تقفز على إبهامها من أصبع لآخر وهي تغني: دو ري مي فا صول، وتنقر على الأصابع إيقاعًا حماسيًا. سألتها اليمنى:

– ماذا تفعلين؟

أجابت: ماذا يمكن أن أفعل؟ أغني.

– تغنين؟ وماذا تغنين؟

– أغني دو ري مي فا صول بلحن حماسي.

– لحن حماسي كما لوكنت جنديًا، إن هذا لغباء،

– أنا أعرف، على الأقل، كيف أتصفح الكتاب، وأنت حتى هذه لا تعرفينها، كل ما تعرفينه أنت هو كيف تمسكين له الكتاب عندما أتصفحه أنا. هو يقرأ وأنا أتصفح، أما أنت فمهمتك الإسناد فقط، وهذا كل ما تجيدينه. فلم يسبق لك أن تطلعت في كتاب. إنك تعرفين الكتب من أوزانها ولكنك لا تفهمين محتوياتها.

– وأنا أعرف أن أتصفح، ولو تيســـر لي لعرفت القراءة أيضًا، وأفضل منك.

– أكنت تعرفين تحريك الدمى بأصابعك؟

– لكنت بالطبع.

– ولكنت تتقنين التصوير؟

أستطيع أن أفعل كل شيء بنفسي.

– وأن تشدي ربطة العنق؟

– نعم.

– وأن تقطري في العيون؟

– حتى هذه أستطيع أن أفعلها.

– وأن تحلقي له ذقنه؟

– وأحلق له ذقنه.

– ولكنه لا يعطيك ماكينة الحلاقة.

– لم لا؟ لحلقت له أفضل منك.

– لكنت جرحت له حنجرته!

– أنا لست قاتلة، هذا ما تفعلينه أنت. وعلى أي حال فهذا ما حاولته مرة معي.

(خيم الصمت قليلًا، صمتت اليد اليمنى، ارتعشت عند سماعها هذه الكلمات، وكأنها فوجئت بسيل من الذكريات). تصورت أنه أراد أن يفعل ذلك حقًا، أردت فقط أن أكون مطيعة له. قالت اليمنى وهي تشعر بالمهانة وتأنيب الضمير.

– مطيعة؟ إنه لم يأمرك بقتله.

– إن رغبته بالنسبة لي أمر، كنت اعتقدت أنه أراد ذلك حقًا؟

– آها! تريدين القول إنه غير صادق؟ آ. عفوك، من قال لك إنه أراد ذلك؟

– أنا أعتقد أنه رغب أن يفعل ذلك. فقد ظل يتألم طوال الليل ولم يغمض له جفن. مسحت له قطرات العرق التي تصببت على جبينه، أشعلت له سيجارة بعد أخرى وكتبت له رسالة وداع. تشنج وأخذ نفسًا عميقًا ثم أخذ يصرّ بأسنانه على الوسادة وهمس بصوت خفيض: (يجب أن أضع حدًا لهذا، لا أستطيع أن أتحمل أكثر، لا أستطيع أكثر)، ثم قادني هو إلى أن أمسك بالموس.

– وعند ذلك عرفت بأنه أراد قطع عروقه؟

– كفى، لا تعذبيني ماذا كان بمقدوري أن أفعله، إذا كان هو قال لي ذلك؟

– ماذا قال هو؟ بأنه لا يتحمل أكثر؟ وأنه يجب أن يضع حدًا لمأساته؟ إن ذلك كله كان كلامًا لا يأتي من رغبة، ولكنه ينساب على اللسان، ومن السهل على اللسان أن ينطق بأي شـــيء من هذا القبيل. الموتى هم فقط من تضمهم الكتب التي تتصفحينها.

اقذفي باللسان في عالم الكلمات (وعلى أي حال، فالكلمات هي ذاتها المعروفة منذ زمن بعيـــد). والعالم يظل يواصل المسير، يأكل ويشرب وينام، وثانية ينطق بكلمات، وثانية لا يحدث شـــيء. إن العالم يود أن يقول شيئًا ولكن رغبته لا يبرزها بالكلام. إنه يترك الكلمات كي يخفي بها الأماني. الكلمات قناع، وهو لا يرغب بفعل ما يقوله.

– آه، كيف لنا أن نعرف ماذا يريـــد، إذا لم يوضح ذلك بالقول؟

– إنه يوضح ذلك على الأقل بالكلمات. نعم، هو قال إنه (يجب أن يضع حدًا) لكنه لا يعني ذلـــك، أنا أعرف هذا جيدًا.

– وأنت وضعت نفسك بينه وبين الطبيعة حكمًا، مراقبًا مدنيًا ورسميًا، وبكلمة أخرى، إنك كمصفاة، وكل ما يأتي إليه يصفّى عبر أصابعك. كل شيء يجب عليك لمسه وفحصه. إنك تحللين ما يصل إليك حسب ذوقك، بالرغم من ذوقه هو. على أي حال، عليك إن تضغطي على إصبع إبهامه. فربما لا تتمنين له أن يمضغ الأوراق ويقضم الشجر؟ فالطبيعة لا تمازحه.

– نعم، لذلك أنت «انتصرت»، أقمت الهضاب و«ألفت الماء» و«أسرت البرق»، حيث إنك تملكين الآن قوة جبارة تستطيعين بها تدمير العالم في ساعة واحدة، والأرض ترقد على كفك كالكرة، إذ إن بإمكانك رميها إلى الفضاء.

نعم، فلماذا تترددين؟ أووو، كل شيء بإمكانك، فلماذا لا ترمين إذن بالكرة بين النجوم كي تتحول إلى غبار؟ لماذا لا تنجزين عملك الجبار هذا؟

– أنا لا أرغب في فناء العالم.

– لا ترغبين؟ فهل مرت حقبة من الزمن دون أن تطعنيها بالخناجر وتنخليها بالرصاص؟ ألم تكن تلك كلمات وقد حولتها أصابعك الخمسة هذه إلى فعل؟

– قبل ذلك كان الأمر كلامًا فقط.

– نعم، على فكرة (إيفان افانجيليتس). وماذا تستطيع الكلمات أن تفعل من دونك؟ لتخاصمت بالطبع وسقطت المهزومة منها. ثم من هذا الذي سُحق؟

– الشرف.

– الشرف؟ أي شرف؟ اجتهدي في تفسير هذه الكلمة النبيلة! هل هو شرفك أنت؟ أتدعين الشرف؟ حينما تدعكين باطن كفه، عندما يصيبك التخبط، حينما تلعب أصابعك وتسرع للإمساك بمقبض السكين؟ هل الشرف أن تضعي أصبعك على الزناد متأهبةً في كل لحظة؟ أهو الشرف عندما تفعلين منكرًا وتطلبين غفران الرب؟ أهو الشرف عندما تمسكين بأصابع ثلاثة القلم الذي تقتلين به؟

- قلم؟ عن أي قلم تتحدثين؟

- قلم قاضي المحكمة العرفية، هل نسيت ذلك؟

كان هو قد جلس إلى جانبنا بسبب بعض الكلمات وليس بفعل يديه، بل بسبب الكلمات. فلا يهمك كيف زلت الكلمات من لسانه. إن ما يهمك هو التشبث بالوقائع فقط. إنه قال واعترف.

كان ذلك كافيًا بالنسبة لك. وفي ساحة الإعدام وقف وهو شاحب الوجه مرتعش الشفتين وكأنه يهتز من البرد. عدّ ثوانيه الأخيرة... نظر إليك بفزع، تابع كل حركة من أصابعك وكأن ذلك كان سببًا كافيًا لتحكمي عليه بالقتل. لقبوك حينها باليد الفولاذية، واليد الدموية. لقد تآكلت ريشة قلمك الذهبي من جراء القتل. فهذا الرأس المدبب يمر على الورق دون مراعاة، وكأنه في حفرة. جلسة مملة لا تعنيه، ولكن من أجل قتل الوقت لا أكثر. أخذ هو يرسم كلمات صينية: يو كاور تسينغ تاو، بان موكاي، ويرسم بيتًا تحيط به حديقة ووسطه باحة، بل وحتى دخان يتصاعد من مدخنة فوق السطح. لكن نهاية ريشة القلم كانت كله ببو كاوه، تسينغ تاو، تدمر البيت بحديقته وباحته ولم يبق منه سوى الدخان يتصاعد من عامود المدخنة. كنت أنت أخذت قلم الباركر بأصابعك الثلاثة وقررت بحزم أن تخطي على الورقة. هرعت أنا نحوك، لم أكن أعرف ماذا سأفعل. مسكت سبابتك وأخذت أنظفها من بقع الحبر وسألتك ماذا فعل لك هو؟ انظري كيف غدا وجهه مصفرًا! وجسمه

يختض! ألا يكفيك هذا؟ إنه ينصت إلى دقات قلبه، ليعدّها فلا تقاطعيه.

– نبضات القلب؟ لا، إنه يحاول إيجاد فرصة للنجاة يا عزيزتي، أي قلب هذا؟ إنه يحـــاول التأثير فينا من خلال مظهره الباهت. إنه قد خدعك. أما أنا فلم يستطع ذلك، لأنني أعرف تلك الحيل جيدًا.

– أتسمين هذا حيلة؟ ارتعاش رجل واهن عاهد نفسه العد حتى الثلاثمائة. لكنك أخذت القلم، ثانية، وبدأت الكتابة.

ارتعشي الآن على الأقل! أليس بمقدورك الارتعاش؟

لابد أن يصيبك الارتعاش، على كل مافعلته. ولكنك، أنت هكذا هادئة، وكأنك تسجلين درجة لتلميذ في الامتحان.

– ليس لدي سبب للارتعاش، فأنا أقوم بواجبي.

– ها، وبدأت تكتبين على مهل وبخط منمق، بخطك الجميل المعروف، (م)، الحرف الأول من كلمة موت.

«اسمعي، قلت لك، انظري له كيف يعد، يستحث العد حتى يصل إلى (الثلاثمائة)، لا تقاطعيه».

– يجب أن أقاطعه.

– لماذا يجب أن تقاطعيه؟ سوف يتوقف هو وحده.

فليس بمستطاع أحد أن يعد إلى ما لا نهاية. فهذا فقط اختلاف الأرقام، كي يبدو الفرق في اللانهاية مجهولًا تمامًا. إنه بالنسبة لنا مجهول، إننا لا نعيش في اللانهاية، بل على الأرض.

والآن هيا باسم الساطور والصليب المعقوف، اكتبي، اقتلي

يديه فلو كان عنده ذرة من الشرف لما جعل منهما رفضًا. الحق معك لا أريد أن أقف في طريقك.

اكتبي الحرف (م) بذات الخط المنمّق وأضيفي له الحرفين اللازمين لكلمة (موت)، ولا يهتز لك جفن.

في تلك الليلة (وحتى دون أن تستحمي) داعبت شعرها الحريري ومسّدت وجهها حتى ارتعشت أصابعك من الحب. هذه الأصابع التي لم تهتز، في الصباح، من الموت، ارتعشت هذا المساء من الشبق. فمن قال إن الحب ليس أقوى من الموت؟ وخاصة حبنا بالنسبة لموت الآخرين.

– لماذا تتكلمين عن الحب؟ إنك لا تعرفين معناه.

آه من الحب، من اللمسة الأولى، عندما تبحث الأصابع في الظلام، وفجأة تتلامس وترتعش كقطبين مشحونين بالكهرباء.

– نعم، ويتطاير الشرر، تماس قصير وظلام، ثم ينتهي الحب. وماذا بعد؟ الشرف؟ الواجب؟ الساطور؟ القنبلة؟ والقلم الذهبي الذي ينساب منه الموت؟

– إنك مجنونة وذات نزوات.

– وأنت ذكية وحكيمة، وهنا يكمن الفرق. اتركيني (حاولت اليسرى أن تفلت من قبضة اليمنى).

– ماذا دهاك؟ لماذا تتصرفين بهذه الحماقة على حين غرة. إنك فقط تجلبين لنا الفضائح، في الشارع أمام الناس.

– وليكن، اتركيني لا أريد أن أكون معك بعد الآن.

– ومع من تريدين أن تكوني؟ مع الرجلين؟

- ولو، حتى مع الرجلين، فإنهما محترمتان وشـــريفتان كالخيول، أما أنت فخبيثة ومسمومة كالحية.
- نعم، وغبيتان كالخيول. الأرجل لا تعرف سوى المشي وحمل الأثقال. ومع ذلك فلستِ سوى يد.
- أنا لست يدًا ولا أريد أن أكون. أخجل من كوني يدا.
- وماذا تريدين أن تكوني؟ أطرافًا أمامية؟
- أي شيء سوى أن أكون يدًا.
- ومع ذلك فأنت يد مثلي.
- مثلك؟ لا أبدًا، اتركيني.

استطاعت أن تفلت وتنحسر في الجيب. ثم أخذت تتحرك بسرعة وكأنها تبحث عن شيء فقدته. لكنها في الواقع لم تكن تبحث عن شيء، بل إنها كانت غاضبة. انسحبت من الجيب واستقرت فوق المؤخرة وظلت تتابع إيقاع السير.

أتطلع اليهما متخاصمتين، لكني أشك في خصامهما، فهما كحيوانين أو كنبتتين تتعايشان وتتضادان. تنظف إحداهما الأخرى. كانت اليمنى قد قالت الحقيقة عندما ذكرت بأنهما، وبرغم كل شيء، يدان.

قبالتهما كان يقف طفلان، صبي وصبية يمسك أحدهما بيد الآخر وهما يصفران، يبتعدان عن اليدين حين يمران بقربهما، كما تبتعد الجنادب عندما يقترب منها إنسان.

فك الطفلان شباكهما وافترقا. مرت الطفلة بقرب اليد اليمنى بهدوء محاذر كما لو أنها ارتكبت خطيئة ما. نظرت اليمنى إلى شعر الطفلة الأصفر بحنان أبوي فتطلعت نحوها

الطفلة شاكرة.

مر الصبي بقرب اليســـرى، نظر إليها باستهزاء، لا بل بوقاحة وكأنها عثرة في طريقه، فصفعته بأصابع البنصر على أنفه. بصق الصبي عليهـــا فلوحت له بطريقة وكأنها تنش الذباب من على وجهه. لكن اليد اليمنى ثارت ثائرتها فصفعت الصبي على وجهه صفعة جعلته يبكي.

– لماذا صفعت الصبي؟ سألتها اليسرى.

– لأنه بصق.

– إنه بصق علي وليس عليك!

– عليك أم علي، فالأمر ســيان. أنا لا أوافق أن يبصق علينا أحد.

– ولكنني أنا التي تحديته، فقد لطمته على أنفه.

– وهل توجب عليه أن يبصق؟

– ربمـــا أوجعته الضربـــة، فلم أكن حـــذرة في تصرفي معه.

– تصوروا ... ولكن مع ذلك، فما كان من الداعي أن يبصق فهذا أمر غير لائق.

– وهل الضرب على الأنف لائق؟

– إنك لم تضربيه بقوة، وهذه تختلف عن تلك. ومع ذلك فإن أنفه مازال في مكانه ولم يسقط.

– وماذا سقط مني حين بصق علي؟

– أن تبصقي على أحد، فهذا أكبر تجريح.

– تجريح للشرف، ها!

– نعم، للشرف.

أجابت اليمنى وهي فاقدة الصبر. غير أن الصبي صرخ باكيًا بسبب إهانة اليمنى له.

– بابا، بابا، آه، آه، آه ماما، ماما،آه، آ، آه...

للحظات انسابت من أنفه دفقتا مخاط، نزلتا على ذقنه حيث استقرت فوقه دمعتان.

– انظروا، صياح وهرج ماذا جرى. قالت اليمنى وكأنها تعجب لكل هذه المبالغة، ثم تلتفت لليسرى، قائلة:

– دعيني أمسح وجهه.

– لا داعي، فأنا قمت بذلك وحدي.

– أوو، بكم المعطف. وعلى أي حال احذري فإن أباه قادم.

خرج الأب من البيت مرتديًا قميصًا مشمّرًا كميه، ليكشف عن يدين شاحبتين معروقتين ككل أيادي المستخدمين.

– لماذا صفعتما ولدي؟ سأل الأب مداريًا غيظه، كمن يستطلع أمرًا فكر بالعقوبة فيه مسبقًا.

– لأنه عديم التربية والحياء، أجابت اليمنى بتحد.

– وماذا فعل؟ سأل الأب متحفظًا، حيث أحس بإهانة مزدوجة.

– لأنه بصق علي، قالت اليمنى بمرارة، وكأنها لم تصّدق نفسها بأنه بصق عليها هي.

– لم يبصق عليك، بل عليّ أنا، قالت اليسرى ذلك وهي تتمتع بذكرها للحقيقة.

– الأمر سيان، فقد بصق هو والسلام، صرخت اليمنى باليسرى كولي أمر.

– بصق! هكذا من دون سبب؟

مازال الأب يتساءل وهو يعرف بأنه يجب أن يعاقب أحدًا.

– لم أبصق يا بابا، إن هذه ضربتي أولًا في أنفي، قال الطفل باكيًا.

– ضربَته ضربة خفيفة للمزاح ولكنه بصق في الحال، ادعت اليمنى ذلك.

– إن له كل الحق، وليبصق، صرخ الأب مهووسًا حيث تطاير منه الغضب بصورة مفاجئة.

وأبصق أنا أيضًا: تف، موجهًا بصقته نحو اليدين.

ارتفعت اليمنى وبكل ما أُتيت من قوة، فقد أرادت أن تسدد ضربتها، ولكن الأب تصدى لها. لوّح بيده وأمسك بإبهام اليمنى بشدة حتى أخذت بالصراخ. عند ذاك تحركت اليسرى، انطلقت كالسهم ماسكة بقميص الرجل قرب صدره. كانت تلك إشارة إلى اليمنى لتسدد الضربة. تسلمت اليمنى الإشارة، جمعت قبضتها ولكمت الأب على وجهه فسال الدم من أنفه وقطّر على أصابع اليسرى، واليمنى تواصل الضرب على المكان المدمي.

رأت الطفلة الدم وهو يسيل من أنف أبيها، فأسرعت تتلقف قطرات الدم هلعة، في حين أسرع الابن وأمسك اليسرى بين أسنانه وعضّها بقوة على المعصم حتى صرخت من شدة

الألم، فاضطرت أن تفك قبضتها من القميص.

حين ذاك قفز الأب بسرعة وهرول مهزومًا، كانت رجلاه قد اصطكتا من الخجل أمام طفليه. حرر الطفل اليسرى من قبضة أسنانه، فربتت هذه الأخيرة على رأسه تداعبه، كتعبير عن الامتنان، لكن الطفل تحمل الضربة بكبرياء.

عندما حاولت الرِجلان العدو كحصانين طائعين، تريدان اللحاق بالأب الهارب، أمسك الطفل بهما في الحال لإيقافهما عن العدو. وبالفعل فقد وجدت اليدان نفسيهما طريحتين على الأرض وسط الغبار.

– آه، تأوهت اليمنى من شدة الألم الذي أصابها من جراء صفعتها للأب. استلقتا على الأرض واحدة جنب الأخرى، في وسط الطريق، داميتين مهانتين، عاجزتين عن القيام بأي شيء، وكأنهما قفازان طُرحا على الأرض.

– أيتها النحس، قالت اليسرى لليمنى، محاولة النهوض بالاعتماد على أصابعها.

– إنك تستحقين كل ما أصابك، لأنك لم تعرفي كيف تضربينه حتى يسبح بدمه.

– لقد ضربته.

– نعم، ضربته، كما يفعل المبتدئون، ساعديني على النهوض، أحس أن أصابعي قد تكسرت.

– هل تؤلمك؟

– تؤلمني آلاما مبرحة.

كان حديث اليسرى مليئًا بالحنان، تمامًا كما يفعل الإخوة

الطيبون.نهضتا، تاركتين وراءهما آثار الدم على قارعة الطريق. مسحت إحداهما للأخرى آثار الدم. كانتا تشتعلان رغبة للانتقام. وعنـــد ذاك جاءتهما بصقة لتغســـلهما من الدم والأتربة.

قصة طريقين
(قصة عن الشقاق والوفاق)

تأليف: باولو كويليو
ترجمة: ياسر شعبان

قبل قرون من امتلاء وسائل الإعلام بأخبار عما يسمى (تأثيرات العولمة)، حكى الشيخ (قالندار شاه) القصة التالية في كتابه «أسرار الوحدة».

في شرق (أرمينيا) كانت هناك قرية صغيرة تقع بين طريقين متوازيين، تُعرفان بالطريق الجنوبية والطريق الشمالية.

وذات يوم وفد إلى القرية مسافر قادم من مكان بعيد، جاء سائرًا عبر الطريق الجنوبية، وقرر زيارة الطريق الثانية أيضًا. ولاحظ التجار المحليون امتلاء عينيه بالدموع.

وقال الجزار لتاجر الملابس (لابد أن شخصًا ما قد لقي حتفه على الطريق الجنوبية. انظر كيف يبكي هذا المسافر المسكين بعد أن مر بها).

والتقطت أذنا أحد الأطفال تلك الملحوظة، ولأنه يعرف أن الموت شيء سيئ للغاية، بدأ البكاء الهستيري. وفي الحال بكى جميع الأطفال بالشارع.

وانزعج المسافر، وقرر الرحيل على الفور. وألقى من يديه

ثمار البصل التي كان يقشرها ليأكلها وهي سبب امتلاء عينيه بالدموع، ثم اختفى.

وبعد برهة، شعرت الأمهات بالقلق لبكاء أطفالهن، فأسرعن لمعرفة ما يحدث، وسرعان ما اكتشفن أن الجزار وتاجر الملابس ثم غيرهما من التجار قد انشغلوا بأمر المأساة التي وقعت على الطريق الجنوبية.

وسرعان ما انتشرت الشائعات. ولأن عدد سكان القرية محدود للغاية، عرف جميع القاطنين بالقرب من الطريقين أن شيئًا خطيرًا قد حدث. وبدأ الكبار يشعرون بالخوف من حدوث الأسوأ، متوقعين الانكشاف التدريجي لأبعاد المأساة، وفضلوا عدم طرح أي أسئلة حتى لا يزيدوا الوضع سوءًا.

وكان هناك رجل أعمى يعيش عند الطريق الجنوبية ويجهل ما يحدث، ولذلك سأل: ما سبب كل هذا الحزن في مكان كان سعيدًا دائمًا؟

فأجابه أحد السكان: هناك شيء فظيع حدث بالطريق الشمالية، فالأطفال يبكون، والرجال متجهمون، والأمهات ينادين أطفالهن ليعودوا إلى البيوت، والزائر الوحيد لهذه المدينة منذ سنوات عديدة، غادر وعيناه ممتلئتان بالدموع. ربما ضرب الطاعون الطريق الأخرى.

ولم يمر وقت طويل حتى انتشرت شائعة وجود مرض قاتل - لم يكن معروفًا من قبل - في القرية كلها. ولأن البكاء بدأ مع مجيء مسافر إلى الطريق الجنوبية، أصبح واضحًا بالنسبة لسكان الطريق الشمالي أن الطاعون لابد ظهر هناك. وقبل مجيء الليل، ترك السكان منازلهم إلى الجبال في الشرق.

واليوم - بعد قرون - مازالت القرية التي مر بها المسافر وهو

يقشر البصل، مهجورة.

وغير بعيد عنها، ظهرت قريتـــان أخريان تدعوان (الطريق الشرقية) و(الطريق الغربية). ومازال السكان، من ذرية سكان القرية الأولى، لم يتحدثوا إلى بعضهم البعض، لأن الزمن والخرافة وضعا حاجزًا من الخوف بينهم.. فلقد استقر بداخلهم أنه إذا ما حاولوا إعادة الصلات، فسيواجه مجتمعهم خطرًا هائلًا.

ويعلق الشيخ (قالندار شـــاه): لا يعتمد كل شيء في العالم على الأشياء ذاتها، بل على علاقتنا بها.

وعندما ننظر إلى عالم اليوم، نســـتطيع إدراك كم مازالت كاشفة. ففي نهاية تسعينيات القرن الماضي، لابد أن مسافرنا قد انفجر بالضحك بينما كان يمر بإحدى الطرقات الكبرى للقرية الكونية. فبينما اختفى الاقتصاد القديم، برزت الأسواق المالية، سقطت الجدران، انخفضت معدلات الفائدة، وتراجعت القيم الإنسانية إلى ما كانت عليه في نهاية القرن التاسع عشر، ووصلت الحكومات المحافظة إلى السلطة. وبدا كل شيء في حالة من التناغم المثالي. وكل ما كان مفتقدًا، شـــيء تحتاجه كل حضارة لكي تستمر.. عدو.

وكان من الصعب جدًا التورط في حروب جديدة، وهكذا لم يكن ممكنًا اعتبار الإبادة في (رواندا) أو الحرب الأهلية في يوغوسلافيا.. ذلك العدو.

وهكذا، وبنهاية القرن الماضي، كان الشرير الأعظم هو السيجارة. نعم، صدق أو لا تصدق، منذ وقت قريب كان التهديد الأعظم للعالم الحديث، تلك اللفافة الورقية الصغيرة المحشوة بالأوراق الجافة، بطرف مشتعل، وآخر غير مشتعل.

وقبيل الهجمات الإرهابية كان هناك مسافر آخر يطوف بالقرية

الكونية وهو يأكل البصل. وعادت الحرب العادلة إلى أوربا ومعها ما ألحقته من دمار هائل، وكان ذلك في (بلجراد).

وبدأت أسواق المال تنهار، واتجه المحللون، الذين سبق ونصحونا بشراء الأسـهم، إلى توقع انهيار لا يمكن تجنبه. وبدأ الناس يشعرون بالقلق على استثماراتهم وتقاعدهم وما القرارات التي يجب عليهم اتخاذها.

أما الخطـر الحقيقي فظهر في صباح الحادي عشـر من سبتمبر لعام ٢٠٠١، وبدت الإنسانية على شفا انهيار عصبي، ففي تلك اللحظة حدث شقاق كبير بين سكان (الطريق الشمالية) - ويعرفون كذلك بالمسيحية اليهودية - وبين سكان (الطريق الجنوبية) - ويعرفون كذلك بالإسلام.

ورفضت ذلك الصحف كلها، وكذلك خرجت البرامج التلفزيونية لتقول: «لا شيء تغير»، وتقابل رجال الدين من كلا الطرفين في مؤتمرات دولية وعاملوا بعضهم البعض بتسامح واحترام، أما في الحياة الواقعية، فإذا كان جارنا مسيحيًا أو يهوديًا (في الطريق الجنوبية) أو كان الجار يذهب إلى المسجد ويطلب من زوجته ارتداء الحجاب (في الطريق الشمالية)، فمن الأفضل أن نتابعه بحرص لأن شيئًا فظيعًا قد يحدث في أي لحظة.

فهل من الممكـن إعادة توحيد هاتـين القريتين قبل اندلاع الهستيريا وتوابعها الأشـد خطورة، وهذا ما أظنه؟ يجب أن ننحي جانبًا التحليل السياسي، الخطط الاقتصادية والدراسات الاجتماعية، لنبحث عن إجابة لسؤال رئيسي: من أكون؟ ولماذا أتصرف هكذا؟

وليس من طريقة للقيام بذلك أفضل من النظر إلى حياتنا كما لو كانت سباق دراجات.

وعندما كنا صغارًا، وعند بداية السباق كنا ننطلق معًا متقاسمين الصداقة والحماس. ولكن مع تقدم السباق، تتراجع السعادة المبدئية أمام التحديات الواقعية - الإرهاق - الضجر - والتشكك في قدراتنا الشخصية.

ونلاحظ أن قليلًا من أصدقائنا قد استسلموا داخليًا، لكنهم ما زالوا يقودون دراجاتهم فقط لأنهم لا يستطيعون التوقف في منتصف الطريق. وكثيرون يبدلون إلى جوار السيارات الداعمة، مشغولين بمنولوجهم الداخلي للوفاء بالتزاماتهم، لكنهم غافلون عن مظاهر الجمال والتنافس على الطريق.

وتدريجيًا نخلفهم وراءنا، وبعد ذلك نجد أنفسنا في مواجهة الوحدة وذلك عند المنعطفات غير المألوفة في الطريق والمشكلات الميكانيكية في دراجاتنا.

ونمر بغابات مظلمة حيث من الممكن أن يحدث أي شـــيء، لأنها مسكونة بأشباح مخيلتنا.

وعند مرحلة محددة، وبعد مرات معدودة من السقوط دون شخص قريب يمد يد المعاونة، نبدأ التساؤل عما إذا كان يستحق فعلًا كل ذلك الجهد.

بلى، يستحق. فذلك سؤال يهدف إلى إثارة الحماس وعدم الاستسلام.

ويقول الأب (آلان جونز): للتغلب على المعوقات، وللمشاركة في تحسين الوضع العالمي، نحتاج إلى قوانا الخفية: الحب - الموت - السلطة - والزمن.

يجب أن نحـــب، لأننا محبوبون، رغم أن شـــعورنا بالوحدة يجعلنا نعتقد في نقيض ذلك. ويجـــب أن ننتبه للموت حتى ندرك قيمة الحياة.

يجب أن نناضل لننمو، ولكن من دون أن نترك أنفسنا لخداع السلطة التي نكتسبها خلال النضال، وذلك لأن تلك السلطة لا قيمة لها.

وفي النهاية، يجب أن نقبل بأن حياتنا - اعتقدنا أو لم نعتقد - في الفردوس القادم، في اللحظة الحالية واقعة في أسر الزمن بكل خياراته وحدوده.

ولذلك، ففي سباق الدراجات الفردي، يجب أن نتصرف كما لو كان الزمن موجودًا، ونبذل ما بوسعنا لإضفاء القيمة على كل ثانية، ويكون لنا حق الراحة عندما يكون ذلك ضروريًا ولكن مع الاستمرار في الاتجاه الذي اخترناه.

وليس من الممكن التعامل مع هذه القوى الأربع كما لو كانت مشكلات يجب حلها، لأنها تتجاوز قدرتنا. يجب أن نقبلها وندعها تعلمها ما نحتاج تعلمه.

فبينما نقوم بالتبديل تجاه هدفنا، يجب أن نسأل أنفسنا: (ما المختلف اليوم؟) ربما تكون الشمس مشرقة، لكن إذا حدث وأمطرت، تذكر دائمًا أن ذلك كله يعني أن السحب القاتمة ستتلاشى عما قريب. تتلاشى السحب، وتظل الشمس على حالها.. لا تختفي أبدًا.

وفي لحظات الوحدة، من المهم تذكر ذلك. وخلال تلك اللحظات، لنتذكر وجود تلك القرية، وعندما يصبح المسير صعبًا للغاية، يجب أن نحرص على عدم نسيان أن - بعيدًا عن السباق، اللون، الوضع الاجتماعي، المعتقدات أو الثقافة - الناس الموجودين هناك مروا بالتجربة ذاتها.

ولقد كتب (ذو النون المصري) (٦٩٧ - ١٦٨ م) صلاة رائعة تلخص ببراعة التوجه الذي يحتاج إليه المرء في مثل تلك الأوقات:

«يا إلهي، عندما أُنصِت لأصوات الحيوانات، ولحفيف الأشجار، وخرير الماء وغناء الطيور، وهدير الريح وهزيم الرعد، أرى فيها دليلًا على وحدانيتك، أشعر أنك قهار، عليم، حكيم وعادل. يا إلهي، أُدرك وجودك في الصعاب التي أمر بها الآن. إلهي ليكن رضائي من رضائك، واجعلني مصدر بهجتك، تلك البهجة التي يستشعرها الأب في وجود طفله. ولتجعلني أذكرك في سكينة وعزم، حتى لو كان من العسير علي أن أصرح أنني أحبك».

ومثلما نعود إلى الحقائق البسيطة الموجودة داخلنا، فإننا ننأى بأنفسنا عن الهستيريا الجمعية لنستطيع المشاركة بواقعية في العالم المحيط بنا.

وفي مرحلة محددة، تعترض المأساة سبيل كل إنسان: قد تكون تدمير مدينة، موت طفل، اتهامًا بغير دليل، مرضًا ينتشر دون تحذير جالبًا معه عجز دائم.

وأحيانًا نرث المآسي الخاصة بأجيال سابقة، كما هي الحال مع الطريق الجنوبية والطريق الشمالية.

وبعد فترة نحصل على الحب، الموت، السلطة، والزمن، وجميعها ستعاوننا للحفاظ على سكينتنا عندما يمر ثانية بالطريق التي تمر بقريتنا، سواء كان يبكي أو يضحك.

وإذا ما واجهتنا مشكلة حقيقية، فلن تستطيع الصحف أن تقنعنا بالعكس. ولو تعلق الأمر بمجرد حالة أخرى لشخص ما يقشر البصل، فلن يكون بوسع مخلصي أرض الأسلاف والحضارة أن يتملصوا ويرتكبوا جرائم باسمنا.

ومن المفيد دائمًا أن نتذكر كيف تعلمنا قيادة دراجة. لم يتم ذلك بواسطة ميكانيكا القوى والكتلة الحرجة والسرعة المثالية. ليس بالجلوس أمام مدرس يشرح لنا كيف يمكن لهذه المركبة

ذات العجلتين أن تستمر في التحرك.

ولم يحدث ذلك لأن شخصًا ما أخبرنا أن دراجتنا أفضل وأكثر أمنًا من دراجة شخص آخر، وهكذا نستطيع القيادة بثقة.

لم يحدث ذلك لأننا أنصتنا لرأي هذا أو ذاك، أو لأننا رأينا تغطية تلفزيونية ممتدة لمسابقة (تور - دي - فرانس) أو للألعاب الأولمبية.

حدث ذلك لأننا جرؤنا على القيام بأول تبديلة. حاولنا وسقطنا وحاولنا، حتى جاء يوم، يكاد يكون إعجازيًا، تمكنا فيه من حفظ اتزاننا.

ولن ننسى، حتى بعد مرور عشر سنوات أو عشرين سنة من دون أن نركب دراجة.

هل ذلك قابل للتفسير؟

لا.. ليس قابلًا للتفسير. لكننا نعرف كيف نقود دراجة، وهذا شيء مهم، لأننا حينئذ نستطيع زيارة قرية أخرى.. ابتداع طريق.. التخلص من خوفنا واكتشاف كم من الأشياء نشترك فيها (بما في ذلك الدراجات).

يوم مثالي لمشاهدة الكانجارو

تأليف: هاروكي موراكامي
ترجمة: محمد عبدالنبي

كانت هناك أربعة حيوانات كانجارو في القفص: ذكر، أنثيان، وأخيرًا صغير حديث الولادة. وقبالة قفص الكانجارو كنا واقفين أنا وصديقتي، مبدئيًا لم تكن حديقة الحيوانات هذه مكانًا محبوبًا وشعبيًا، كما أنه صباح الإثنين، لذا فقد كانت الحيوانات أكثر عددًا من الزائرين، من دون مبالغة.

كان هدف زيارتنا بكل تأكيد هو الكانجارو الوليد، وإلا فلأي سبب آخر قد نأتي إلى حديقة الحيوان؟ قبل شهر عثرنا في القسم المحلي من الصحيفة اليومية على خبر يعلن مولد الكانجارو الصغير، ومنذ ذلك الحين، ونحن في انتظار النهار المثالي لزيارة الكانجارو الوليد.

ولكن بطريقة ما ذلك اليوم المثالي لم يأتِ، اليوم الأول كان ممطرًا، وفي اليوم التالي كان المطر أشد بكل تأكيد، وبالطبع كانت الأرض كلها موحلة في اليوم الذي تلا، ثم هبت رياح مجنونة ليومين متتاليين، وذات صباح عانت صديقتي من ألم في أسنانها، ويوم آخر كان عليّ أن أنهي بعض الإجراءات في دار البلدية، إنني لا أحاول أن أقول كلامًا عميقًا هنا، لكني سأغامر بقول هذا:

تلك هي الحياة.

وبطريقة ما، مر شهر على هذا المنوال.

يمكن لشهر أن يفعل هذا؟ ألا يمكنه أن يتطاير هكذا كالريح قبل أن تشعر به، بالنسبة لي، لا أكاد أذكر شيئًا واحدًا قمت به طوال الشهر كله، أحيانًا يبدو أنني قمت بالكثير، وأحيانًا يبدو أنني لم أنجز أي شيء، والحق أنني لم أنتبه لمرور شهر بكامله إلا حين أتى أحدهم في اليوم الأخير ليجمع نقود توصيل الصحيفة.

نعم، تلك هي الحياة تمامًا.

ومع هذا فقد حل أخيرًا الصباح الذي سنذهب فيه لمشاهدة الكانجارو الوليد، استيقظنا في السادسة صباحًا، أزحنا الستائر، وقررنا أنه يوم مثالي لمشاهدة حيوانات الكانجارو، اغتسلنا سريعًا، تناولنا الإفطار، أطعمنا القط، قمنا ببعض الغسيل «على السريع»، اعتمرنا قبعتين للوقاية من الشمس، ثم انطلقنا.

سألتني ونحن في القطار: «حبيبي، الكانجارو البيبي، تظن أنه مازال حيًا؟»

بكل تأكيد، فلم ينشروا أي خبر عن موته في الصحف، لو كان قد مات أنا واثق أننا كنا قرأنا عن الأمر.

طيّب، ربما لم يمت، لكنه مريض وأخذوه إلى مستشفى ما.

كانت الصحف ستنشر هذا الخبر أيضًا.

ربما أصابها انهيار عصبي واختفت في ركن معزول.

حيوان وليد يصاب بانهيار عصبي؟!

لا أقصد الوليد، بل الأم! ربما أصابتها صدمة من نوع ما واختبأت مع وليدها في غرفة خلفية مظلمة.

النساء يفكرن في كل الاحتمالات الممكنة، هكذا فكرت في إعجاب، صدمة عصبية؟ أي نوع من الصدمات العصبية يمكنه التأثير على حيوان

كانجارو؟

قالت: «إن لم أر الكانجارو الوليد الآن لا أظن أنه ستتاح لي فرصة أخرى لرؤيته، أبدًا».

لا أظن ذلك.

أقصد؛ هل سبق لك أن رأيت واحدًا قبل الآن؟

قلت: «لا، لم يحدث لي».

وهل يمكنك أن تكون واثقًا أن فرصة أخرى ستتاح لك مطلقًا؟

لا أدري.

هذا هو سبب قلقي تحديدا.

قلت على الفور: «صحيح، ولكن اسمعي، حتى ولو كنت على حق، فأنا لم يسبق لي أبدًا أن رأيت زرافة تلد، أو حتى حوتًا يسبح، فلماذا تضخمين مسألة وليد الكانجارو إلى هذا الحد؟».

قالت: «لأنه كانجارو وليد، هذا هو السبب».

استسلمت وعدت لتصفُّح جريدتي، لم أنتصر أبدًا في جدال مع فتاة.

وبطبيعة الأمر كان الكانجارو حيًا يرزق وبخير حال، وبدا (أو بدت، من يدري؟) أكبر حجمًا مما أظهرته صورة الجريدة، وقد أخذ يتقافز في حيوية بداخل سياج قفصها، لم يكن وليدًا بقدر ما كان منمنمة كانجارو، كانت صديقتي محبطة قليلًا.

«خلاص، لم يعد وليدًا صغيرا».

واسيتها قائلًا: «بل هو كذلك بالتأكيد».

وربتُّ عليها برقّة، هزت رأسها، أردت أن أفعل أمرًا للتخفيف عنها، ولكن مهما كان ما سأفعله فلن يغير شيئًا من الحقيقة الجوهرية البسيطة: الكانجارو الوليد قد كبر بالفعل، وهكذا تحليت بالصمت.

ذهبت إلى كشك المرطبات واشتريت اثنين آيس كريم شوكولاتة، حين

عدت كانت لا تزال تستند إلى السياج وتحدق في حيوانات الكانجارو.

كررت: «لم يعد وليدًا صغيرًا».

فعلًا؟، أجبتها، وأنا أناولها الآيس كريم.

الوليد الصغير يبقى في جراب أمه.

أومأت لها ولعقت الآيس كريم.

ولكنه ليس في جرابها!

المهم، حاولنا أن نكتشف من تكون الكانجارو الأم، كان من السهل تحديد الأب - فقد كان الأكبر حجمًا والأكثر هدوءًا بين الأربعة، بدا مثل موسيقار جفّت موهبته وهو يقف جامدًا، متفحصًا الأوراق الخضراء الموضوعة في إناء طعامه، الكانجارو الآخران كانا أنثيين، متطابقتين في هيكل الجسم واللون والتعبير، ويمكن لأي منهما أن تكون أم المولود.

علّقت قائلًا: «ومع ذلك، لابد أن إحداهما هي الأم والأخرى ليست كذلك».

«حقًا؟».

«طيّب أخبريني أنتِ أيهما يمكن ألا تكون الأم؟»

قالت: «معك حق».

غافلًا عن كل تلك المسائل، كان الكانجارو الصغير يواصل تقافزه متوقفًا هنا وهناك لينبش في التراب دون هدف واضح، كان من الواضح أنه مخلوق لا يعرف الملل.

كان يتقافز حول أبيه، ويتوقف ليقضم بعض الأعشاب، ينبش في التراب، يضايق الأنثيين، ينبطح على الأرضية، ثم ينهض واقفًا ويعاود تقافزه مرة أخرى.

سألت: «لماذا تقفز الكانجارو بهذه السرعة؟».

فرارًا من أعدائها.

أعداء؟ أي أعداء؟!

قلت: «البشر، البشر يقتلونهم بالعصي الخشبية الطائرة ثم يأكلون لحومها».

ولماذا يُوضع الصغير في جراب الأم؟!

حتى يمكنها أن تهرب به، فالصغار لا يمكنهم الجري بسرعة.

هذا يعني أنهم يكونون محميين، صحيح؟

قلت: «صحيح، إنهم يحمون جميع صغارهم».

إلى أي سن يحمونهم هكذا؟

وبخّتُ نفسي لأنني لم أتفقد مقدمًا الموسوعة المصورة بحثا عن حيوانات الكانجارو، فموكب أسئلة مثل هذا أمر متوقع تمامًا.

شهر أو شهران، على ما أظن.

فقالت وهي تشير إلى صغير الكانجارو: «حسن، هذا عمره شهر واحد، ما يعني أنه لابد أن يكون مازال في الجراب».

قلت: «إممم، يهيأ لي هذا».

ألا تظن أنه من الرائع أن يتكوّر المرء في جراب كهذا؟

بلى، أظن ذلك.

ارتفعت الشمس الآن في السماء، وكان بوسعنا أن نسمع صيحات أطفال تنبعث من حمام سباحة قريب، تمر بالسماء سحب صيفية بيضاء ذات أشكال حادة.

سألتها: «أتأكلين شيئًا؟».

قالت: «ساندوتش هوت دوج وكوكا».

كان كشك بيع الشطائر على شكل شاحنة صغيرة، والطالب الشاب الذي يديرها قد أحضر معه مشغّل الكاسيت العملاق الخاص به، وراح كل من ستيف وندر وبيلي جويل يُشنفان أذنيّ بينما أنتظر إعداد طلبي.

حين رجعت إلى قفص الكانجارو قالت: «انظر!»، وأشارت إلى واحدة من أنثيي الكانجارو «أرأيت؟ إنه بداخل جرابها».

وبكل تأكيد كان الوليد الجديد قد تسلل بداخل جراب أمه. (بافتراض أنها الأم)، وكان الجراب منتفخًا به، ويبرز منه أذنان رفيعتان مستدقتان وطرف ذيل، كان منظرًا رائعًا، وبلاشك جعل رحلتنا تستحق الجهد.

قالت: «لابد أن تكون ثقيلة جدًا والصغير بداخلها».

«لا تشغلي بالك، حيوانات الكانجارو قوية».

«حقًا؟».

«بالطبع قوية، وإلا كيف استمر وجودها حتى الآن؟».

لم تظهر نقطة عرق واحدة على الكانجارو الأم رغم وقوفها تحت الشمس الساخنة، بدت مثل شـــخص قد انتهى لتوه من تسوّق ساعة الأصيل في سوبر ماركت على الطريق الرئيسي بمدينة أيوما الفارهة، وهو الآن يلتقط أنفاسه في مقهى قريب.

«إنها تحمي صغيرها، صحيح؟».

«نعم».

«تُرى هل نام الصغير؟».

«غالبًا».

أكلنا شطائرنا وشربنا الكوكاكولا، وودعنا قفص الكانجارو.

حين غادرنا كان الكانجارو الأب مازال يحدّق في قصعة طعامه باحثًا عن نغمات ضائعة، الكانجارو الأم ووليدها صارا كتلة واحدة، مستريحين إلى تدفق الوقت، بينما كانت الأنثى الأخرى الغامضة تتقافز كما لو تختبر مهارة ذيلها.

بدا وكأنه ســيكون يومًا مشــبعًا بالبخار، أول يوم حــار يمر بنا منذ فترة.

سألت: «تحب تأخذ بيرة في مكان ما؟».

قلتُ: «أحب جدًا».

قاتل بلا وجه

تأليف: نادين جورديمر
ترجمة: ياسر شعبان

اقرأ شفتي، لأنني لا أتكلم.

أنت تجلس هناك، وعندما يتمايل القطار تنحني للأمام لتسمع. ولكنني لا أتكلم.

لو كنت قادرًا على العثور عليهم، كنت سأطلب منهم النصف المتبقي من النقود التي وعِدتُ بالحصول عليها عند التنفيذ، لكنهم رحلوا. ولا أعرف إلى أين أتوجه. ولا أظن أنهم مازالوا موجودين هنـــا، لابد أنهم ذهبوا إلى بلد آخر، إنهم يتنقلون طوال الوقت وهكذا يعثرون على رجال مثلي.

فنحن نرحل عن الوطن لأن الحكومـــات يُطاح بها، فنجد أنفسنا في الجانب الخاطئ، بلا عمل - بلا خبز أو زيت في الدكاكين، وعندما نعبر حدًا نجد أنفسنا في مواجهة حد آخر وآخر.

ما وجهتك النهائيـــة؟ ولا نعرف إجابة، لا نعرف أين

نستطيع المكوث، وما إذا كنا سَنُرسَل إلى مكان آخر أم لا، من مخيم إلى آخر في بلد لن تستطيع فيه الحصول على أي أوراق.

ولا أتكلم مطلقًا.

وهناك يجدوننا. في واحدة من تلك الأماكن، وجدوني وأنقذوني، كان في وسعهم القيام بأي شيء، جاءوا بي إلى هنا وزودوني بالأوراق ومنحوني اسمًا، ودفنت اسمي داخلي حيث لن يستطيع أحد إخراجه.

وأخبروني بالمطلوب تنفيذه، ودفعوا لي نصف المبلغ المتفق عليه. تناولت الطعام واشتريت ملابس واستأجرت حجرة في واحد من تلك الفنادق حيث يقرأ الناس قائمة الطعام خارج ثلاثة مطاعم قبل أن يقرروا أين سيتناولون طعامهم.

وكان هناك شامبو بالمجان في الحمام، ومفتاح للخزانة التي يُحفظ الشراب داخلها بدلًا من النقود.

كانوا قد جهزوا كل شيء لي. فلقد تتبعوه طوال شهور، وعرفوا مواعيده والأماكن التي يذهب إليها، فرغم أنه كان رجلًا مهمًا كان يفضل الخـــروج برفقة زوجته في خصوصية، دون أن يرافقه الحراس، لأنه أحب التظاهر بأنه شخص عادي.

وعرفوا أنه لم يفهم أن سلوكه مستحيل، وجعلهم موقفه هذا يدفعون لي لتنفيذ ما طلبوه مني.

وأنا لا أحد، وليس من بلد يحســبني ضمن تعداده السكاني، فالاسم الذي أعطوه لي لا وجود له: وهكذا

فليس من أحد مسئول عما تم تنفيذه. كان يقتطع بعض الوقت، ويخرج برفقة زوجته إلى مطعم ذي أبواب مزدوجة للوقاية من برودة الطقس، وهو المطعم نفسه الذي اعتادا الذهاب إليه أسبوعًا بعد آخر، وبعد ذلك - رغم أنهم أخبروني أنهما يعودان للبيت - فلقد توجها إلى السينما. وانتظرت. تناولت كوب بيرة من أحد البارات، ثم عدت أدراجي.

ولم يُظهِر الناس الخارجون من السينما أنهم قد تعرفوا عليه، وذلك لأن الناس في هذا البلد يحبون أن يدعوا قادتهم يبدون عاديين.

واصطحب زوجته، مثـل أي مواطن عادي، إلى ذلك الركن حيث المدخل إلى مترو الأنفاق، عندئذ وفي أثناء وقوفه ليسمح بمرورها أمامه، نفذت مهمتي.

فعلت فقط ما دفعوا لي للقيام بـه، بعدما اختبروا قدرتي على الرماية، وأطلقت النار مباشرة على مؤخرة جمجمته. وفي أثناء سقوطه، وفي أثناء التفافي لأجري، فعلتها ثانيةً - حسبما كلفوني - للتأكد من موته.

وارتكبت خطأ السقوط على ركبتيها فوق جسده، وذلك قبل أن تتطلع لرؤية من فعل ذلك.

وهكذا فـإن كل ما قالته للبوليـس والصحافة وفي التحقيق، أنها رأت ظهر رجل في ملابس سوداء، جاكيت جلدي، يقفز فوق درجات السلم التي تؤدي إلى الشارع الجانبي. وكانت المدينة تتميز بالمباني الشاهقة والأزقة

المظلمة الضيقة. ولم ترَ وجهي مطلقًا.

وبعد سنوات الآن (كما قرأت في الصحف) داومت على إخبار الناس كيف أنها لم ترَ الوجه، أبدًا لم ترَ وجه الفاعل. وإذا كانت قد نظرت إلى أعلى لثوانٍ فقط، كانوا سيتمكنون من العثور علي، وهكذا أصبح أنا ذلك الشخص المجهول.

وظلت طوال الوقت تفكر في مؤخرة رأسي في القبعة السوداء. (حقيقة لم تكن سوداء، بل كانت عبارة عن مربعات بنية وخضراء، كانت قبعة غالية الثمن اشتريتها من النقود التي دفعوها لي، وبعد ذلك ألقيتها في قناة مائية وبداخلها حجر).

وفكرت في عنقي، تلك البقعة الصغيرة التي تمكنت من رؤيتها بين القبعة وياقة الجاكيت الجلدي (ولم أستطع إلقاءه في القناة، واكتفيت بصبغه). وظلت تفكر في بريق الجاكيت الجلدي عند كتفي إثر سقوط شعاع ضوء من أحد المصابيح فوق أحد الأسطح، وكنت أعدو سريعًا حتى اختفيت بينما كانت تصرخ.

وقبض البوليس على أحد مدمني المخدرات، أمسكوا به في الزقاق نفسه عند قمة السلالم المؤدية إليه. ولم تستطع أن تحدد ما إذا كان هو القاتل أم لا، لأنه لم يكن له وجه لتتذكره.

وحدث الشيء نفسه مع كل من ألقى البوليس القبض عليه من الشوارع وحسب السجلات الإجرامية والقضايا

السياسية، فلم يكن هناك وجه. ولذلك لم يكن هناك ما أخشاه.

فطوال الوقت عندما كنت أُدفَع للفرار من بلد إلى آخر كنت في خوف دائم، خوف من عدم حيازتي للأوراق، خوف من التعرض للتحقيق، خوف من الجوع، أما الآن فليس من شيء يخيفني. ومازلت لا أخاف من شيء. ولا أتكلم.

وتابعت الصحف لمعرفة ما تكتبه عما يحدث، وعرفت أن التحقيق لم يُغلَق ومازال البوليس والناس والبلد كله مستمرين في البحث.

وقرأت كل النظريات المفسرة للحادث، وأحيانًا - مثل الآن - في أثناء ركوبي لمترو الأنفاق أَطلع على نظرية جديدة في صحيفة بيد أحد الركاب.

كانت حبكة إيرانية، بسبب ذلك العداء بين هذا البلد وتلك الحكومة هناك. محاولة جنوب إفريقية للانتقام من العقوبات المفروضة على حكومة عِرقية.

بوسعي أن أقول من ارتكب هذا الحادث، لكنني لن أستطيع أن أقول لماذا. فعندما دفعوا لي نصف المبلغ المحدد كمقابل لم يخبروني عن الدافع ولم أسأل. فلماذا يجب أن أسأل عن الحكومة وبأي جانب، وفي أي مكان، كل ذلك سيورطني. فلقد كانوا وحدهم القادرين على تقديم أي شيء لي.

وعندئذ حصلت على نصف المبلغ الذي وعدوني به.

ولم يتبق منه الكثير بعد مرور خمس سنوات، ستتم خمس سنوات الشهر المقبل.

وهكذا بدأت أقوم ببعض الأعمال، بين الحين والآخر، وهكذا لم يتساءل أحد عن مصدر المال الذي أدفع منه إيجار حجرتي وغير ذلك من النفقات.

عملت في حلبة سباق، ولمرة أو مرتين عملت في نوادٍ ليلية. ولم تكن تلك الأماكن تقوم بتسجيل العاملين بها في مكتب العمل.

وما شغلني هو ماذا سأفعل بالمال عندما أحصل على بقية المبلغ المتفق عليه، كما وعدوني؟

هل أرحل إلى مكان آخر؟

وعندما أفكر في الانتقال إلـــى بلد آخر، كما فعلوا، حيث أُخرِج عند الحدود الأوراق وأذكر الاسم - الذي لا يخص أحدا - الذي أعطوه لي، وأكشف وجهي.

أنا لا أتكلم.

لا أتكلم مع أي شخص. ولا حتى امرأة.

وفي الأماكن التي عملت بها، كنت أتلقى عروضًا للقيام بأشياء، مثل نقل بضائع مسروقة أو نقل مخدرات، فلقد بدا الأمر وكأن الناس يستشعرون بطريقة ما أنني جعلت نفسي متاحًا. لكنني لست كذلك! لست كذلك هنا، في هذه المدينة.

فهذه المدينة لن ترى وجهـــي مطلقًا، فقد رأت ظهر رجل يقفز فوق درجات السلم المؤدي إلى الزقاق القريب

من محطة مترو الأنفاق.

وأعرف ما يقال عن عودة المجرم إلى مكان جريمته. لكنني لم أقترب منه، لم أتجاوز محطة مترو الأنفاق. لم أعد مطلقًا إلى تلك السلالم.

فعندما صرخت خلفي في أثناء هروبي، كنت في طريقي للاختفاء، الاختفاء إلى الأبد.

ولم أستطع أن أصدق ما قرأته عن أنهم لم يدفنوه في مقبرة. فقط وضعوه في ذلك الجزء من الحديقة العامة، المقابل للكنيسة المجاورة لمحطة مترو الأنفاق.

كان مكانًا عاديًا، يوجد به القليل من الأشجار العجوز التي تقطر منها مياه الأمطار على الممرات المغطاة بالحصى، ومنها إلى الشارع الرئيسي مباشرة.

كان هناك شاهد حجري وسياج منخفض، وذلك كل شيء.

وكان الناس يأتون وقت الغداء وفي أثناء خروجهم للتسوق، يخرجون من محطة مترو الأنفاق أو يخرجون من السينما، ويتسكعون عبر الممرات التي يغطيها الحصى ليقفوا أمام المكان الذي دفن به، ويضعوا الزهور عليه.

كنت هناك ورأيت ذلك. لم أفر، فلقد كان مكانًا مثل غيره من الأماكن بالنسبة لي. وفي كل مرة أذهب إلى هناك، خلف الآخرين، ماشيًا فوق الحصى الذي يغطي الممر، كنت أرى حتى الشباب الصغار ينتحبون وهم يضعون زهورهم وأحيانًا يضعون صفحات ورقية بدت كما لو

كانت تحمل سطورًا من قصائد (ولم يكن بوسعي أن أقرأ هذه اللغة جيدًا)، ورأيت كذلك أن التحقيق مازال مستمرًا، وأنه لن ينتهي حتى يجدوا الوجه، حتى يستدير هذا اللا - أحد. ولن يحدث كل ذلك أبدًا.

والآن أفعل ما يفعله الآخرون. فتلك هي الطريقة يظل المرء في أمان، في أمان تام.

واليوم اشتريت باقة رخيصة من الزهور الحمراء، مربوطة بضمادة جروح مرنة ملفوفة بين الأوراق المسحوقة والأشواك الطرية، ووضعتها هناك، أمام الشاهد الحجري، خلف السياج المنخفض، حيث دفن اسمي مع جثمانه.

موجومو

تأليف جيمس نجوجي
ترجمة: سمير عبد ربه

توقفت موكامي أمام الباب ثم أدارت رأسها ببطء وأسى وتوجهت ببصرها صوب دخان الموقد الكثيف وذلك المقعد الصغير بجانب البيت فترددت قليلا، لكنها قالت لنفسها: «لا، لقد قررت ولابد أن أرحل!».

اندفعت في الظلام الموحش بثوبها الرقيق الملطخ بالزيت والمشدود بإحكام فوق رأسها العاري، كان الثوب متدليًا فوق كتفيها الرقيقتين الناعمتين وكان الهواء مشبعًا بالسحر والهدوء، وما هي إلا لحظات حتى أصابها الفزع من ذلك الظلام فلم تعد تبصر شيئا وفقدت قدرتها على الإحساس بأي شيء، وعندئذ راحت تتحرك بحذر نحو الفناء الذي تعرفه جيدا خشية أن يسمعها أحد.

الفناء وأربعة أكواخ وظلال كوخ زوجها، شعرت بأن كل شيء يدينها إدانة صامتة ويتوسل لها في هدوء ممتزج بالازدراء والشفقة: «أتغادرين زوجك؟ ارجعي!»

عبرت الفناء بجرأة ودون تردد، ثم اتجهت يسارا نحو الطريق المؤدي إلى البوابة، فتحت البوابة وسرعان ما أغلقتها ببطء ثم توقفت لحظة أدركت موكامي خلالها أن إغلاق البوابة

إنما يعني إغلاق جزء من وجودها فأوشكت على البكاء لكنها أدارت ظهرها بقلب مثقل وبدأت في التحرك.

لم تكن تعرف أي طريق ستسلك ولم يكن يهمها ذلك الأمر كثيرًا، فهي تريد فقط أن تهرب وتمضي إلى أي مكان، ماسيلاند مثلا أو أوكامباني... إنها تريد أن تبتعد عن المدفأة والفناء والأكواخ والناس وتمضي بعيدًا عن كل شيء يجعلها تتذكر جبل موهوروبني وسكانه... لقد قررت ألا تعود أبدا، ولكن زوجها! لا، إنه ليس زوجها وإنما هو الرجل الذي كاد أن يقتلها ويسحق روحها... لا، لم يعد ممكنا أن يظل زوجها رغم أنه الشخص نفسه الذي أعجبت به كثيرا ذات يوم فكيف إذن تكرهه الآن؟

فكرت كثيرًا في حياتها معه، زوجها موثوجا الرجل العصامي المتزوج من أربع نساء. يعرف الجميع أنه يعاملهن بقسوة، تذكرت عدم ثقة والدها بذلك الرجل وعدم ارتياحه لفكرة أن تعيش ابنته معه وبين زوجاته الأخريات، غير أنها - في ذلك الوقت - لم تبد اهتماما بكلام أبيها فقد فتنها موثوجا حتى أنها كثيرا ما رغبت في الزواج منه والانضمام إلى حاشية زوجاته وأولاده، لقد أثار موثوجا اهتمامها ومشاعرها وإعجابها بطريقته في المشي والرقص بالإضافة إلى صوته الجهير وأصابعه الرياضية وذلك الغموض وتلك القوة التي كان يتمتع بها.

تذكرت موكامي أيضا كيف كان يغازل كلاهما الآخر بطريقة غريبة، كما أنها لاتزال تذكر نبضات قلبها وابتسامته العريضة وذلك العقد الصدفي الذي قبلته بعد تردد كتذكار للزواج واحتساء البيرة ومهر العروس المعتاد، عادت بذاكرتها للوراء وفكرت في أولئك الناس الذين لم يصدقوا قبولها الزواج من موثوجا خاصة بعد أن رفضت كثيرًا من الشباب وكانوا ينظرون إليها باستياء مرددين: آه! أيحظى رجل عجوز

بمثل ذلك الشباب والجمال؟!

كانوا يتهامسون في ما بينهم بأنها لابد قد وقعت تحت تأثير السحر ويبدو أن ذلك ما حدث بالفعل، فلقد أحبته كثيرًا، وفي يوم زفافها أصابتها الدهشة وهي في طريقها إلى (شامبا) حين اقترب منها ثلاثة رجال فجأة وحملوها إلى كوخ الرجل الذي تم تشييده خصيصا لها، ها هي الآن تتذكر كل شيء، لقد شدّها الرجال الثلاثة بقوة من الأرض فانتابها الخوف لحظة قصيرة وحاولت بكل قوتها أن تتخلص من أياديهم الرقيقة وهي فوق أكتافهم، لكنهم لم يهتموا بمقاومتها وقام أحدهم بقرصها في وجنتيها حتى تكف عن محاولة الخلاص وتلتزم الهدوء، فما كان منها إلا الاستسلام لتلك المداعبة الغريبة والجميلة جدا والتوقف عن المقاومة، وحينئذ شعرت بأن أصابع الرجال المشبعة ببذور الذرة الناعمة تداعب قدميها وجانبيها فانتابتها سعادة حقيقية لم تستطع معها أن تتوقف عن البكاء طوال الطريق إلى بيت زوجها.

لم يمض وقت طويل حتى تلاشى حبها الكبير وفقدت اهتمامها بكل شيء، فلقد كان شبابها وجمالها سببا في اشتعال غيرة الزوجات الأخريات اللاتي كن يفعلن كل ما في وسعهن للوقوف دون استمتاعها بحب الرجل كما حدث معهن طوال سنوات، تذكرت ذلك اليوم الذي نالت فيه الزوجة الكبرى عقابا بالضرب عندما رفضت تقديم الوقود لها من كوخها وأشياء أخرى كثيرة جعلتها تكره الزوجات الأخريات اللاتي لم يتوقفن عن محاولة كسب تعاطف القرية كلها، غير أنها لم تعد تهتم بغطرستهن وعدم اهتمامهن بها وقالت لنفسها: لماذا ينبغي أن أهتم؟ ألم يتحقق حلمي وطموحي وكل شيء في هذا الرجل؟

مضت أيام كثيرة وحين أوشك العام الثالث على الانتهاء

بدأ العالم الذي تعرفه موكامي يتغير خاصة أنها لم تنجب أطفالا.. امرأة عاقر!

ليس من طفل يؤكّد الرابطة بينه وبينها!

ليس من طفل يكرّس العناق واللوم!

ليس من طفل يخلد أرواح أجداد زوجها ودم أبيها!

كانوا يبتسمون ويتهامسون فشعرت بالهزيمة.. أوه، كيف تسللت إليها ابتسامات الناس الغريبة الوقحة؟!

همست لنفسها: «أنا لا أملك شيئا يدعوني للخوف فليشعروا بالانتصار والبهجة كما يشاءون لأنني مازلت أملك زوجي».

لقد استطاعت موكامي أن تشفي قلبه المتحجر بعض الوقت لكنه بدأ يضربها وبدأت هي بدورها تتغير وتشعر بالاستياء... موثوجا المجاهد والفلاح والراقص لم يكن يجد مخرجًا لكل غضبه المتراكم وضيقه وإحباطاته إلا في ضربها مثلما حدث عندما شاهدها تتشاجر مع الزوجة الكبرى، فراح يضربها أمام الجميع دون أن يتحرك أحد للمساعدة، وهكذا بدأت رحلة العذاب والشقاء، كان يطلبها في الصباح الباكر ليضربها بشدة دون أي تحذير أو تفسير، لكنها لم تكن تصرخ مثل الزوجات الأخريات اللاتي كن يتوسلن ويطلبن الرحمة، كانت موكامي ترفض بشدة أن يقهر ذلك الضرب إرادتها وقررت أن تتفوق على كل آلامها إذ لم يكن لها مكان آخر تلجأ إليه كما لم يعد ممكنًا أن تعود إلى بيت أبيها العجوز، فلن تقدر على مواجهته بالإضافة إلى الخجل الذي ستشعر به في حال عودتها.

كان نسيم الليل باردًا، فتدفقت الدموع من عينيها إلى خدّيها، وانتابها إحساس بالقمع وهي تشق طريقها إلى أسفل الوادي حيث الشجرة الكثيفة ذات الأشواك، جلست بجوار جدول الماء وكانت الأشجار الهادئة تذكّرها بالقرية،

وبدا كل شيء كأنه متعاطف معها، غير أن إحساسا ما لم يفارقها بأن كل شيء كان يستنكر في هدوء محاولتها في الهرب.

ظلت تمشي بمحاذاة جدول الماء حتى عبرته من مكان منخفض بأن وضعت قدميها فوق الأحجار الثلاثة المتراصة وكانت لاتزال غاضبة وحزينة جدا حتى أنها لم تشعر بالأخطار التي تحيط بها وهي تفكر: هل هذا هو المكان الذي يلقون فيه بالموتى؟ وهل هذا هو المكان الذي ترفرف فيه أرواح الموتى مع الهواء والأشجار لتضايق الغرباء والمتطفلين؟ كانت غاضبة من العالم ومن زوجها، لكن غضبها من نفسها كان أكثر حدّة فراحت تسأل نفسها: هل أنا دائما مخطئة؟ وهل لابد أن أدفع ثمنًا باهظًا لانتزاع نفسي من ذلك الرجل الذي ضحيت بشبابي وجمالي من أجله؟

شعرت بضيق شديد وأصبحت الدموع المتدفقة من عينيها أكثر غزارة.

أوه، يا أرواح الموتى... تعالي من أجلي!

أوه، مورونجو، يا إله جيكوبو وإله مومبي...

يا من يقطن مرتفعات كيرينياجا ولا يزال في كل مكان...

لماذا لا تخلصني من ذلك الشقاء؟

أمي، الأرض الغالية... لماذا لا تنفتحين وتبتلعينني كما ابتلعني جومبا الذي اختفى تحت جذور ميكونجو؟

هكذا كانت تتوسل وتبتهل إلى أرواح الموتى والأحياء كي تأتي وتنقلها بالقوة إلى حيث يصبح من المتعذر رؤيتها مرة أخرى، ثم فجأة - وكأنها استجابة لتوسلاتها - سمعت من بعيد صوتًا حزينًا وشجيًا... هبّت الرياح بقوة وتلاشت النجمة الوحيدة في السماء فأصبحت وحيدة وسط غموض الغابة، وعندئذ شعرت بشيء ما يلمسها، شيء ما بارد ولا

حياة فيه فقفزت من مكانها وراحت تصرخ بقوة وكان صدى صرخاتها يتردد عبر الغابة كلها.

تملّكها خوف جارف وظل كل جسدها يرتجف، وما هي إلا لحظة قصيرة حتى أدركت أنها ليست وحيدة، فها هي آلاف الأعين تتوهج وتتلألأ مع صرخاتها وبعض أياد كثيرة لا يمكن رؤيتها كانت تدفعها للأمام وللخلف، فأيقنت على الفور أنها موجودة الآن في أرض الأشـــباح وحيدة وبعيدة عن الوطن فتسللت القشـــعريرة إلى جسدها ولم تستطع أن تحس بشيء أو تفكر في شيء كما فقدت قدرتها على الصراخ... لابد أنه القدر، إنهـــا إرادة مورونجو... فقدت مقاومتها المتبقية وشعرت بالنهاية تقترب، نهاية أحلامها وطموحاتها.. إن ذلك يدعو فعلا للسخرية، فهي لم تشأ أن تموت وإنما كانت فقط تتطلع إلى فرصة أخرى تبدأ معها حياة جديدة مليئة بالعطاء ولا تتسم بالأخذ فقط.

رقدت فوق الأرض دون أن يفارقها إحساســـها بالبؤس والشقاء وكانت تسمع من بعيد صرخات الضبع ونعيق البومة مع استمرار هبوب الرياح، كما بدأت الأمطار تتساقط فشعرت وكأن الأرض تتشقق من تحتها ثم أبصرت فجأة - من خلال البرق والرعد - شـــجرة بعيدة وضخمة ذات أوراق كثيفة تتمايل حول جذعها.. عرفت موكامي أنها شجرة موجومو المقدسة فقالت: هاهو المكان المقدس، هاهو الملاذ!

بدأت تجري دون أي اكتراث بالأمطار أو الرعد أو الأشباح، وقد تلاشـــى زوجها من ذاكرتها وكذلك جبال موهوروبني وذلك العبء الذي تحمله في قلبها، ظلت تجري عبر الدغل الشائك وهي تتخبط في الأشجار ثم تسقط على الأرض وتسارع بالنهوض، لم تعد عاجزة أو قلقة ولم يكن يشغلها شيء سوى الوصول إلى الشـــجرة فقط، إنها مسألة حياة أو موت، هي معركة من أجل البقاء، فقد تجد هناك تحت

شجرة موجومو المقدسة الحماية والملجأ والسلام.. هناك قد تقابل ربها وإله شعبها مورونجو، كانت تجري برغم جسدها الهزيل ثم شعرت فجأة بسخونة داخل رحمها.

أصبحت قريبة من المكان المقدس، قريبة من الهيكل، قريبة من الخلاص، فسارعت بالهرولة نحو الهيكل وكأنها تطير أو كأن روحها تحلق، فشعرت بأنها خفيفة وحين وصلت كانت تلهث بقوة ولا تقدر على التنفس.

لم تتوقف الأمطار عن السقوط لكن موكامي لم تكن تشعر بشيء وكانت نائمة تحت شجرة الإله ذات الأوراق الباعثة على الحماية، وقد انتابتها نوبة أخرى من السحر.

استيقظت وقد اعتراها إحساس جديد.. ماذا؟ لا شيء، لا أحد! لابد أنها مومبي الواقفة إلى جوار زوجها. جيكويا هي التي لمستها برفق لمسة حانية تسللت إلى كل جسدها أم أنها كانت تحلم، قالت مومبي: إنني أم الشعب.. يا له من حلم غريب وجميل!

نظرت موكامي حولها فعرفت أن المكان لا يزال غارقًا في الظلام، لكنها أبصرت الشجرة القديمة الصامدة القوية والتي لا يمكن التنبؤ بعمرها فهمست لنفسها: كم من الأشجار تختزنها تلك الشجرة؟

شعرت بأنها إنسانة جديدة وراضية ومفعمة بالأمل فقالت: يجب أن أعود إلى بيتي وزوجي وأهلي.

ثم راحت تنام من جديد... إنها نوبة السحر!

بدأت الشمس ترسل خطوطها الصفراء المتلألئة عبر الغابة من اتجاه الشرق، بينما كانت موكامي مستندة إلى الشجرة، وحين لامست جسدها خطوط الضوء الشاردة شعرت بجسدها كله يهتز وبالدم يذوب في عروقها.. أوه، لقد شعرت بدفء شديد وسعادة غامرة كما أحست بأنها تحلق وأن روحها ترقص، بينما كان رحمها يتحدث لغة جديدة

فعرفت بأنها حامل.

نهضت من رقدتها استعدادا للذهاب وراحت تحلّق في الفضاء بعينين دامعتين دون أن ترى شيئًا، إنها دموع العرفان بالجميل واليأس هي التي تتدفق فوق وجهها، وهناك في ما وراء الغابة وفي ما وراء جدول الماء بدت عيناها وكأنهما تبصران شيئًا، شيئًا غامضًا ومختفيًا في المستقبل البعيد... أبصرت شعب موهوروويني ولاح أمامها زوجها قويًا لا تبدو عليه ملامح الكبر وهو واقف بين شعبه فهمست لنفسها قائلة: «ذلك هو مكاني العادل، هناك إلى جوار زوجي وبين الزوجات الأخريات.. يجب أن نتوحد لنخلق حياة جديدة».

ثمة بقرة كانت تخور هناك بعيدًا، استيقظت موكامي على إثرها من حلم يقظتها وبدأت تتحرك قائلة: «لابد أن أذهب!»

بينما كانت شجرة موجومو الضخمة لا تزال سامقة وصامتة ومليئة بالأسرار.

المؤلفون

١- إدجار آلان بو (١٨٠٩ - ١٨٤٩):
شاعر وكاتب أمريكي. ولد في بوسطن بولاية ماساشوستس. وأكثر ما اشتهر به قصص الرعب وروايات التحري والخيال العلمي. يعتبره كثيرون، إلى جانب الروسي تشيكوف والفرنسي موبسان، مؤسس فن القصة القصيرة في العصر الحديث. عاش حياة درامية وعانى إدمان الكحول ثم مات في سن الأربعين. وانطلقت شهرته بقصيدة «الغراب»، ومن أشهر أعماله: «جريمة قتل في شارع المشرحة»، «الحشرة الذهبية»، «أنابيل لي»، «ليلة شهرزاد الثانية بعد الألف»، «القط الأسود»، و«بضع كلمات مع مومياء».

٢- ناثانيل هوثورن (١٨٠٤ - ١٨٦٤):
روائي أمريكي وكاتب قصص قصيرة، ينتمي هوثورن إلى سلالة من المتطهرين الأمريكيين، وغالبًا يتحدث في رواياته وقصصه عن الحركة التطهرية في أمريكا. نشأ في عزلة مع أمه الأرملة التي ارتبط بها عاطفيًا، وأحرق مخطوط مجموعته الأولى بعدما رفضها الناشرون، وقد تنقل بين عدة مهن بسيطة لا تقيه عوز الفقر. أشهر أعماله: الحرف القرمزي، البيت ذو الجدران السبعة، قصص رويت مرتين، آلهة الحقول الرخامية.

٣- روبين داريو (١٨٦٧ - ١٩١٦):
شاعر نيكاراجواني، اسمه الحقيقي فيليكس روبين جارثيا سارميينتو، ولد في ميتابا، التي تُسمى الآن مدينة داريو في نيكاراجوا، يُطلق عليه أمير الأدب الإسباني أو الأب الروحي للشعر الإسباني الحديث. تنقل بين أكثر من مدرسة حتى انتهت به الحال للدراسة في جماعة اليسوعيين، وبدأ في كتابة الشعر في سن مبكرة جدًا، وحقق شهرة واسعة بوصفه «الطفل الشاعر»، في شبابه عمل في الصحافة، وقد عاش حياة قلقة ما بين نيكاراجوا والسلفادور وتشيلي وغواتيمالا وكوستاريكا والأرجنتين، دون أن يتخلى عن

نثر غير مقدس، أغاني الحياة والأمس، الأغنية التائهة.

٤- خوليو رامون ريبيرو (١٩٢٩ - ١٩٩٤):

ولد في بيرو ويعد أحد أهم كتاب أمريكا اللاتينية وتعتبر قصصه من كلاسيكيات الأدب المعاصر. كتب في الرواية والمسرح والمقال الأدبي وغيرها ولكنه برز كقاص. أهم ما يميز أسلوبه المحافظة على دهشـــة القارئ، فالعالم الخيالي لديه ينزلق بشكل غير واع تقريبًا من خلف المشاهد والظروف التي تكون عادة منتمية للحياة اليومية، وغالبًا ما يلجأ أيضا إلى الكتابة الإخبارية واليوميات والنقد والحكايات الرمزية والأسطورة. وقد نشرت أعماله القصصية في مجلد صدر عام ١٩٩٤ وضم ٨٧ قصة.

٥- ماشادو ده أسيس: (١٨٣٩ - ١٩٠٨):

روائي وقاص برازيلي ولد في ريو دي جانيرو وعاش وتوفي بها؛ ويعد الأب الحقيقي للأدب البرازيلي الحديث، ومؤسس الأكاديمية البرازيلية للآداب ورئيسها حتى وفاته، وأحد رواد المذهب البرناسي والواقعية في الأدب البرازيلي، وعلى الرغم من شهرته في بلده؛ فإن أعين المترجمين العرب لم تتنبه لإبداعاته إلا من فترة قريبة؛ ومن أشهر أعماله: «في ذكرى رابح صغير»، «دوم كاسمورو»، «مذكرات براس كوباس»، «الفيلسوف أم الكلب».

٦- ماريو بينيدتي (١٩٢٠ - ٢٠٠٩):

كاتب وشـــاعر أوروجواني، ولد في باســـو دي لوس توروس في أوروغواي. كان عضوا في جيل الـ٤٥ واشتمل إنتاجه الأدبي الغزير على أكثر من ثمانين كتابًا، وتمت ترجمة العديد من أعماله إلى أكثر من عشـــرين لغة. و يعتبر أحد أبرز كتاب أمريكا اللاتينية. وقد تنقل في مختلف المهن (بائع، محاســـب، موظف، صحفي) قبل أن ينتقل للعيش في بوينوس آيرس العاصمة الأرجنتينية ما بين ١٩٣٨ و١٩٤١ كما عاش لفترات في كوبا والبيرو وإســـبانيا.

طبعت أكثر من مائة طبعة، وأيضًا «بقايا القهوة» ومجموعة «عروس البحر الأرملة».

٧- خورخي لويس بورخيس (١٨٩٩ - ١٩٨٦):

شاعر وقاص وناقد أرجنتيني يعتبر من أبرز كتاب القرن العشرين. ولد في بوينس آيرس لعائلة تختلط في أصولها دماء إسبانية وبرتغالية وبريطانية. أتقن الإسبانية والإنجليزية في منزل العائلة والفرنسية عند سفره إلى جنيف، كما علم نفسه الألمانية. تبنى في بداياته مذهب «الفن للفن» وانتمى إلى حركة «حراس» المتطرفة أدبيًا، واشتهر بكتابة أحداث حقيقية بأسلوب تخييلي. كما عمل كمستشار أدبي لدار النشر إميسي إديترز، وموظف في مكتبة بيونس آيرس البلدية، ومع فقد بصره بالتدريج وجد صعوبة في إعالة نفسه. حاز على عشرات الجوائز العالمية لكن ليس من بينها جائزة نوبل، ومن أشهر أعماله: حدائق الممرات المتشعبة، «كتاب البدايات انخيالية»، «كتاب الرمل»، مكتبة بابل، الألف، المرايا والمتاهات.

٨- خوسيه ماريا ميرينو:

ولد في لا كورونيا في إسبانيا عام ١٩٤١ وعاش لعدة سنوات في ليون، وحاليًا يعيش في مدريد، ويعتبر من أشهر الكتاب الإسبان حاليًا وأغزرهم إنتاجًا في الرواية والمقالة وأدب الرحلات، كما يلقب بـ«سيد القصة القصيرة». يحاضر في العديد من الجامعات، وأيضًا يشرف على ورشات إبداعية للكتاب الشباب وقد انضم عام ٢٠٠٨ إلى الأكاديمية الملكية الإسبانية. ومن أشهر أعماله «رؤى لوكريثيا».

٩- دينو بوتزاتي (١٩٠٦ - ١٩٧٢):

صحفي وشاعر وكاتب ورسّام إيطالي. ولد في مدينة بِلّونو شمال شرقي إيطاليا، وتوفي في ميلانو إثر مرض عضال. كان أبوه أستاذ القانون الدولي، ودرس هو الحقوق أيضًا، تيمّنًا بأبيه، في

جامعة ميلانو. لكنه آثر الصحافة على الحقوق فعُيّن محررًا في صحيفة «بريد المساء»، درس وتعلّم العزف على الكمان والبيانو. ومن أشهر أعماله: برنابو الجبال، و«صحراء التتار» التي أكسبته شهرة عالمية، ومجموعته القصصيّة «الرُسُل السبعة» و«رعب في مسرح السكالا» ومسرحية «حالة مهمة». وغالبًا ما قارن النقاد بينه وبين كافكا، وهو ما كرهه بوتزاتي.

١٠- آندريه ميكيل:
ولد عام ١٩٢٩ في فرنسا، وأتقن اللغة العربية في المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق، وشغل منصب أستاذ اللغة والآداب العربية الكلاسيكية في الكوليج دو فرانس. يعد من كبار المستعربين على مستوى العالم، وصدر له أكثر من ستين كتابًا معظمها حول الثقافة العربية والإسلامية، ومنها ترجمة الجزء الأول من حكايات ألف ليلة وليلة، بالتعاون مع جمال الدين بن شيخ ضمن سلسلة «لا بلياد» الشهيرة الصادرة عن «غاليمار»، كما ترجم أشعار مجنون ليلى وقارنها بما يقابلها في الآداب الفرنسية، ومختارات من أشعار الحب عند العرب. ومن أعماله القصصية «الابن المبتور».

١١- جان ماري جوستاف لو كليزيو:
ولد في ١٣ أبريل ١٩٤٠ في مدينة نيس الفرنسية، وقد قضى سنتين من طفولته في نيجيريا، وقام بالتدريس في جامعات في بانكوك وبوسطن ومكسيكو سيتي. روائي فرنسي حائز جائزة نوبل للآداب ٢٠٠٨. اشتهر عام ١٩٨٠ بعد نشر رواية «الصحراء» التي اعتبرتها الأكاديمية السويدية تقدم «صورا رائعة لثقافة ضائعة في صحراء شمال إفريقيا». ومن أشهر أعماله: الحمّى، الطوفان، الأرض المقدسة، النشوة الحسية، الربيع والفصول الأخرى، النجمة الهائمة، والسمكة الذهبية.

١٢- دنيس جونسون ديفز:
مترجم بريطاني ولد في كندا عام ١٩٢٢ وعاش فترة من طفولته في القاهرة

ووادي حلفا في السودان. عمل في الفترة من ١٩٤١عام حتى ١٩٤٥ في هيئة الإذاعة البريطانية وبسبب العاملين العرب بها شكلت تلك الفترة أول احتكاك بينه وبين اللغة العربية بعد دراسته الأكاديمية. كما عمل مترجما في المجلس البريطاني في القاهـــرة فكان ذلك أول صلة فعلية بينه وبين العالم العربي وآدابه، حيث تعرف في القاهرة على عدد من الأدباء العرب وخلال فترة وجوده في القاهرة عمل أستاذا للغة الإنجليزية في جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليًا) لكنه لم يستمر طويلا. ويعتبر دنيس أحد أهم المترجمين الذين قدموا الأدب العربي إلى القارئ الغربي، وقد وصل ما ترجمه من الأدب العربي أكثر من ثلاثين مجلدًا.

١٣- ف.س. نيبول:

روائي بريطاني ولد عام ١٩٣٢ في ترينيداد، لأســـرة هندوسية. في سن الثامنة عشرة غادر نيبول إلى إنجلترا وحصل على شهادة في الأدب عام ١٩٥٣ من جامعة أوكســـفورد. وهو يقيم منذ تلك الفترة في إنجلترا لكنه يخصص قسطا كبيرا من وقته لرحلات إلى آسيا وإفريقيا وأمريكا. كرس حياته للكتابة الأدبية، وعمل في منتصف الخمسينيات صحافيا لمصلحة هيئة الإذاعة البريطانية. ومن أشهر أعماله: عامل التدليك المتصوف، شارع ميجيل، منزل السيد بيسواس، في منعطف النهر. حاز جائزة «بوكر» البريطانية عام ١٩٧١ وعلى جائزة نوبل في الآداب عام ٢٠٠١.

١٤- فريد أوركوهارت: (١٩١٢ - ١٩٩٥):

كاتب اسكتلندي، ولد في أدنبرة لأب يعمل سائقًا، كان من دعاة السلام والمنددين بالحرب العالمية الثانية، ودارت معظم قصصه في أجواء ريفية، كما كان مولعًا بالخيول وحرر عنها كتابًا. وقد أشاد جورج أورويل الكاتب الشهير بالبناء القصصي في أعماله، ومن أشهرها «رماد إيزابيل».

١٥- راينر ماريا ريلكه (١٨٧٥ - ١٩٢٦):

ولد في براغ، وعاش طفولة قاسية بعد طلاق والديه ووفاة شقيقته الكبرى، مال إلى العزلة والانطواء والحياة البوهيمية. يعد واحدًا من

أكثر شعراء الألمانية تميزًا. ركّز في شعره على صعوبة التواصل في عصر العزلة والقلق العميق، وهي المواضيع التي وضعته كشخصية انتقالية بين الشعر التقليدي وشـــعر الحداثة. ومن أهم أعماله: «مرثيات دوينو»، و«رسائل إلى شاعر شـــاب». يوصف بالشاعر الذي قتلته وردة، ففي صباح أحد أيام أكتوبر عام ١٩٢٦، خرج إلى حديقة مقرِّه السويسري لكي يقطف، كعادته، بعض ورودها، ولم يكترث عندما جَرَحَتْ يدَه إحدى الأشواك، ولم يَخَفْ بل ظهرت لديه في المرحلة نفســـها بوادر اللوكيميما، فأسلم الروح بعدها بأسابيع قليلة.

١٦- مارتين موزيباخ:

ولد عام ١٩٥١ في فرانكفورت، ابنـــا لطبيب. درس الحقوق في جامعتي فرانكفورت وبون. وفي عام ١٩٨٠ تفرغ للكتابة واستقر في مســـقط رأســـه. وتتنوع أعماله بين المقالة والرواية والقصة والشعر. يعد حاليًا أحد أبرز الروائيين الألمان بعد حصوله على جائزة بوشنر عام ٢٠٠٧، وهي أهم وسام أدبي في ألمانيا. تتميز رواياته بالضخامة نوعًا ما، وتحوز إعجاب النقاد والنخبة أكثر من الجمهور العادي، وأهمها: «الفراش»، «ليلة طويلة»، «أمير الضباب» و«الزلزال».

١٧- أرنولف أوفرلاند (١٨٨٩ - ١٩٦٨):

شاعر ورسام نرويجي، عانى وفاة والده مبكرًا حيث ترك الأسرة في ضائقة مالية، لكن بفضل والدته استطاع مواصلة تعليمه ودرس لفترة وجيزة فقه اللغة في جامعة الملك فريدريك (جامعة أوسلو). انتمى إلى الحركات اليسارية في شبابه، كما شارك في حركة المقاومة النرويجية ضد الاحتلال النازي إبان الحرب العالمية الثانية.

١٨- هنريك شينكيفيتش (١٨٤٦ - ١٩١٦):

كاتب بولندي، ولد لعائلة فقيرة ذات أصول نبيلة، وعمل في الصحافة، كما سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وقد بدأ نشر رواياته

مسلسلة منذ عام ١٨٨٠ وسرعان ما ذاع صيته بوصفه أحد أشهر الروائيين في بولندا ما بين أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. ومن أشهر أعماله الثلاثية التاريخية: بالحديد والنار، الطوفان، والسيد مايكل. وقد توج مشواره بفوزه بجائزة نوبل في الأدب عام ١٩٠٥

١٩- ستيفان جرابينسكي (١٨٨٧ - ١٩٣٦):

ولد في كامينوكا ستروميووفا على نهر بوغ لأب قاض وأم معلمة بيانو. درس الأدب البولوني واللغات القديمة. تنقل بين بولونيا والنمسا وإيطاليا ورومانيا، ومن مجموعاته القصصية: على قمم الورود، روح الحركة، الجمعة المجنونة، قصة غير عادية، ومن رواياته: السالاماندر، الدير والبحر، جزيرة ايتونغو.

٢٠- إسماعيل كاداريه :

ولد في ألبانيا عام ١٩٣٦، وبدأ نشر أعماله عام ١٩٦٣، وقد عانى الملاحقة بسبب نشاطه السياسي خلال الحقبة الرئاسية (١٩٨٢-١٩٩١)، لكنه واصل نشاطه السياسي إلى أن أصبح نائبا لرئيس الجبهة الديمقراطية، في الوقت نفسه تابع إبداعه الأدبي إلى أن طلب حق اللجوء السياسي إلى فرنسا مع زوجته عام ١٩٩٠ وبالرغم من بقائه في فرنسا إلا أن اتصاله ببلاده لم يتوقف، وقد فاز بجائزة بوكر التي تمنحها المملكة المتحدة عام ٢٠٠٥، وجائزة أمير ستورياس الإسبانية ٢٠٠٩، ومن أشهر رواياته: «جنرال الجيش الميت»، «الشتاء الطويل»، «أبريل المحترق»، «قصة جنازات ثلاث»، و«ابنة اجامينون».

٢١- فلاديمير نابوكوف (١٨٩٩ - ١٩٧٧):

وُلد في سان بطرسبرج، وعاش حياة مليئة بالأحداث والترحال والإبداع، فقد هاجر إلى انجلترا بعد ثورة ١٩١٧، وتخرج في جامعة كامبردج عام ١٩٢٢، وانتقل إلى الولايات المتحدة في ١٩٤٠. وعمل في البداية أستاذا للأدب الروسي في جامعة كورنيل، ثم انتقل إلى

الروائيين في القرن العشرين. وأشهر [illegible]
«قصائد ومشـــكلات»، كما جمعت أعماله القصصية في مجلد «قصص فلاديمير نابوكوف» صدر عام ١٩٩٥.

٢٢- بارزو عبدوالرزوقوف:

كاتب وقاص من طاجيكستان.

٢٣- محمد محمدي:

ولد محمد هادي محمدي في طهران عام ١٩٦١ و بدأت أعماله في الظهور وهو في الثانية والعشرين من عمره. اشتهر ككاتب لقصص الأطفال وقد حاز العديد من الجوائـــز وترجم بعض أعماله إلى لغات مختلفة. من أشهر قصصه «رواد الفضاء في قمائن الطوب» و«النجمة المجنحة» و«الأرنب الحكيم». المجموعة القصصية الوحيدة التي لم تكن للأطفال هي «الفأر الذي كان يأكل القطط» اشتملت على عشر قصص قصيرة، منها «العناكب الملعونة». وقد قام بنشر العديد من البحوث في مجال النقد الأدبي والأساطير والتاريخ. ولعل من أهم أعماله كتابه «الارتقاء والتدهور»، الذي يتناول تاريخ إيران وديانات ما قبل الإسلام.

٢٤- مو يان:

روائي صيني ولد في ١٧ فبراير ١٩٥٥، يوصف بأنه «أحد أشهر الأدباء الصينيين وبأن أعماله الأكثر منعًا من قبل السلطات الصينية. ينتمي إلى أسرة ريفية في شمال شرق الصين، بعد أن انتهى من دراسته الابتدائية اتجه إلى زراعة الأرض، واستكمل دراسته الثانوية. وفي عام ١٩٧٦ انضم إلى القوات المسلحة الشعبية للتحرير. وبدت موهبته الإبداعية في مجـــالات مختلفة؛ خاصة الرواية والقصة القصيرة. ونشر روايته الأولى «الفجل الكريستال» عام ١٩٨١، تأثر بأسلوب فلوكنر وهيمنغواي وماركيز، إلى درجة وصفه بأنه «فولكنر الصيني». حاز جائزة نوبل في الآداب عام ٢٠١٢ وإن كان ثمة لغط

٢٥- يوكيو ميشيما (١٩٢٥ - ١٩٧٠):

روائي ومسرحي وممثل ومخرج ياباني. ولد لعائلة تنتمي إلى الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة ودرس القانون في جامعة طوكيو، والتحق بعد تخرجه بوزارة المالية ثم استقال ليتفرغ للكتابة. انضم إلى حركة الرومانتيكيين التي عرفت بإيمانها بتدمير الذات كقيمة في ذاتها. رغم قصر عمره كان ميشيما غزير الإنتاج ترك أكثر من ٤٠ رواية و١٨ مسرحية و٢٠ مجموعة قصصية وما لا يقل عن ٢٠ كتابًا يضم مقالاته، بالإضافة إلى فيلم واحد. ورشح للحصول على جائزة نوبل في الأدب ثلاث مرات، رغم صغر سنه، وكان اسمه معروفًا على نطاق عالمي، بوصفه أشهر الكتاب اليابانيين في القرن العشرين، انتحر بالسيف على طريقة الساموراي احتجاجا على «تغريب» اليابان. من أشهر أعماله: ثلج الربيع، الجياد الهاربة، معبد الفجر، سقوط الملاك، واعترافات قناع.

٢٦- رانكو مارينكوفيتش:

كاتب روائي ومسرحي أوكراني من مواليد فبراير عام ١٩١٣. درس الفلسفة أكاديميا. له ستة أعمال درامية شهيرة تحولت إلى أعمال سينمائية ومسرحية، بين الفترة ١٩٦٠ - ١٩٩٠، توفي في ٢٨ يناير عام ١٩٨٧.

٢٧ - باولو كويلهو:

كاتب روائي برازيلي، وصاحب رواية «الخيميائي» الشهيرة التي ترجمت إلى أكثر من ٦٧ لغة، وتجاوزت مبيعاتها ١٥٠ مليون نسخة في أنحاء العالم. من مواليد عام ١٩٤٧ في مدينة ريو دي جانيرو. مارس الإخراج المسرحي، كما مارس

٢٨- هاروكي موراكامي:

كاتب ومترجم ياباني ولد في ١٢ ينايـــر ١٩٤٩ في مدينة كيوتو، درس الدراما في جامعة واسيدا في طوكيو حيث تعرف على زوجته يوكو، حاز عدة جوائز أدبية عالمية منها جائزة فرانك كافكا عن روايته «كافكا على الشــاطئ»، كما صنفته مجلة الجارديان على أنه أحد أبرز الروائيين على قيد الحياة في العالم ورشـــح بقوة لنيل جائزة نوبل في الآداب. من أشهر أعماله: أسمع صوت أغنية الريح، جنوب الحدود.. غرب الشمس، سبوتنيك الحبيبة، الغابة النرويجية، رقص.. رقص.. رقص.

٢٩- نادين جورديمر:

ولدت في جنوب إفريقيا عام ١٩٢٣ في عائلة برجوازية لأب يهودي الأصل وأم إنجليزية. تأثرت بسياسة التمييز العنصري وكتبت أول قصة لها في سن التاســعة وهي متأثرة بمداهمة الشرطة لمنزل خادمتها السوداء. كتبت أكثر من ١٣ رواية ومائتي قصة قصيرة، من أشهرها: «شــعب يوليو»، وحازت جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٩١، وربما تكون هي الكاتبة الأكبر سنًا بين الحاصلين على تلك الجائزة المرموقة.

٣٠- جيمس نجوجي:

ولد في كينيا عام ١٩٣٨، تعرض للسجن بسبب نشاطه السياسي واضطر للهرب إلى الولايات المتحدة حيث قام بالتدريس في جامعات شــهيرة، مثل ييل وكاليفورنيا. صحفي وكاتب نشط في مجالات متنوعة، منها المسرح والرواية والقصة القصيرة وأدب الطفل، وهو مرشح على قوائم الفوز بجائزة نوبل في الآداب منذ عدة سنوات، كما رشح للفوز بجائزة بوكر.

sig9 sideA colorRenaissance Black time10:

م	القصة	المؤلف	المترجم	العدد	الشهر	السنة
١	جزيرة الجنية	إدجار آلان بو	غادة الحلواني	٦٣٩	٢	٢٠١٢
٢	الرأس ذو الريشة	ناتانيل هوثورن	رشا الجديدي	٥٧١	٦	٢٠٠٦
٣	الطرد	روبين داريو	أحمد يماني	٦٢٨	٣	٢٠١١
٤	ديمتريو	خوليو ريبيرو	نادية جمال الدين	٦١٧	٤	٢٠١٠
٥	رجل شهير	ماشادو ده أسيس	خليل كلفت	٤٩٠	٩	١٩٩٩
٦	مثلث متساوي الأضلاع	ماريو بنيديتي	طلعت شاهين	٥٥٤	١	٢٠٠٥
٧	الأسطوانة	بورخيس		٥٧٥	١٠	٢٠٠٦
٨	جو ريفي	خوسيه ماريا ميرينو	صالح علماني	٥٦٣	١٠	٢٠٠٥

ثبت النشر في مجلة العربي						
٩	رسالة غرامية	دينو بوتزاتي	نهلة بيضون	٤٥٦	١١	١٩٩٦
١٠	صباح الليلة الأولى بعد الألف	آندريه ميكيل	أحمد عثمان	٦٤٦	٩	٢٠١٢
١١	آريان	ج. لوكليزيو	حمادة إبراهيم	٦١٨	٥	٢٠١٠
١٢	السيد بريتشارد	دنيس جونسون	كامل يوسف حسين	٥٨٦	٩	٢٠٠٧
١٣	ب.وردز ورث	ف.س. نايبول	د. أحمد هلال يس	٥٤٧	٦	٢٠٠٤
١٤	العَرَق	فريد أوركوهارت	ريم داود	٥٦٠	٧	٢٠٠٥
١٥	قاتل التنين	راينر ماريا ريلكه	حسين الموزاني	٥٥٠	٩	٢٠٠٤
١٦	بيضة الحمامة	مارتين موزيباخ	سمير جريس	٦٠٥	٤	٢٠٠٩
١٧	المفقود	أرنولف أوفرلاند	سميرة سليمان	٤٥٦	١١	١٩٩٦

ثبت النشر في مجلة العربي					
١٨	الموسيقي (يانكو)	هنريك شينكيفيتش	هناء عبدالفتاح	٥٧٠	٥	٢٠٠٦
١٩	القطار الهائم	ستيفان جرابينسكي	فهد حسين	٥٧٤	٩	٢٠٠٦
٢٠	الإمبراطور العجوز	إسماعيل كاداريه	عبد اللطيف الأرناؤطي	٥٦٥	١٢	٢٠٠٥
٢١	الكلمة	فلاديمير نابوكوف	كامل يوسف حسين	٦٣٢	٧	٢٠١١
٢٢	موتولوج المرأة التي اكتشفت الأناناس	بارزو عبد الرزوقوف	عبد الله كرمون	٦١٩	٦	٢٠١٠
٢٣	العناكب الملعونة	محمد محمدي	زبيدة علي أشكناني	٤٨٢	١	١٩٩٩
٢٤	مُرَبِّي البطّ	مو ويان	يارا المصري	٦٦١	١٢	٢٠١٣
٢٥	نوافير في المطر	يوكيو ميشيما	كامل يوسف حسين	٥٥٨	٥	٢٠٠٥
٢٦	يدان	رانكو مارينكوفيتش	طالب عبد الأمير	٥٦٩	٤	٢٠٠٦
٢٧	قصة طريقين (قصة عن الشقاق والوفاق)	باولو كويليو	ياسر شعبان	٥٦٧	٢	٢٠٠٦

ثبت النشر في مجلة العربي					
٢٨	يوم مثالي لمشاهدة الكانجارو	هوراكاي موراكامي	محمد عبدالنبي	٦٥٩	١٠	٢٠١٣
٢٩	قاتل بلا وجه	نادين جورديمر	ياسر شعبان	٥٣٩	١٠	٢٠٠٣
٣٠	موجومو	جيمس نجوجي	سمير عبد ربه	٥٣٥	٦	٢٠٠٣

المحرر في سطور

- شـــريف صالح كاتب وصحفي مصـــري مقيم في الكويت.
- صدر له أربع مجموعات قصصية: إصبع يمشي وحده، مثلث العشق، شخص صالح للقتل، وبيضة على الشاطئ. ومسرحية بعنوان «رقصة الديك»، ودراسة نقدية عن «تحولات الحكاية في أدب نجيب محفوظ».
- فاز بجائزة الشارقة للإبداع (الإصدار الأول)، وجائزة دبي الثقافية لأفضل مجموعة قصصية، وجائزة ساويرس في القصة القصيرة.

مقدمة الكتاب
يوم مثالي لمشاهدة الكانجارو ٤
أطلس الكتابة الحلوة ٨
القصص
جزيرة الجنيَّة ٢٢
الرأس ذو الريشة ٢٨
الطرد ٣٤
ديمتريو ٤٠
رجل شهير ٤٤
مثلث متساوي الأضلاع ٥٨
الأسطوانة ٦٤
جوٌ ريفي ٦٨
رسالة غرامية ٧٢
صباح الليلة الأولى بعد الألف ٧٨
آريان ٨٢
السيد بريتشارد ٩٨
(ب.وردز ورث) ١٠٨
العَرَق ١٢٠
قاتل التنّين ١٢٦

بيضة الحمامة	١٣٢
المفقود	١٤٤
الموسيقي «يانكو»	١٥٢
القطار الهائم	١٦٢
الإمبراطور العجوز	١٧٢
الكلمة	١٧٨
مونولوج المرأة التي اكتشفت الأنانا	١٨٤
«العناكب الملعونة»	١٩٠
مُرَبِّي البطّ	١٩٨
نوافير في المطر	٢٠٤
يدان	٢٢٠
قصة طريقين	
(قصة عن الشقاق والوفاق)	٢٣٤
يوم مثالي لمشاهدة الكانجارو	٢٤٢
قاتل بلا وجه	٢٤٨
موجومو	٢٥٦

الكويت ١ دينار	الجزائر ١٢٠ دينارا
السعودية ١٥ ريالا	اليمن ١٥٠ ريالا
الأردن ١ دينار	قطر ١٥ ريالا
سورية ٥٠ ليرة	سلطنة عمان ١ ريال
البحرين ١ دينار	لبنان ٥٠٠٠ ليرة
مصر ٥ جنيهات	الإمارات ١٥ درهما
السودان ٢٠٠ جنيه	المغرب ٢٠ درهما
تونس ٢ دينار	

سعر النسخة خارج الوطن العربي ٣ دولارات أمريكية
الاشتراك في الكويت ٥ دنانير
في الدول العربية ٨ دولارات أمريكية
خارج الوطن العربي ١٦ دولارًا أمريكيا.

الاشتراكات

قسم الاشتراكات - مجلة العربي - وزارة الإعلام
ص. ب: ٧٤٨ الصفاة - الكويت الرمز البريدي ١٣٠٠٨
على طالب الاشتراك تحويل القيمة
بموجب حوالة مصرفية
أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الإعلام.

هذا الكتاب

يضم هذا الكتاب مختارات القصص القصيرة المترجمة التي جلبتها مجلة العربي من مختلف الثقافات واللغات غير العربية، وصافحت بها أعين قراء مجلة العربي على مدى العشرين عاما السابقة.

وتكمن أهمية الكتاب الحالي في كونه يفتح نوافذ القراءة بالعربية على الشعوب غير العربية، فالقصة القصيرة تعتبر من أكثر النصوص تركيزا وتكثيفا للمشاعر الإنسانية التي تجسد رؤية محددة للحياة، من خلال عين ثاقبة لكاتب محدد، يستطيع أن يقتنص هذه الرؤية في كلمات سريعة دون إملال للقارئ.

وبذلك يفتح الكتاب الحالي لقراء العربية حوالي ثلاثين نافذة تطل على ثقافات وشعوب مختلفة تمتلك رؤى مختلفة عن الحياة، لكنها تشترك جميعا في رهافتها الإنسانية وفي قدرتها على بلورة هذه الرؤى في صفحات قليلة، ما يمثل فرصة جيدة للقارئ الراغب في القراءة المتقطعة والمحجم عن طريقة القراءة التي تتطلب الالتزام بساعات طويلة مخصصة للانتهاء من رواية واحدة، تمثل في النهاية نافذة واحدة على الحياة.

كتاب العربي ٩٦

يوم مثالي لمشاهدة الكانجارو وقصص أخرى ٣٠ قصة من روائع القصص العالمية

تقديم: شريف صالح

وزارة الإعلام: مطبعة حكومة الكويت